

س. تيدور

C.J.TUDOR

الحفرة





THE TAKING OF ANNIE THORNE

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

س. تيدور

RODUT .J .C

الحفرة

FO GNIKAT EHT

ENROHT EINNA

ترجمة

بسام شيحا

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2019 م – 1440 هـ

مقدمة

حتى قبل دخوله إلى المنزل الريفي، يعلم غاري أن ما هو مُقْدم على كشفه سيكون بشعاً.

إنها الرائحة المقزِّزة الآتية عبر الباب المفتوح، والذباب الذي يئزُّ حول المدخل الخانق من شدة الحر، وإذا لم يكن هذا دليلاً على أن شيئاً ما غير طبيعي يتعلق بهذا المنزل –غير طبيعي بأسوأ الطرق الممكنة– فإن الصمت يؤكِّد ذلك.

توجد سيارة فيات بيضاء أنيقة قابعة على الطريق الفرعي الخاص بالمنزل، ودراجة هوائية تقف على مسندها خارج الباب الأمامي، وجزمة مطاطية مرمية عند المدخل تماماً. منزلٌ عائلي. ولكن، حتى عندما يكون منزل العائلة فارغاً فإن أصداء الحياة تظل تتردد منه. ولا ينبغي أن يقبع بثقلٍ مغلَّف بصمت سميك خانق ومنذر بالشر مثل هذا المنزل.

ومع ذلك، ينادي مجدداً: «مرحباً. هل يوجد أحد هنا؟»

ترفع شيريل يدها وتنقر بسرعة على الباب المفتوح. لقد أُغلق عند وصولهما لكنه غير مُقفَل. مرة أخرى، أمر غير طبيعي. صحيح أن آرنهيل قرية صغيرة لكن الناس، مع ذلك، يقفلون أبوابهم.

تصيح شيريل: «شرطة!»

لا شيء. لا صوتَ خطوةٍ خافتةٍ، ولا صرير، ولا حتى همسة. يتنهَّد غاري، مدركاً شعوره بالنفور من الدخول. ليس فقط بسبب رائحة الموت النتنة، بل بسبب شيء آخر أيضاً؛ شيء غريزي يحثُّه على الاستدارة على عقبيه والمغادرة فوراً.

تنظر شيريل إليه رافعةً، بتساؤل، أحد حاجبيْها الرفيعيْن ثم تقول: «حضرة الرقيب؟»

ينظر غاري إلى رفيقته التي لا يتعدّى طولها 162 سم ولا يصل وزنها إلى حافة الـ 50 كغ. إنه يبدو، بطوله البالغ 183 سم ووزنه الذي يتجاوز 120 كغ، مثل بالوو بالنسبة إلى بامبي (شيريل) الرقيقة –من ناحية

المظهر على الأقل. أما فيما يتعلق بالشخصية، فمن الممكن القول بسهولة إن غاري يبكي عند مشاهدة أفلام ديزني.

يعطيها إشارة صغيرة متجهِّمة ثم يدخل الاثنان إلى المنزل.

كانت الرائحة القوية المنفِّرة لتفسُّخ كائن بشري أشدَّ من أن تُحتمَل. يبلع غاري ريقه محاولاً التنفُّس من فمه، ومتمنياً لو أن شخصاً آخر –أي شخص آخر– كان بوسعه تولِّي هذه المهمة. تُغطِّي شيريل أنفها بيدها وملامح الاشمئزاز بادية على وجهها.

هذه المنازل الريفية الصغيرة نمطية إلى حد ما من ناحية تصميمها. مدخل صغير، وسلَّم على الجهة اليسرى، وغرفة جلوس على الجهة اليمنى، ومطبخ صغير في المؤخرة. ينعطف غاري نحو غرفة الجلوس ويدفع الباب فينفتح.

سبق لغاري أن رأى جثثاً من قبل. فتى صغير دهسته سيارة وهرب سائقها. مراهق سحقته ماكينة زراعية. كانت حالات فظيعة، بالطبع، وكان

من الممكن تفاديها حتماً، لكنه يقول في نفسه ثانيةً: هذا بشع. بشع جداً.

تقول شيريل بصوت هامس: «اللعنة». لا يستطيع غاري نفسه التعبير عما يراه بشكل أفضل من ذلك.

هذه الكلمة المفردة تُفصح عن كل ما يعتمل في داخلهما من مشاعر. اللعنة.

امرأةٌ مرتخية على أريكة بالية وسط الغرفة، مقابل شاشة تلفاز مسطحة كبيرة يظهر فيها كسْر على شكل شبكة عنكبوت يمشي حولها بتراخٍ ذباب أزرق سمين.

وتئزُّ بقية الذباب حول المرأة. الجثة -يصحِّح غاري لنفسه. لم تعد إنساناً الآن. مجرد جثة. قضية أخرى وحسب. تمالكْ نفسَك.

رغم التنفُّخ الناتج عن عملية التحلُّل، إلا أن بوسعه القول إنها كانت على الأرجح نحيلة عندما كانت حية، وذات بشرة فاتحة. أما الآن

فإنها مبقَّعة ومعرَّقة بأوردة خضراء. وترتدي ملابس أنيقة؛ قميصاً ذا مربعات، وجينزاً ضيِّقاً وجزمة جلدية. تحديد عمرها صعب لأن معظم الجزء العلوي من رأسها مفقود. في الواقع، ليس مفقوداً تماماً، لأن باستطاعته رؤية قطع منه ملتصقة بالجدار والمكتبة والوسائد.

ليس هناك شك كبير فيما يتعلق بمن ضغط على الزناد، لأن البندقية ما تزال مسترخية على حجرها، تحيط بها أصابعها المنتفخة. يحاول غاري بسرعة تقييم ما حدث. بعد إقحام البندقية في فمها، تضغط على الزناد فتخرج الرصاصة بشكل مائل على نحو طفيف إلى الجهة اليسرى، حيث يوجد الضرر الأكبر، وهو أمر منطقي لأن البندقية موجودة في يدها اليمنى.

رغم أن غاري ليس سوى رقيب ولا علاقة له بعلم الأدلة الجنائية، إلا أنه يشاهد الكثير من حلقات مسلسل *ISC* .

من المرجَّح أن يكون التحلُّل حدث بسرعة لأن الجو حار داخل المنزل الصغير، بل خانق في الواقع. تبلغ درجة الحرارة في الخارج

درجة مئوية، والنوافذ مغلقة، لذا، لابد أن درجة الحرارة تزيد عن 42 درجة مئوية داخل المنزل، رغم أن الستائر مسدلة. باستطاعته منذ الآن الشعور بالعرَق ينساب على ظهره ويرطّب إبطيه. تمسح شيريل، التي لا تفقد هدوءها أبداً، جبينها ويبدو عليها عدم الارتياح.

تقول بنبرة منهكةً ليس معتاداً عليها: «اللعنة. يا لها من فوضى».

تهز برأسها وهي تحدِّق في الجثة المتراخية على الأريكة، ثم تجوب بعينيها أرجاء الغرفة مزمومة الشفتين، متجهّمة الوجه. يعلم غاري بما تفكر فيه. منزل جميل. سيارة جميلة. ثياب جميلة. لكنك، مع ذلك، لا تعلم شيئاً حقاً. لا تعلم ماذا يجري في الداخل.

إضافة إلى الأريكة الجلدية، لا يوجد من قطع الأثاث الأخرى سوى مكتبة مصنوعة من خشب البلوط الثقيل وطاولة قهوة صغيرة وتلفاز. ينظر إليه مجدداً، متسائلاً بشأن الكسر في الشاشة وسبب اهتمام الذباب الشديد به. يخطو بضع خطوات نحوها، ساحقاً شظايا الزجاجة تحت قدميه، ثم ينحني.

عن قرب، يكتشف السبب. الزجاج المكسور مغطى بدم متخثِّر قاتم. والمزيد منه انساب على الشاشة ونزل إلى الأرض، حيث يدرك أنه تجنَّب بالكاد الوقوف في بركة لزجة انتشرت حول الألواح الخشبية الأرضية.

تقترب شيريل وتقف بجانبه. «ما هذا؟ دم؟»

يفكِّر في الدرّاجة الهوائية، والجزمة المطاطية، والصمت.

يقول: «نحن بحاجة للتحقق من بقية المنزل». فتنظر إليه بعينين قلقتين وتهز برأسها مؤيِّدةً.

السلّم شديد الميلان، ويصدر صريراً عند الصعود عليه، وملطَّخ بمزيد من آثار الدماء القاتمة. وفي نهايته ممر ضيِّق يُفضي إلى غرفتي نوم وحمام صغير. تبدو الحرارة أشد حدّةً على الممر العلوي، والرائحة أكثر إثارة للاشمئزاز. يومئ غاري لشيريل بأن تذهب وتلقي نظرة على الحمام. يظن لوهلة بأنها ستجادل، فالرائحة آتية بوضوح من إحدى الغرفتين، لكنها

تدعه، هذه المرة، يلعب دور الشرطي المسؤول وتمشي بحذر نحو الحمام.

يقف قبالة غرفة النوم الأولى، شاعراً بطعم شديد المرورة في فمه، ثم يفتح الباب ببطء.

إنها غرفة نوم امرأة. نظيفة ومرتبة وفارغة. توجد خزانة ثياب في إحدى الزوايا، وخزانة أدراج بجانب النافذة، وسرير كبير مغطّى بلحاف نظيف بلون الكريم. وعلى طاولة السرير الجانبية مصباح وصورة منفردة ذات إطار خشبي بسيط. يمشي نحوها ويرفعها. صبي في سن العاشرة أو الحادية عشرة، صغير ونحيل ذو شعر أشقر فوضوي وابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه. بشكل غريزي يجد غاري نفسه يصلي راجياً: يا إلهي، أرجوك، يا إلهي، لا.

بقلب أشد ثقلاً يعود أدراجه نحو الممر ليجد شيريل شاحبة الوجه ومتوترة.

تقول له: «الحمام فارغ». يعرف غاري أنها تفكر في الأمر نفسه. بقيتْ غرفةٌ واحدة. بابٌ واحدٌ يُفتَح وتُكشَف الجائزة الكبرى. يلوِّح يده بغضب طارداً ذبابة. كان سيأخذ نَفَساً عميقاً لو لم تكن الرائحة تخنقه مسبقاً. لكنه بدلاً من ذلك يمدُّ يده إلى مقبض الباب ويدفعه.

رغم أن شيريل أصلب من أن تُصاب بالغثيان، لكنه يسمعها تصدر صوت تجشؤ إقياء. وهو نفسه يشعر بتقلُّب شديد في معدته لكنه ينجح في كبت الغثيان.

عندما اعتقدَ بأن ما سيشهده سيكون بشعاً، كان مخطئاً. إنه، في الحقيقة، كابوس لعين.

الصبي مستلقٍ على سريره، مرتدياً تيشيرت كبير الحجم، وسروالاً قصيراً فضفاضاً، وجورباً رياضياً أبيض انغرز مطاطه في لحم ساقيه المنتفخين.

يلاحظ غاري أن جوربه ناصع البياض. بياض جورب جديد. مثل إعلان أحد المنظفات. أو لعله يبدو كذلك لأن كل ما عداه مصبوغ باللون

أحمر. أحمر قاتم يلطِّخ التيشيرت الكبير وكل الوسائد والشراشف. وحيث يجب أن يكون وجه الصبي، لا يرى غاري إلا كتلة كبيرة طرية حمراء – الملامح غير قابلة للتمييز– ملأى بحشرات سوداء منهمكة –ذباب وخنافس، تدخل وتخرج من اللحم المهشَّم.

يعود ذهنه إلى شاشة التلفاز المكسورة وبركة الدماء على الأرض، وفجأة يرى المشهد أمامه. وجه الصبي يُضرَب بالتلفاز مرة تلو مرة، ثم يُدَقُّ على الأرض إلى أن يصبح غير قابل للتمييز، إلى أن يصبح بلا وجه.

بينما يرفع رأسه لينظر إلى اللون الأحمر الآخر –اللون الأحمر الأشد وضوحاً، اللون الأحمر الذي لا يمكن إلا أن تلاحظه– يقول في داخله: لربما هذا هو بيت القصيد. أحرف كبيرة مكتوبة على الجدار فوق جثة الصبي:

إنه ليس ابني

1

لا تعدْ أبداً. هذا ما يقوله لك الناس دوماً. لن تكون الأمور كما كانت. ولن يكونوا أبداً كما تتذكرهم. اترك الماضي في الماضي. بالطبع، العبارة الأخيرة أسهل قولاً منها فعلاً، فللماضي عادة سيئة تتمثّل في تكرار نفسه عليك.

لا أريد العودة. حقاً. هنالك عدة أشياء تحتل مراتب أعلى على لائحة أمنياتي، مثل أن أُأكَل حياً بواسطة جرذان، أو رقصة الصف. إلى هذا الحد أكره رؤية حفرة البراز التي نشأت فيها ثانيةً. ولكن، في بعض الأحيان لا يكون أمامك خيار إلا الخيار الخاطئ.

لهذا السبب أجد نفسي أقود سيارتي على طريق رئيسي متعرّج عبر ريف نوتنغهامشير الشمالي، في الساعة السابعة صباحاً. لم أرَ هذا الطريق منذ وقت طويل. وعند التفكير في الأمر، لم أرَ الساعة السابعة صباحاً منذ وقت طويل.

الطريق هادئ. تتجاوزني بضع سيارات فقط، إحداها تفعل ذلك وهي تطلق بوقها (لا شك أن السائق يشير بذلك إلى أنني أعيق تقدمه السريع، على طريقة لويس هاملتون، نحو العمل المزري الذي لابد أنه سيصل إليه في وقت أبكر ببضع دقائق فقط). لكي لا أظلمه، يجب أن أعترف بأنني أقود ببطء. الرأس قريب من الزجاج الأمامي، واليدان ممسكتان بالمقود بقوة، ومفاصل الأصابع مدبَّبة وبيضاء.

لا أحب القيادة. أحاول ألا أقود كلما كان ذلك ممكناً. بدلاً من ذلك أمشي أو أستقل الباصات، أو القطارات للرحلات الطويلة. لسوء الحظ، آرنهيل غير موجودة على أي طريق من طرق الباصات الرئيسية، وأقرب محطة قطار تبعد اثني عشر ميلاً. ولهذا السبب، كانت القيادة الخيار الحقيقي الوحيد. مرة أخرى، لا تجد أمامك أي خيار في بعض الأوقات.

أعطي إشارة وأخرج من الطريق الرئيسي نحو طرق ريفية أَضْيَق وأشد خطورة. مروج بنية قذرة ممتدة على كلا جانبي الطريق، وخنازير

تتنشّق الهواء من أكواخ صفيحية صدئة، وفيما بينها مجموعات متداعية من أشجار القضبان الفضي. إنها غابة شيرووود؛ أو ما بقي منها. الأماكن الوحيدة التي يمكن أن تجد فيها روبن هود وجون الصغير في هذه الأيام هي اللافتات ذات الطلاء الرديء فوق حانات رخيصة رثّة. والرجال في داخلها يكونون في العادة أكثر من مرحين، والشيء الوحيد الذي سيسلبونه منك هو أسنانك، إن نظرت إليهم بطريقة خاطئة.

ليس الحال كئيباً بالضرورة في الشمال. ونوتنغهام ليست متوغلة جداً في الشمال -إلا إذا لم تغادر أبداً الإحاطة الجهنمية للطريق 25M- لكنها لسبب ما باهتة وفاقدة للحيوية التي تتوقعها من الريف. كأن المناجم التي كانت منتشرة بكثرة هنا ذات يوم فرَّغت المكان من الحياة من داخله.

أخيراً، بعد وقت طويل على رؤية أي شيء يشبه الحضارة، أو حتى مطعم ماكدونالد، أعبر بجانب لافتة مائلة وباهتة بفعل التعرُّض المديد لعوامل الطقس على الجهة اليسرى من الطريق. آرنهيل ترحِّب بكم.

وتحتها أضاف أزعر صغير فصيح: ...[1].

آرنهيل ليست قرية ودودة. إنها سريعة الغضب، وحادة الطباع، وتثير الانقباض في النفس. وهي انطوائية أيضاً وتنظر إلى الغرباء بعين الريبة. إنها صبورة وعنيدة وسَئِمة في الوقت عينه. آرنهيل من ذلك النوع من القرى التي تحملق فيك بغضب عند وصولك وتبصق على الأرض اشمئزازاً عند مغادرتك.

باستثناء بضع منازل ريفية وبعض البيوت الحجرية القديمة على أطرافها، لا تجذب آرنهيل النظر بقِدَمِها ولا بشاعريتها الطبيعية. رغم أن منجم الفحم مغلق منذ نحو ثلاثين عاماً، إلا أن إرثه يتخلل المكان كما تتخلل الفلزاتُ المعدنيةُ الخامُ الأرضَ. لا توجد أسقف من القش أو سلال معلَّقة. والأشياء الوحيدة المعلّقة خارج المنازل هي حبال الغسيل وراية القديس جورج في عيده.

صفوف من المنازل المتماثلة المتلاصقة المبنية من الطابوق الملوث بالشحَّار تمتد بمحاذاة أحد الطرق الرئيسية، إضافة إلى الحانة

الرئة الوحيدة في 3القرية؛ «رنينغ فوكس» -(الثعلب الهارب). كان يوجد اثنتان أخريان في الماضي -«آرنهيل آرمز» و«بُلْ»- لكنهما أُغلقتا منذ وقت طويل. في تلك الأيام (أيامي)، كان مالك حانة فوكس (جيبسي) يغضُّ الطرف عن بعض منا نحن الأولاد الكبار عندما كنا نشرب فيها. ما زلت أذكر أنني تقيّأت ثلاثة أكواب كبيرة من مشروب «عضة الأفعى» - إلى جانب ما أحسستُ أنه معظم أحشائي- في المراحيض القذرة، وعندما خرجت وجدته واقفاً وبيده ممسحة ودلو.

والأمر نفسه ينطبق على مطعم الوجبات الجاهزة الملاصق للحانة، «التنين الجوّال»، إذ لم يطرأ عليه أي تطوُّر أو طلاء جديد، أو حتى -أنا مستعد للمراهنة على ذلك- قائمة وجبات جديدة. ثمة ثغرة صغيرة واحدة في ذاكرتي الإجمالية؛ المحل الصغير عند الزاوية الذي كنا نشتري منه أكياس علكة «بيني تشوز»، وأطباقاً طائرة، وسكاكر «وام». لقد حلَّ محلُّه سوبرماكت سينزبوري لوكال -حتى آرنهيل غير محصّنة ضد زحف التطوُّر.

باستثناء هذا، تتأكَّد أشد مخاوفي. لم يتغير أي شيء. المكان، لسوء الحظ، كما أذكره بالضبط.

أتقدَّم بسيارتي على الشارع، وأعبر ساحة لعب الأطفال الوسخة ومرجاً صغيراً. ينتصب تمثالٌ لعامل منجم في الوسط تخليداً لذكرى عمال المنجم الذين قُتلوا في كارثة منجم فحم آرنهيل في 1949.

بعد تجاوز الأماكن البارزة في القرية، أرى بوابة المدرسة القابعة فوق تلة صغيرة. «آرنهيل أكاديمي»، كما تُسمَّى الآن. لقد أُكسيت المباني حلّة جديدة، وهُدم المبنى الإنكليزي القديم، حيث سقط فتى من قمته ذات يوم، وبُني مكانه منطقة جلوس جديدة. يمكنك تزيين قطعة براز بأضواء متلألئة، لكنها ستبقى قطعة براز.

أدخل إلى مِرأب طاقم التدريس عند مؤخرة المبنى وأترجَّل من سيارتي الغولف العتيقة البالية. هناك سيارتان أخريان في أماكن الركن – كورسا حمراء وساب قديمة. نادراً ما تكون المدارس فارغة خلال عطل

الصيف فالمعلِّمون بحاجة لكتابة خططهم التدريسية، وتنظيم عروضهم التعليمية، وفي بعض الأحيان حضور بعض المقابلات.

أقفل سيارتي وأتجه صوب قاعة الاستقبال، محاولاً ألا أعرج. ساقي تؤلمني اليوم؛ جزئياً بسبب القيادة، وأيضاً بسبب التوتر الناجم عن وجودي هنا. بعض الأشخاص يُصابون بالشقيقة، أما أنا فأُصاب بمكافئها في ساقي العليلة. ينبغي لي استعمال عصاي حقاً، لكنني أكرهها. تجعلني أشعر بأنني معاق. ينظر الناس إلي بإشفاق، وأنا أكره أن أكون موضع شفقة. الشفقة يجب أن تُعطَى لمن يستحقها.

أصعد درجات السلّم، بشيء من الألم، نحو الأبواب الرئيسية. توجد لوحة لامعة كُتب عليها: «جيد، أفضل، الأفضل. لا تفقد همَّتك إلى أن يصبح جيدك أفضل، وأفضلك الأفضل».

عبارة ملهمة. لكنني أجد نفسي مرغماً على التفكير في عبارة هومر سيمبسون البديلة: «أيها الأولاد، لقد بذلتم أقصى استطاعتكم ومُنيتم بفشل ذريع. العبرة هي: لا تحاولوا أبداً».

أضغط على زر الإنتركوم بجانب الباب. أسمع خشخشة فأنحني إلى الأمام وأقول: «أنا هنا لرؤية السيد برايس».

خشخشة أخرى ثم تشويش حاد، وبعد ذلك يُفتَح الباب مع صوت أزيز قوي. أفرك أذني وأدفع الباب وأدخل.

أول شيء يهاجمني هي الرائحة. لكل مدرسة رائحتها المميزة. في الأكاديميات العصرية، تبرز رائحة المواد المطهِّرة ومنظفات الزجاج. وفي المدارس المأجورة، رائحة الطبشور، والأرضيات الخشبية، والمال. أما آرنهيل أكاديمي فتفوح منها رائحة بيرغر فاسدة، ومراحيض مسدودة، وهرمونات.

«مرحباً؟»

تنظر امرأة صارمة الملامح ذات شعر أشيب قصير ونظارات من وراء الواجهة الزجاجة لقاعة الاستقبال.

الآنسة غريسون؟ بالتأكيد لا. من المؤكد أنها متقاعدة الآن؟ يا إلهي، إنها هي. نفس الشامة البنية الناتئة على ذقتها، وما تزال تُنبتُ الشعر الأسود الخشن نفسه. إنها حقاً هي. هذا يعني أن عمرها كان –ماذا؟ أربعون؟– مثل عمري الآن، في حين أنني، كنت أعتقد، طوال تلك السنين، أنها قديمة مثل الديناصورات اللعينة.

أقول مجدداً: «أنا هنا لرؤية السيد برايس. أنا جو... السيد ثورن».

أنتظر ومضة تمييز. لا شيء. ولكن، هذا طبيعي، فقد مضى زمن طويل وهي رأت الكثير من التلاميذ يمرُّون عبر هذه الأبواب. ولستُ نفس الفتى الصغير النحيل الذي كان يرتدي زياً مدرسياً واسعاً جداً ويهرع عبر قاعة الاستقبال راجياً ألا يسمع صراخها وهي تنادي باسمه وتوبخه بسبب قميص غير مطوي داخل البنطال أو حذاء رياضي غير متوافق مع قوانين المدرسة.

لم تكن الآنسة غريسون سيئة تماماً، في الحقيقة. غالباً ما كنت أرى بعض الصبية الضعفاء والخجولين في مكتبها الصغير. كانت تضع اللاصقات الطبية على ركبهم المجروحة عندما تكون ممرضة المدرسة غير موجودة، وتدعهم يجلسون ويشربون عصير الفواكه أثناء انتظارهم من أجل مقابلة معلِّم ما أو المساعدة في ترتيب الملفات –أي شيء يريحهم من عذابات حديقة الألعاب. مكان لجوء صغير.

لكنها، مع ذلك، كانت تثير الفزع في قلبي.

وأدرك الآن أنها ما تزال تخيفني. تتنهَّد –كأنها تريد أن تقول إنني أضيِّع وقتها، ووقتي، ووقت المدرسة– وتمدُّ يدها نحو الهاتف. أتساءل لماذا هي موجودة هنا اليوم فهي ليست من الكادر التدريسي. لكنني مع ذلك لست متفاجئاً، فعندما كنت طفلاً، لم يكن بوسعي تصوُّر أن الآنسة غريسون خارج المدرسة. كانت جزءاً من البنية. دائمة الوجود.

تقول بصوت عالٍ: «سيد برايس؟ عندي السيد ثورن هنا لمقابلتك. حسناً. تمام. جيد». تعيد السمّاعة إلى حاملها. «إنه آت».

«عظيم. شكراً».

تعود إلى حاسوبها غير مبالية بي. لم تعرض عليّ شاياً أو قهوة. والآن كل خلية من خلاياي العصبية تصرخ طالبةً جرعة من الكافيين. أجلس على كرسي بلاستيكي، محاولاً ألا أبدو مثل تلميذ مشاكس ينتظر رؤية المدير. ركبتي تؤلمني. أضع كلتا يديّ فوقها وأمسِّد المفصل خفيةً بأصابعي.

عبر النافذة يمكنني رؤية بضعة أولاد يمرحون بجوار البوابة. إنهم يشربون رِدْ بول ويضحكون على شيء ما في هواتفهم الذكية. أشعر كأنني رأيت هذا المشهد من قبل. أنا في الخامسة عشرة من عمري من جديد، أمرح بالقرب من نفس البوابة، وأشرب زجاجة باندا كولا و... فوق أي شيء كنا محدودبي الظهر ونضحك بسببه قبل اختراع الهواتف الذكية؟ أغلب الظن، كانت نسخاً من مجلات سماش هيتس ومجلات إباحية مسروقة.

أدير وجهي وأنظر إلى حذائي فأجد أن الجلد مكشوط قليلاً. كان ينبغي لي أن ألمّعه. أنا بحاجة حقاً للقهوة. أوشك على الاستسلام وطلب مشروب لعين فإذا بي أسمع احتكاك حذاء على الأرضية المصنوعة من اللينوليوم قبل أن يُفتح الباب المزدوج المفضي إلى الممر الرئيسي.

«جوزيف ثورن؟»

أقف. هاري برايس يشبه ما توقعته إلى حد كبير. إنه رجل نحيل ذو ملامح منهكة في منتصف أربعينياته يرتدي بذة لا شكل لها وحذاء جلدياً خفيفاً بلا رباط. شعره خفيف وأشيب، ومسرَّح إلى الخلف من وجه يبدو وكأنه يترقَّب دائماً خبراً فظيعاً.

يبتسم كاشفاً عن أسنان معوجَّة ومبقّعة بالنيكوتين، الأمر الذي يذكِّرني بأنني لم أدخِّن أي سيجارة منذ أن غادرت مانشستر. وهذا يجعلني، بالإضافة إلى التوق للكافيين، أرغب في طحن أسناني معاً إلى أن تتفتَّت.

بيد أنني أمدُّ يدي نحوه وأرسم على وجهي ما أرجو أنها ابتسامة لطيفة في المقابل، ثم أقول: «مسرور لمقابلتك».

أرى أنه يُجري تقييماً سريعاً لي. أطول منه، بنحو خمسة سنتمترات. حليق الذقن. بذة جيدة –غالية الثمن عندما كانت جديدة. شعر داكن، مع أن الشيب بدأ يغزوه بكثرة في هذه الأيام. وعينان سوداوان يتخللهما الكثير من العروق الدموية. يقول لي الناس إنني أملك وجهاً صادقاً، الأمر الذي يثبت قلة ما يعرفه الناس.

يتلقّف يدي ويهزها بقوة ثم يقول: «مكتبي في هذا الاتجاه».

أعدِّل وضعية حقيبتي على كتفيَّ وأحاول التركيز على ساقي المعطوبة كي أمشي بشكل صحيح وأتبع هاري إلى مكتبه. حان وقت العرض.

«إذن، رسالة التوصية من رئيسك السابق مُبْهرة».

لابد أن تكون كذلك، فأنا من كتبها.

«شكراً».

«في الواقع، كل شيء هنا يبدو رائعاً».

الكذب أحد اختصاصاتي.

ولكن...»

ها نحن ذا.

«ثمة فجوة طويلة جداً منذ وظيفتك الأخيرة؛ أكثر من اثني عشر شهراً».

أمدُّ يدي نحو القهوة الخفيفة الممزوجة مع الحليب التي وضعتها أخيراً الآنسة غريسون، وبشيء من الحدة، على المنضدة أمامي. أحاول ألا أُبدي أي تعبير عن الاشمئزاز.

«أجل، في الواقع، كان ذلك مقصوداً. قررت أخذ فترة من الراحة. كان قد مضى على وجودي في مجال التعليم خمسة عشر عاماً. كان

الوقت قد حان لأن أعيد شحن نفسي. أفكر في مستقبلي. أقرر أين أريد أن أذهب تالياً».

«وهل تمانع إذا سألتك عما فعلته في إجازتك؟ سيرتك الذاتية غير واضحة بعض الشيء».

«بعض التعليم الخاص. عمل مجتمعي. علَّمتُ في الخارجِ لبعض الوقت».

حقاً؟ أين؟»

«بوتسوانا».

بوتسوانا؟ من أين أتت بحق الجحيم؟ لا أعتقد أنني قادر على الإشارة إليها على أي خارطة لعينة.

«هذا أمر جدير بالثناء حقاً».

ومُبتكَر.

«لم يكن ذلك عملاً إيثارياً تماماً. كان الطقس أفضل».

ضحكنا كلانا.

والآن تريد العودة للتعليم بدوام كامل؟»

«أنا مستعد للمرحلة التالية من مهنتي، أجل».

«إذن، سؤالي التالي هو –لماذا تريد العمل هنا في آرنهيل أكاديمي؟ استناداً إلى سيرتك الذاتية، أظن بأنك تستطيع اختيار المدرسة التي تريد من عدة مدارس؟»

استناداً إلى سيرتي الذاتية، يجب أن أحصل على جائزة نوبل للسلام.

أقول له: «في الحقيقة، أنا فتى محلي. لقد نشأتُ في آرنهيل. أعتقد أنني أود إعطاء شيء بالمقابل للمجتمع».

يبدو عليه عدم الارتياح وهو يقلِّب الأوراق على منضدته: «هل لديك علم بالظروف التي أصبحتْ فيها هذه الوظيفة متاحة؟»

«أقرأ الأخبار».

«وما هو شعورك حيال الأمر؟»

«أمر مأساوي. فظيع. لكن مأساةً واحدة لا ينبغي أن تعرِّف مدرسة بأكملها».

«أنا مسرور لسماعك تقول ذلك».

أنا مسرور لأنني تدرَّبت على ذلك.

أضيف قائلاً: «مع أنني أتفهَّم تماماً أنكم حتماً ما تزالون غاضبين جداً».

«كانت السيدة مورتون معلِّمة محبوبة».

«أنا واثق من ذلك».

«وبِنْ، في الواقع، كان تلميذاً واعداً جداً».

أشعر بغصة صغيرة في حنجرتي. لقد أصبحتُ جيداً في السيطرة على نفسي. لكن العبارة أثارت مشاعري لوهلة. حياةٌ مليئةٌ بالوعود. ولكن، هذه هي الحياة؛ وعد. ليست ضماناً. نحب الاعتقاد بأننا نملك مكاناً مجهَّزاً لنا في المستقبل، لكننا في الحقيقة لا نملك سوى حجْز. من الممكن أن تُلغَى الحياة في أية لحظة، وبدون سابق إنذار، وبدون إعادة المدفوعات، أياً تكن المسافة التي قطعتَها في الرحلة، قصيرة كانت أم طويلة.

مثل بن. ومثل شقيقتي.

أدرك أن هاري ما يزال يتحدث.

«من الواضح أنه وضع حساس. هنالك أسئلة تُطرَح. كيف لم تلاحظ المدرسة أن أحد مدرِّسيها مضطرب عقلياً؟ هل كان التلاميذ في خطر؟»

«أفهم ذلك».

أفهم أن هاري أشد قلقاً بشأن موقعه ومدرسته من بنجامين مورتون المقتول المسكين، الذي هُشِّم وجهه على يد الشخص الوحيد في الحياة الذي كان ينبغي أن يكون هناك لحمايته.

«ما أريد قوله هو أنني مضطر لأن أكون حذراً بشأن من أختاره لملء الوظيفة الشاغرة. الآباء بحاجة لأن يكونوا واثقين».

«بالتأكيد. وأنا أفهم تماماً إن كان لديكم مرشح أفضل–»

«أنا لا أقصد هذا».

بالتأكيد لا. أنا واثق تماماً من ذلك. علاوة على ذلك، أنا معلِّم جيد (تقريباً). في الواقع، آرنهيل أكاديمي مدرسة مزرية، وذات أداء ضعيف وسمعة سيئة. هو يعرف ذلك، وأنا أعرف ذلك. إن الحصول على معلِّم جيد للعمل هنا سيكون أصعب من إيجاد دب لا يتبرَّز في الغابة، وخصوصاً في ظل «الظروف» الحالية.

أقرر الضغط في هذه النقطة: «آمل أنك لا تمانع أن أكون صادقاً؟»

من المفيد دائماً قول ذلك عندما لا تنوي أن تكون صادقاً.

«أعلم أن آرنهيل أكاديمي تعاني من مشكلات، ولهذا السبب أريد العمل هنا. أنا لا أبحث عن رحلة سهلة. بل أبحث عن تحدّ. أعرف أولئك الأولاد لأنني كنت واحداً منهم ذات يوم. وأعرف المجتمع. أعلم بالضبط مع من، وماذا، أتعامل. وهذا لا يزعجني. في الحقيقة، أعتقد أنك ستجد قلة من الأشخاص الذين يقبلون بذلك».

أرى بوضوح أنني أقنعته. أعرف ما يريد الناس سماعه. والأهم من ذلك، أعرف متى يكونون يائسين.

يسند هاري ظهره على ظهر كرسيه ويقول: «حسناً، لا أعتقد أن هناك شيء آخر أحتاج للسؤال بشأنه».

«جيد، حسناً، كان لقاءً ممتعاً–»

«أوه، في الواقع، هناك شيء واحد فقط».

أوه، حُبَّاً بالـ–

يبتسم ويقول: «متى يمكنك البدء؟»

2

بعد ثلاثة أسابيع

الجو بارد في المنزل. تلك البرودة التي تميِّز المنازل التي تبقى مغلقة وغير مسكونة لبعض الوقت. البرودة التي تتغلغل في عظامك وتبقى فيها حتى عندما ترفع درجة التدفئة إلى أقصاها.

وتفوح منه رائحة بشعة أيضاً. رائحة قلة استعمال وطلاء رخيص ورطوبة. لم تكن الصور المعروضة على الموقع الإلكتروني مطابقة للواقع. كانت تُظهر منزلاً أنيقاً في حالة رثة. منزلاً جذاباً ولكن مهمَلاً. بيد أنه أكثر خراباً وتهدُّماً في الواقع. هذا لا يعني أنني قادر على أن أكون انتقائياً. أنا بحاجة للعيش في مكان ما، وهذا المنزل هو الوحيد الذي يمكنني تحمُّل نفقاته، حتى في مزبلة مثل آرنهيل.

ولكن، ليس هذا هو السبب الوحيد لاختياره.

«هل كل شيء على ما يُرام؟»

ألتفتُ إلى الشاب لامع الشعر الذي يتحرك بتململ في مكان وقوفه في المدخل –مايك بيلينغ من وكالة بيلينغ آند كو لتأجير العقارات. من المؤكد أنه ليس محلياً، من أناقة ثيابه وحُسْن حديثه. بوسعي الشعور بأنه متلهِّف للعودة إلى مكتبه الكائن في مركز المدينة ومسح براز البقر عن حذائه الجلدي الأسود اللامع.

«ليس كما توقعته تماماً».

تذبل ابتسامته. «في الواقع، كما ذكرنا في وصف العقار، إنه منزل تقليدي، ليس من المنازل العصرية تماماً، وظل فارغاً لبعض الوقت–»

أقول بنبرة مشكِّكة: «أعتقد ذلك. قلتَ إن السخان المركزي موجود في المطبخ؟ أعتقد أنني بحاجة لتدفئة المكان. أرجو أن تدلَّني إليه».

يواصل تململه في مكانه: «هناك شيء واحد فقط سيد ثورن».

«نعم؟»

«شيك الدفعة الأولى؟»

«ماذا بشأنه؟»

«أنا متأكد بأنه مجرد خطأ، ولكن... لم نتلقها بعد».

«حقاً؟» أهزُّ رأسي. «البريد يزداد سوءاً، أليس كذلك؟»

«حسناً، ليست هناك أية مشكلة. لو بوسعك فقط–»

«بالتأكيد».

أمدُّ يدي إلى جيب سترتي وأُخرج دفتر شيكاتي. يعطيني مايك بيلينغ قلماً. أسند الدفتر على ذراع الأريكة البالية وأكتب شيكاً ثم أمزِّقه وأعطيه له.

يبتسم، ثم ينظر إلى الشيك فتتبدَّد ابتسامته. «هذا بخمسمائة جنيه. الدفعة الأولى، إضافة إلى إيجار الشهر الأول، يساوي ألفاً».

«هذا صحيح. لكنني رأيت المنزل على أرض الواقع الآن» -أنظرُ حولي وأرسم على وجهي علائم عدم الرضا- «بصراحة تامة، إنه مكبُّ نفايات. بارد ورطب وكريه الرائحة. ستكونون محظوظين إذا حصلتم على أي مستأجر. حتى إنكم لم تكبّدوا أنفسكم عناء المجيء إلى هنا وتشغيل التدفئة قبل وصولي».

«أخشى أن هذا ليس مقبولاً».

«إذن احصلْ على مستأجر آخر».

أراه يتردد، وأنا لا أُبدي أي ضعف.

«أو لعلكم لن تستطيعوا؟ ربما لن يرغب أحد في استئجار هذا المكان بسبب ما حدث هنا؟ كما تعلم، تلك الجريمة/الانتحار التي أغفلتم ذكرها».

يتوتَّر وجهه كأن شخصاً نخسه للتو بمنخس حطب ساخن في ظهره. يبلع ريقه ثم يقول: «لسنا ملزمين قانونياً بإبلاغ المستأجرين-»

«لا، ولكن أخلاقياً، قد يكون هذا لطيفاً؟» –أبتسم بودّ– «ومع وضع هذه الاعتبارات في الحسبان، أعتقد أن أقل ما يمكنكم فعله هو تقديم حسم جيد على الدفعة الأولى».

يطبق فكّيه، وتظهر ارتعاشة دقيقة بجانب عينه اليمنى. إنه يود أن يردّ عليّ بفظاظة، أو حتى أن يضربني، لكنه لا يستطيع فعل ذلك، لأنه سيفقد عشرين ألف جنيه في العام إضافة إلى العمولة. وكيف سيدفع ثمن كل هذه البذات الجميلة والأحذية السوداء اللامعة؟

يطوي الشيك ويضعه في حافظة الأوراق.

لا أستغرق وقتاً طويلاً في إخراج أغراضي. لستُ من أولئك الأشخاص الذين يجمعون الأشياء بغرض جمعها فقط. لا أفهم المنمنمات التزيينية. والصور جيدة إن كان لديك عائلة وأولاد لكنني لا أملك أياً منهما. والثياب أرتديها إلى أن تبلى، ثم أستبدلها بنسخ مطابقة لها.

هنالك، بالطبع، استثناءات لهذه القاعدة. شيئان تركتهما إلى النهاية كي أُخرجهما من حقيبتي الصغيرة. أحدهما علبة ورق لعب مهترئ.

أضعها في جيبي. يحمل بعض لاعبي الورق تعويذات جالبة للحظ. لم أكن أؤمن بالحظ، إلى أن بدأتُ أخسر. عندئذ ألقيت اللوم على حظي، وعلى الحذاء الذي كنت أرتديه، وترتيب النجوم اللعينة. كل شيء إلا نفسي. ورق اللعب هو تعويذتي العكسية –مذكِّرٌ دائمٌ بدرجة إخفاقي.

والشيء الثاني أكبر حجماً، وملفوف بجريدة. أرفعها من الحقيبة وأضعها برفق على السرير كما لو كانت رضيعة حقيقية، ثم أنزع الجريدة عنها.

ساقان سمينتان مرفوعتان إلى الأعلى، ويدان صغيرتان مطبقتان عند جانبيها، وشعر أشقر لامع وملفوف، وعينان زرقاوان تحدِّقان فيَّ. أو على الأقل، واحدة منهما، لأن الأخرى تتحرك في محجرها، وهي تحدِّق الآن بشكل مائل كأنها لمحت شيئاً أكثر إثارة للاهتمام ولم تكبِّد نفسها عناء إخبار رفيقتها.

أرفع دمية آني وأُجلسها فوق خزانة الأدراج، حيث يمكنها النظر إلي بنظرتها غير المتوازية كل يوم وكل ليلة.

أُمضي بقية بعد الظهر والمساء محاولاً تدفئة نفسي. ساقي تضايقني إن جلستُ لمدة طويلة. والبرد والرطوبة في المنزل لا يساعدان في هذا الأمر. يبدو أن السخّانات لا تعمل بشكل جيد –لربما يوجد تسريب في مكان ما في النظام.

توجد مدفئة حطب في غرفة الجلوس لكنني لا أستطيع إيجاد أي حطب أو مواد إشعال رغم البحث الواسع الذي أقوم به في المنزل والكوخ الصغير في الخارج. بيد أنني أجد مدفئة كهربائية قديمة في إحدى الخزائن. أشغلها فتبدأ القضبان بإحراق طبقة سميكة من الغبار ويمتلئ الهواء برائحة الاحتراق.

رغم حالة المنزل الرثة، إلا أنني أستطيع التخمين بأنه كان منزلاً عائلياً مريحاً ذات يوم. الحمّام والمطبخ باليان لكنهما نظيفان. الحديقة في المؤخرة طويلة تناسب لعب كرة القدم، ومحاطة بأراضي الريف المفتوحة. مكان مريح وجميل وآمن ليكبر فيه طفل صغير. غير أن القدر لم يتح له ذلك.

إنني لا أؤمن بالأشباح. كانت جدتي تحب أن تقول لي، «ليس الأموات من يجب أن تخاف منهم؛ أبداً. بل الأحياء». كانت محقة إلى حد كبير. لكنني أؤمن حقاً بأن بوسعك الشعور بأصداء الأشياء السيئة. إنها تترك أثراً على نسيج واقعنا، مثل بصمة قدم في الإسمنت. حتى لو أن الشيء الذي ترك البصمة اندثر منذ مدة طويلة، فإنك لا تقدر على محو العلامة التي خلّفها.

لهذا السبب، ربما، لم أدخل غرفته بعد. لا أشعر بالسوء حيال العيش في المنزل، لكن المنزل لا يجعلني بالضرورة أشعر بالارتياح. هذا طبيعي، فقد حدث شيء مريع ضمن جدرانه، والأبنية تتذكّر.

لم أخرج لشراء الطعام، لكنني لست جائعاً. حالما تتجاوز الساعةُ السابعةَ مساء، أفتح زجاجة شراب وأصبُّ كأساً يعادل أربعة أقداح. لا أستطيع استخدام لابتوبي لأنني لم أجهِّز اتصال إنترنت بعد. في الوقت الحالي، ليس لدي الكثير لأفعله سوى الجلوس والتأقلم مع بيئتي الجديدة، محاولاً تجاهل الألم في ساقي والوخز الخفيف المألوف في

معدتي. أُخرج علبة الأوراق وأضعها على طاولة القهوة، لكنني لا أفتحها، فليس هذا هو الغرض منها. أستمع إلى بعض الموسيقا على هاتفي بينما أقرأ قصة مفعمة بالإثارة خمَّنتُ نهايتها مسبقاً. ثم أقف بجانب الباب الخلفي وأدخِّن سيجارة محدِّقاً في الحديقة المهمَلة منذ مدة طويلة.

السماء أشد ظلمة من حفرة منجم فحم في الجحيم. لا توجد نجمة واحدة تخرق السواد الحالك. لقد نسيتُ كيف يكون الظلام في الريف بعد العيش في المدينة لسنوات عديدة. لا يكون الليل شديد الظلمة إلى هذه الدرجة في المدينة، ولا هادئاً بهذه الطريقة. الأصوات الوحيدة التي أسمعها هي صوت تنفُّسي وطقطقة فيلتر السيجارة.

أتساءل، مجدداً، بشأن سبب عودتي. صحيح أن آرنهيل معزولة –نقطةٌ نصفُ منسيَّة على الخارطة– لكن العيش خارج البلد أأمن. آلاف الأميال تفصل بيني وبين ديوني والأشخاص لا يتقبَّلون الخسارة بشكل متوالٍ بلطف، وخصوصاً إن لم يكن بمقدورك الدفع.

كان بوسعي تغيير اسمي، وربما الحصول على عمل كنادل في أحد الملاهي على شاطئ ما. أرتشف الكوكتيلات عند الغروب. لكنني اخترت هنا. أو لعل هنا هو الذي اختارني.

لا أؤمن بالقدر حقاً. لكنني أؤمن بأن أشياءً معينةً مثبَّتةٌ في جيناتنا. نحن مُبرمَجون كي نتصرَّف ونتفاعل بطريقة معينة، وهذا الذي يحدد طبيعة حياتنا. ولسنا قادرين على تغييره، مثل لون عيوننا أو ميل بشرتنا للتنمُّش عند التعرُّض للشمس.

أو لعل هذا كله مجرد كلام سخيف وعذر مناسب لتجنُّب تحمُّل مسؤولية أفعالي الخاصة. في الحقيقة، كنت سأعود ذات يوم في كل الأحوال. والإيميل جعل القرار أسهل وحسب.

وصل إلى صندوق بريدي قبل نحو شهرين. كان مفاجئاً، حقاً، لدرجة أنني لم أحوّله مباشرة إلى البريد غير المرغوب.

moc.liamtoh@1992EM :redneS

einnA :tcejbuS

كدت أمحوه على الفور. لم أسمع بالمرسِل أبداً من قبل. لعله إيميل مقصود، شخص ما يلعب لعبة سمجة. هنالك بعض المواضيع يجب أن تبقى مغلقة. لا يمكن أن ينتج أي شيء مفيد عن فتحها. والشيء العاقل الوحيد الذي كان يجب فعله هو محو الرسالة وإفراغ صندوق النفايات ونسيان أنني رأيتها.

بعد أن قررت ذلك، ضغطت على زر فتح:

أعرف ما حدث لشقيقتك. إنه يحدث ثانيةً.

يجب ألا يكون لدى الآباء أولاد مفضَّلون. عبارة غبية أخرى يقولها الناس. بالتأكيد لدى الآباء مفضَّلون. إنها طبيعية بشرية يعود أصلها إلى الزمن الذي لم يكن يبقى فيه جميع الأطفال على قيد الحياة. كانوا يفضِّلون الولد الأقوى. لا فائدة من التعلُّق بالولد الذي قد لا ينجح في البقاء. ودعونا نواجه الحقيقة، هناك أطفال يسهل حبُّهم.

كانت آني المفضَّلة لدى والدينا. وكان ذلك مفهوماً فهي وُلدت عندما كنتُ في سن السابعة، بعد وقت طويل من انقضاء مرحلة السنوات الثلاث الأولى المحبَّبة من عمري. كنتُ قد أصبحت ولداً صغيراً جدّياً نحيلاً ذا ركبتيْن مجروحتيْن وسروال قصير قذر على الدوام. لم أعد أبدو لطيفاً كما كنت. ولم أكن أعوِّض عن ذلك بركل الكرة في الحديقة أو الرغبة بمشاهدة الغابة مع والدي، بل كنتُ أفضِّل البقاء في المنزل وقراءة مجلات مصوَّرة أو لعب ألعاب الكمبيوتر.

وكان هذا يُحبط أبي ويزعج أمي التي كانت تقول لي بوجه عابس: «اخرج واستنشق بعض الهواء النقي». حتى في سن السابعة كنتُ أشعر بأن الهواء النقي مبالَغ بقيمته، غير أنني كنت أمتثل للأمر مُكرَهاً وينتهي بي الأمر بأن أقع فوق، أو في، أو على شيء ما وأعود إلى المنزل قذراً فأُوبَّخ من جديد.

لا عجب أن والديَّ رغبا بطفل آخر؛ طفلة صغيرة لطيفة يلبسانها ثياباً زهرية مخرَّمة ويحضنانها دون أن تعبس وتتلوَّى محاولةً التملُّص.

لم أكن أدرك حينئذ أن والديَّ كانا يحاولان إنجاب طفل آخر. أخ أو أخت لي. نوع من هدية أو هبة خاصة كانا يخبئانها من أجلي. أما بالنسبة لي، فأنا لم أكن متأكداً من أنني كنت بحاجة إلى أخ أو أخت. كان لديهما أنا. طفلٌ آخرٌ، من وجهة نظري، بدا أمراً فائضاً عن الحاجة.

وبقيتُ غير مقتنع بعد ولادة آني. كتلة طرية منكمشة غريبة الشكل مع وجه يشبه وجه كائن فضائي. وكل ما كانت تفعله هو النوم أو

التبرُّز أو البكاء. وكان بكاؤها الحاد يُبقيني صاحياً في الليل، أحدِّق في السقف متمنِّياً لو أن والديَّ اشتريا لي كلباً أو حتى سمكة ذهبية.

استمرَّت حالة اللامبالاة عندي حيال شقيقتي الصغيرة بضعة أشهر، فلا كنت أحبها كثيراً ولا أكرهها كثيراً. عندما كانت تناغي لي أو تتشبَّث بإصبعي إلى أن أشعر بأن لونه بدأ يتحول إلى الأزرق، كنت أظل بلا حراك –حتى عندما كانت أمي تطرب فَرحاً وتصرخ لأبي قائلةً «اجلب الكاميرا اللعينة يا شون».

وعندما كانت تحبو خلفي أو تلمس أشيائي، كنت أسرع في المشي كي لا تلحق بي أو انتزع أشيائي منها. ليس لأنني كنت فظاً، بل لأنني كنت غير مكترث وحسب. أنا لم أطالب بها، ولذلك لم أكن أرى سبباً يدعوني لإعارتها أي اهتمام.

استمرت هذه الحالة إلى أن أصبحتْ في الشهر الثاني عشر. قبل عيد ميلادها الأول بدأت تمشي وتُصدر أصواتاً بدت كأنها كلمات. فجأةً بدأتْ تبدو مثل إنسانة صغيرة وليست مجرد طفلة. بدت أكثر إثارة

للاهتمام، بل مسلّية أيضاً بكلماتها الشبيهة بالكلمات الأجنبية وخطواتها المترنِّحة كخطوات رجل مسن.

بدأتُ ألعب معها وأتحدث إليها قليلاً. وعندما بدأتْ تقلِّدني، أحسستُ بشعور غريب يتنامى في صدري. وحين كانت تنظر إليّ وتقول «جو–وي، جو–وي»، كنت أشعر بدفء متوهّج في داخلي.

ثم بدأت تلحقني إلى كل مكان، وتقلِّد كل ما كنت أفعله، وتضحك لتعابيري الوجهية الهزلية، وتصغي بانتباه عندما كنت أخبرها بأشياء لا يمكن أن تفهمها. وعندما كانت تبكي، لمسةٌ واحدةٌ مني كانت كافية لكي توقف بكائها. كانت متلهِّفة لإرضاء شقيقها الكبير لدرجة أن كل أحزانها كانت تُنسَى على الفور.

لم يحبني أحد بهذا الشكل من قبل، حتى أمي وأبي. كانا يحبانني بالتأكيد، لكنهما لم يكونا ينظران إلي بذلك العشق الصريح كما كانت تفعل شقيقتي الصغيرة. ولا أحد غيرها. كنتُ معتاداً على أن يُنظَر إلي إما بعين الشفقة أو بعين الاحتقار. ذات يوم، قال أحد المعلِّمين في مدرستي

الابتدائية لوالديَّ إنني كنت «انعزالياً». أعتقد أنني وجدتُ الصبْيَة الصغار الآخرين بملاحقاتهم السخيفة، مثل تسلُّق الأشجار والعراك، مملِّين وأغبياء بعض الشيء. كما أنني كنتُ سعيداً تماماً بكوني لوحدي. إلى أن جاءت آني.

ادخَّرتُ لعيد ميلاد أختي الثالث مصروف جيبي واشتريت به دمية لها. لم تكن من تلك الدمى غالية الثمن التي يمكنك شراءها من محلات الدمى، تلك التي تُصدر ضجيجاً وتبلِّل نفسها، بل كانت ما يسمِّيه أبي «خردة» من السوق. في الحقيقة، كانت بشعة ومخيفة قليلاً بنظرة عينيها الزرقاوين الباردة وشفتيها المزمومتين. غير أن آني أحبّت تلك الدمية وكانت تأخذها معها أينما ذهبت وتحضنها كي تنام في كل ليلة. ولسبب ما سمَّتها آبي–آيز (ربما لم نسمع الاسم بشكل صحيح).

مع بلوغ آني سن الخامسة، كانت آبي–آيز [عينا آبي] قد أُحيلتْ إلى رفٍّ في غرفة آني ليحلَّ محلها في التفضيل دمية باربي وحصان الصغير. ومع ذلك، لما اقترحتْ أمي منحها إلى السوق الخيرية،

انتزعتها آني منها –مع صرخة رعب– وأمسكْتُها بقوة لدرجة أنني استغربتُ كيف لم تخرج عيناها البلاستيكيتان الزرقاوان من محجريهما.

بقينا أنا وآني مقرَّبيْن من بعضنا عندما كبرنا. كنا نقرأ معاً، ونلعب ورق اللعب أو ألعاب الكمبيوتر على جهازي المستعمَل سيجا ميغادرايف. وفي عصر أيام الأحد الماطرة، في أثناء وجود أبي في الحانة وانشغال أمي بكيِّ الغسيل وحيث يكون الهواء عابقاً بالدفء ورائحة مطرِّي القماش، كنا نتكوَّر فوق وسادة كبيرة ونشاهد أفلام فيديو قديمة معاً، مثل إي تي (*TE*)، صائدو الأشباح، سارقو التابوت الضائع –شاهدنا أحياناً بضعة أفلام أحدث لربما ما كان ينبغي أن تشاهدها آني، مثل المبيد 2 والتذكُّر الكلي.

كان لدى أبي صديق يُقَرْصن تلك الأفلام ويبيعها مقابل 50 جنيهاً. صحيح أن الصورة كانت ضبابية بعض الشيء ولم يكن بوسعك أحياناً فهم كلمات الممثلين، ولكن بحسب تعبير أبي المحبَّب، «الشحّاذون لا يمكنهم أن يكونوا انتقائيين».

كنت أعلم بأن أبي وأمي لم يكونا يملكان الكثير من المال. كان أبي يعمل في المنجم لكنه تركه بعد الإضراب، مع أنهم لم يغلقوا منجمنا مباشرة.

كان أبي من بين عمال المناجم الذين لم يشاركوا في الإضراب. صحيح أنه لم يتحدث في هذا الأمر أبداً، لكنني كنت أعرف أن الضغائن والتوتر والشجارات –بين العامل والعامل، وبين الجار والجار– كانت بالغة الحدة. كنت صغيراً جداً عندما حدث ذلك، لكنني أذكر كيف مسحت أمي كلمة «SCAB» –(الشخص الذي يرفض المشاركة في الإضراب)– عن بابنا الأمامي. وذات يوم، رمى شخص ما حجراً على نافذتنا بينما كنا نشاهد التلفاز. وفي الليلة التالية خرج أبي مع بعض أصدقائه، وحين عاد كانت شفته مجروحة وهيئته فوضوية، وقال لأمي بصوت قاس وكئيب لم أسمعه منه من قبل: «لقد تم الاهتمام بالأمر».

تغيَّر والدي كثيراً بعد الإضراب، فبعد أن كنت أراه رجلاً ضخماً قوياً، مع شعر داكن كثيف ومجعّد، بدا لي كما لو أن حجمه تقلَّص وقامته

نَحُلت وانحنت. وعندما كان يبتسم –الأمر الذي بات يقلُّ شيئاً فشيئاً– كانت الخطوط عند زاويتي عينيه تنغزز بعمق أكبر في جلده. كما بدأ الشيب يبرز في شعره عند الصدغيْن.

قرر ترك المنجم والعمل كسائق حافلة. لا أعتقد أنه أحبَّ عمله الجديد. كان أجره جيداً، ولكن ليس بقدر الأجر الذي كان يكسبه من العمل في المنجم. وازدادت جدالات أبي وأمي، غالباً حول كثرة إنفاقها أو حول عدم تقديره لمصاريف مأكل وملبس العائلة، وعندئذ كان يخرج من المنزل ويذهب إلى الحانة. كان يشرب في حانة واحدة في القرية؛ نفس الحانة التي كان يقصدها العمال الآخرون الذين لم يشاركوا في الإضراب –آرنهيل آرمز. أما العمّال الذين رفضوا العمل فكانوا يشربون في حانة «بُل». كانت حانة «رنينغ فوكس» المكان الوحيد الذي شكَّل أرضاً محايدة نوعاً ما، حيث لم يكن يقصدها أي من عمال المنجم. لكنني أعرف بعض اليافعين الذين كانوا يشربون فيها، لعلمهم بأنهم لن يصادفوا آباءهم أو أجدادهم فيها.

لم يكن والداي سيئيْن كأبويْن. كانا يحبانِنا قدر استطاعتهما. وإذا كانا يتجادلان ولا يمنحاننا الكثير من الوقت فليس لأنهما لا يكترثان، ولكن لأنهما كانا يعملان بجدٍّ، ولا يملكان الكثير من النقود، ومنهكيْن في أغلب الأوقات.

كان لدينا، بالطبع، تلفاز ومسجّلة كاسيت وكمبيوتر، لكننا مع ذلك –لا أريد أن أبدو مثل إعلان لشركة هوفيس– كنا في أكثر الأحيان نصنع تسليتنا الخاصة بأنفسنا، حيث كنتُ ألعب «الملاحقة» وكرة القدم مع آني في الشارع، أو نرسم صوراً بالطبشور على الرصيف، أو نلعب ورق اللعب لتمضية الوقت في فترة بعد الظهر في الأيام الممطرة. لم أكن أستاء مطلقاً من تسلية شقيقتي الصغيرة وكنت أستمتع بتمضية الوقت معها.

وإذا كان الطقس جيداً (أو على الأقل، لم يكن ماطراً)، كانت أمي تدفعني أنا وآني للخروج من المنزل في صباحات السبت، مع القليل من النقود في جيبينا من أجل شراء بعض الحلوى، ولا تتوقع عودتنا حتى وقت

الشاي. وكان هذا في معظم الأحيان شيئاً حسناً، ففي تلك الفترة كنا نملك حريتنا، وخيالنا، والأهم من ذلك أننا كنا معاً.

تغيَّرت الأمور مع بلوغي أواخر سن المراهقة. وجدتُ نفسي مع مجموعة جديدة من «الرفاق»؛ ستيفين هيرست وزمرته. مجموعة قاسية من الفتيان لم يكن لفتى انعزالي أخرق مثلي مكان فيها.

لعل هيرست ظن أنني قاسٍ من مظهري الخارجي. أو لعله رأى فتى يمكنه التلاعب به بسهولة. أياً يكن السبب، فقد كنت ممتنّاً بغباء لأن أكون جزءاً من زمرته. صحيح أنني لم أكن أجد أي مشكلة في كوني انعزالياً من قبل، لكن مذاق القبول الاجتماعي يمكن أن يكون مُسْكراً بالنسبة لمراهق لم يُدعَ لحفلة قط.

كنا نمضي الوقت معاً ونقوم بالأشياء الاعتيادية التي تمارسها مجموعات الفتيان المراهقين، مثل الشتم والتلفظ بالألفاظ البذيئة، والتدخين، واحتساء الشراب، وكنا نكتب على ساحة اللعب في المدرسة، ونشبك المراجيح فوق عوارضها الحديدية. ونقذف بيوت المعلِّمين الذين

لا نحبهم بالبيض، ونشق عجلات سيارات أولئك الذين نكرههم حقاً. وكنا نتنمَّر ونضايق الفتيان الأضعف منا؛ الفتيان الذين –أكره أن أعترف بذلك– كانوا يشبهونني.

فجأةً، أصبحتْ تمضية الوقت مع أختي ذات السنوات الثماني غير ممتعة، ومحرجة إلى حد فظيع. عندما كانت آني تطلب مرافقتي إلى المتجر، كنت أختلق الأعذار أو أغادر البيت قبل أن تراني. وإذا كنت في الخارج مع زمرتي الجديدة، كنت أدير رأسي عندما كانت تلوِّح لي.

كنت أتجنَّب النظر إلى مظهر الألم في عينيها وتغيُّر ملامح وجهها. أما في المنزل، فكنت أبذل جهداً مضاعفاً للتعويض عن سلوكي ذاك. وهي كانت تعرف أنني أبالغ في محاولة استرضائها. الأطفال ليسوا أغبياء. وكان هذا يزيد شعوري سوءاً.

والغباء في الأمر –عند التفكير فيه الآن– هو أنني كنت دائماً أكثر سعادة بوجودي مع آني من سعادتي مع أي شخص آخر. تصنُّع القسوة أمرٌ، وأن تكون قاسياً بطبيعتك أمر آخر. أتمنى لو كان بوسعي

إخبار نفسي ذات السنوات الخمس عشرة –من بين أشياء كثيرة– أن الفتيات في الواقع لا يحببن الأشخاص الهادئين، وأن تخدير الأذن بقطعة ثلج من أجل ثقبها لا ينفع، وأن مشروب ثَندربيرد ليس كحولاً، ولا ينبغي شربه قبل الذهاب لحفل زفاف.

وأتمنى لو كان بوسعي القول لأختي أنني كنت أحبها، أكثر من أي شيء آخر. كانت صديقتي الأثيرة، والشخص الذي يمكنني أن أكون معه على حقيقتي تماماً، والشخص الوحيد الذي كان قادراً على إضحاكي إلى أن أذرف الدموع.

لكنني لا أستطيع، لأن أختي اختفت عندما كانت في سن الثامنة. وكان ذلك بالنسبة لي أسوأ شيء يمكن أن يحدث في العالم.

ومن ثم عادت.

أجهِّز نفسي ليومي الأول في آرنهيل أكاديمي بطريقتي الاعتيادية؛ أشرب كثيراً في الليلة السابقة، وأستيقظ متأخراً، وأشتم المنبّه، ثم أمشي بترنِّح وتردّد واستياء عبر ممر الطابق العلوي نحو الحمام.

أُدير صنبور الدوش فوق حوض الاستحمام إلى حده الأقصى، لكن ذلك لا يُخرج إلا دفقاً ضعيفاً من الماء، ثم أرفع قدمي بصعوبة وأدخل إليه وأحظى ببعض الدفء قبل أن أخرج منه وأجفف نفسي وأرتدي ثياباً نظيفة.

أختار قميصاً أسود وسروال جينز أزرق غامقاً وحذائي «الكونفيرس» القديم. أناقة اليوم الأول، وانتعال حذائك البالي. عبارة غبية، أعرف. أخذتها من بريندان، رفيقُ سكني القديم. وبريندان أيرلندي، ما يعني أن لديه عدداً من العبارات لأي موقف. ومع أن معظمها تفتقر إلى أي معنى، إلا أن هذه العبارة مفهومة دائماً لأن الجميع يملكون حذاء

قديماً؛ حذاء ينتعلونه عندما يرغبون بالشعور بالراحة ويحتاجون إليه في أيام معينة دون أخرى.

أمشط شعري وأتركه ليجف بينما أنزل إلى الطابق السفلي لأتناول فنجاناً من القهوة الخالية من السكر مع سيجارة أدخنها خارج الباب الخلفي المفتوح. الجو في الخارج أبرد بشكل طفيف منه في الداخل والسماء تشبه قطعة سميكة من الإسمنت الرمادي القاسي يتقطَّر منها رذاذ خفيف يبصق قطراته الناعمة في وجهي.

أصل إلى بوابة المدرسة قُبيْل التاسعة إلا ربعاً، مع تقاطر المجموعات الأولى من التلاميذ؛ ثلاث فتيات ينقرن على هواتفهن الذكية ويهززن بحركات خاطفة شعرهن الممسَّد بعناية شديدة، ومجموعة من الفتيان يتدافعون بتلك الطريقة المازحة التي يمكن أن تتحول إلى عراك في أية لحظة، واثنان من شبّان الإيمو بشعر منسدل فوق العينيْن ليحملقا من تحته إلى ذوي السلطة.

ثم هناك القادمون الفرادى؛ أولئك الذين يمشون برؤوس مطأطأة وأكتاف محنيَّة –المشية البطيئة المترددة للمنبوذين، ضحايا المتنمّرين العدوانيين.

تلفت نظري فتاة قصيرة ذات شعر أحمر مجعَّد وبشرة ملأى بالبثور وترتدي زيّاً مدرسياً لا يلائم قياسها. تذكّرني بتلميذة من أيامي الدراسية تُدعى روث موور. كانت تفوح منها دائماً رائحة عرَق طفيفة ولم يكن أحد من التلاميذ يرغب في الجلوس بجانبها في الصف. وكان التلاميذ الآخرون يَنْظُمون قصائد فيها دائماً، مثل «روث موور، تعيش في فقر شديد... تنال وجبات مجانية وتتوسّل للمزيد»، و«روث موور، القبيحة والفقيرة... تلعق من أرض المرحاض القذارة».

غريب كم يكون الأولاد مبدعين حين يتَّصفون بالقساوة.

ليس بعيداً خلفها ألحظ الضحية الثانية –فتى طويلا نحيلا ذا شعر داكن يكاد يكون منتصباً بشكل شاقولي فوق رأسه. يضع نظارة ويمشي بانحناءة بسبب طول قامته وكذلك بسبب الحقيبة الثقيلة التي يحملها

على ظهره. أراهن أنه فاشل جداً في لعب كرة القدم وجميع الرياضات لكنه ملك على جهازه البليستيشن بين المهووسين بألعاب الفيديو. إنه يذكِّرني بنفسي.

«هِيي، ماركوس، أيتها الفتاة القذرة!»

يأتي النداء من مجموعة من الفتيان يمشون على مهل خلفه. خمسة فتيان، في السنة الحادية عشرة حسب تقديري، يمشون كالعصابات نحوه؛ تلك المشية المختالة العدوانية واللامبالية. يضع الزعيم، وهو شاب طويل وسيم ذو شعر داكن، ذراعه حول كتفي الفتى النحيل ويقول شيئاً له. يحاول الفتى النحيل أن يبدو مسترخياً لكن كل شيء في هيئته ينضح بالتوتر والعصبية. يُشكِّل بقية المجموعة حلقة حوله مانعين بذلك إمكانية فراره منهم أو وصوله إلى المدرسة.

أتمهَّل قليلاً. لم يروني بعد. إنني أقف على الجانب المقابل من الطريق. وبالطبع، إنهم لا يعلمون أنني معلِّم. مجرد رجل رث المظهر يرتدي معطفاً ثقيلاً وينتعل كونفيرس. يمكنني التظاهر بكوني هذا الرجل

حقاً فالمدرسة لم تبدأ بعد رسمياً، ونحن لسنا داخل المدرسة أساساً، فضلاً عن كونه يومي الأول. ستكون هناك أيام أخرى، ومرات أخرى، لمعالجة مسائل كهذه.

أدسُّ يدي في جيبي بحثاً عن علبة المارلبورو لايتس وأراقب العصابة وهي تدفع الفتى النحيل نحو الحائط. اختفت الابتسامة المتوترة الآن. يفتح فمه احتجاجاً فيضغط الزعيم بذراعه على رقبته بينما يخلع أحد أفراد العصابة حقيبة الظهر عن كتفه ثم يهجم البقية عليها مثل مجموعة من الكلاب البرّية ويُخرجون الكتب والدفاتر منها ويمزّقون بعض الصفحات ويدوسون على ساندويتشاته الملفوفة بورق نايلون لاصق.

يُخرج أحدهم ما يبدو أنه جهاز آيفون جديد فأقول في داخلي، لماذا؟ لماذا يرسلهم الآباء إلى المدرسة مع أشياء كهذه؟ على الأقل، في أيامي أسوأ ما يمكن أن يسرقه تلميذ متنمِّر هو مصروف جيبك أو مجلتك المصوَّرة المفضَّلة.

أنظر بتوقٍ إلى علبة سجائري ثم أعيدها مجدداً، مع تنهيدة، إلى جيبي وأعبر الشارع نحو المشاجرة الساخنة.

يحاول الفتى النحيل إعادة هاتفه، فيوجِّه الفتى الزعيم ضربة بركبته إلى أسفل بطنه ثم يأخذ الهاتف من رفيقه.

«أووووه، جديد. جميل».

يتوسَّل الفتى النحيل وهو يلهث: «رجاءً. إنه هدية... من أجل عيد مولدي».

يقول الفتى الزعيم: «لا أعتقد أننا تلقّينا دعوة إلى حفلتك» – يلتفت إلى رفاقه– «صحيح؟»

فيجيبه أحدهم: «لا. لابد أنها ضاعت في البريد».

«ولا رسالة قصيرة. لا شيء».

يرفع الفتى الزعيم الهاتف عالياً فوق رأسه فيمدُّ الفتى النحيل يداً نحوه، ولكن بفتور وضعف. صحيح أنه أطول قامةً من معذِّبه بعدة سنتمترات، لكنه مهزوم مسبقاً. أعرف هذه النظرة.

يقول الفتى الزعيم مع ابتسامة ساخرة: «آمل حقاً ألا أُوقع–»

أمسك بمعصمه وأقول: «لن تفعل».

يلتفت الفتى الزعيم نحوي ويقول: «من تكون بحق الجحيم؟»

«السيد ثورن، أستاذ اللغة الإنكليزية الجديد. ولكن، يمكنك أن تناديني سيدي».

يتمتمون بشكل جماعي. يبدو على الفتى الزعيم شيء من التردد قبل أن يرسم على وجهه ابتسامة أنا موقن بأنه يظنها ساحرة، غير أنها تجعلني أزداد نفوراً منه.

ثم يقول: «كنا نمزح فقط يا سيدي. كانت مجرد مزحة».

«حقاً؟» –أنظر إلى الفتى النحيل– «هل كنتم تمزحون؟»

فينظر إلى الفتى الزعيم ويومئ برأسه بشكل واهن دلالة على التأكيد، ثم يقول: «كنا نمزح وحسب».

أُفلتُ معصم الفتى الزعيم –بتردُّد– وأعيد للفتى النحيل هاتفه.

«لو كنتُ مكانك يا ماركوس، سأترك هذا في المنزل غداً».

يومئ برأسه ثانيةً، رغم هذه العقوبة المضاعفة الآن.

ألتفت إلى الفتى الزعيم: «اسمك؟»

«جيريمي هيرست».

هيرست. أشعر برعشة صغيرة بجانب عيني. بالتأكيد. كان يجب أن أعرف. لقد ضلّلني الشعر الداكن لكنني أرى الشَبَه العائلي الآن؛ بريق الوحشية الموروث في عينيه الزرقاوين.

«هل هذا كل شيء، سيدي؟»

كلمة «سيدي» مشدَّدة، ساخرة. يريدني أن أرد. لكنني أذكِّر نفسي، أيام أخرى. أيام أخرى.

«في الوقت الحالي» –ألتفت نحو الآخرين خلفي– «انصرفوا جميعاً من هنا. ولكن، إذا رأيتكم توقعون ولو قطعة صغيرة من علكة في المستقبل، فسألازمكم مثل حالة حادة من مرض الكلاميديا».

تفلت ابتسامة طفيفة من اثنين من الفتيان رغماً عنهما. أُشير برأسي بحدَّة إلى بوابة المدرسة فيبدؤون بالمشي نحوها. يبقى هيرست في مكانه إلى النهاية ثم يستدير ويلحق بهم على مهل. أما ماركوس فيظل واقفاً بتردُّد.

فأقول له: «وأنت أيضاً».

بيد أنه لا يتحرك.

فأقول: «ماذا؟»

«ما كان ينبغي لك فعل ذلك».

«أكنتَ تفضِّل أن أدعهم يفلتون بتحطيم هاتفك الجديد؟»

يهزُّ رأسه بإنهاك ثم يقول وهو يهمُّ بالانصراف: «سوف ترى».

5

لستُ مضطراً للانتظار مطوَّلاً.

إنها استراحة الغداء، وأنا جالس بجانب طاولتي أكتب بعض الملاحظات المتعلقة بالدروس وأهنئ نفسي لتجاوزي الفترة الصباحية دون إضجار التلاميذ حتى الموت أو رمي أحدهم –أو نفسي– من النافذة.

كما أوضحَ هاري –وكان مصيباً تماماً في ذلك– لقد مضى وقت طويل منذ انقطاعي عن التعليم. وأعترف بأنني أحسستُ بشيء من الصدأ في البداية. ثم تذكَّرت شيئاً قاله لي زميل قديم: «التعليم مثل قيادة الدراجة الهوائية. لن تنساه أبداً. وإذا شعرتَ بأنك توشك على التأرجح أو السقوط، فتذكَّرْ دائماً أن هناك ثلاثين ولداً ينتظرون السخرية منك وسرقة الدراجة. لذا، تابع الدوس حتى إن كنت لا تعرف إلى أين تتجه».

وهذا ما فعلته. واصلتُ الدوس. وبحلول نهاية الصباح كنت أشعر بالفخر لنجاحي.

لكن هذا، بالطبع، لا يمكن أن يدوم.

أسمع طرقاً على باب الصف قبل أن يمدَّ هاري رأسه.

«آه، سيد ثورن؟ أنا مسرور لأنني وجدتك. هل كل شيء على ما يرام؟»

«في الحقيقة، لم يغفُ أي من التلاميذ في حصصي بعد، لذا يمكنني القول أجل».

يهز برأسه دلالة على الرضا، ثم يقول: «جيد. جيد جداً».

بيد أن ملامحه لا توحي بأن الوضع جيد جداً. يبدو مثل رجل أضاع عشرة جنيهات ووجد عشّ دبابير. يدخل إلى الغرفة ويقف بارتباك أمامي.

«أعتذر لاضطراري لفتح هذا الموضوع معك في يومك الأول، لكن شيئاً بلغني لا يمكنني تجاهله».

أقول في داخلي: هراء. انتهى الأمر. لقد لاحق شهادات التعريف بي وكُشف أمري.

كانت مقامرة من البداية. كانت ديبي، أمينة السر في مدرستي القديمة، تكنُّ شيئاً من الإعجاب لي، وإعجاباً أكبر لحقائب اليد الغالية. ومن أجل المعرفة القديمة (وحقيبة يد صغيرة)، أخذتْ ديبي طلبَ هاري بتقديم شهادة تعريف بي وحوَّلته إلي، مع ورقة رسمية موقَّعة. هذا هو أصل مؤهلاتي المُبهرة. وكل هذا ممتاز، ما لم يكن هاري أجرى بحثاً أعمق بعض الشيء.

أحضِّر نفسي. ولكن، ليس الأمر كما توقعت.

يقول هاري: «يبدو أن حادثة وقعت مع أحد تلاميذك خارج بوابة المدرسة هذا الصباح، صحيح؟»

«إذا كنتَ تقصد بـ (حادثة) اعتداءً، فالجواب أجل».

«إذن فأنت لم تتهجَّم على أحد التلاميذ؟»

«ماذا؟»

«بلغتني شكوى من تلميذ، جيريمي هيرست، بأنك تهجَّمتَ عليه».

الوغد الصغير. أشعر بالدم يبدأ بالنبض بقوة في صدغي.

«إنه يكذب».

«قال إنك أمسكتَ بذارعه بعنف».

«لقد رأيتُ جيرمي هيرست وعصابته الصغيرة يعتدون على تلميذ آخر».

«لكنك لم تستخدم قوة غير منطقية؟»

أنظر في عينيه وأقول: «بالطبع لا».

«حسناً». يتنهَّد. «آسف، ولكن كان من الضروري أن أسأل».

«أفهم».

«كان ينبغي لك المجيء إلي بخصوص هذه الحادثة. كان بوسعي وأدها في مهدها».

«لم أرَ أية حاجة لذلك. اعتقدتُ أن المسألة سُوِّيت».

«أنا واثق من ذلك، لكن وضع جيريمي هيرست، في الواقع، حساس بعض الشيء».

«لم يبدُ لي حساساً كثيراً عندما كان يعذِّب فتىً آخر ويهدد بتحطيم هاتفه».

«هذا يومك الأول، لذا من الواضح أنك لا تزال جديداً على ديناميات المدرسة، وأنا أقدِّر موقفك بشأن التنمُّر، ولكن في بعض الأحيان تكون الأشياء غير واضحة تماماً».

«أعرف ما رأيت».

ينزع نظارته ويفرك عينيه. أحس بأنه ليس رجلاً سيئاً، وإنما مجرد رجل منهَك ومُجهَد يحاول فعل ما بوسعه في ظل ظروف صعبة ويفشل في العادة.

«ما أريد قوله هو أن جيريمي هيرست واحد من طلابنا البارزين. إنه كابتن فريق كرة القدم في مدرستنا...»

ومن الجهة المقابلة، قد يكون وغداً.

«هذا لا يبرِّر الترهيب، والكذب–»

«والدته مصابة بالسرطان».

أشعر كأن شيئاً صدمني بشكل مباغت.

«سرطان؟»

«سرطان أمعاء».

«فهمت».

«اسمعْ، أعرف أن جيريمي هيرست يعاني من مشكلات تتعلق بالترابط الاجتماعي والتحكُّم بالغضب–»

«إذن هذا ما بتنا نسمِّيه في هذه الأيام».

يبتسم هاري بحزن ويقول: «ولكن، بالنظر إلى وضعه، نحن مضطرين للدوس بحذر».

«صحيح». أهز رأسي مؤيِّداً. «أعتقد أنني أفهم الوضع بصورة أفضل الآن».

«جيد. كان ينبغي لي التحدث معك شخصياً حول بضعة أشياء كهذه. الكتب الإرشادية المدرسية لا يمكن أن تغطِّي كل شيء، أليس كذلك؟»

«صحيح».

«حسناً، أعتقد أنه ينبغي لي أن أدعك تُكْمل».

«شكراً، وشكراً لاطلاعي بشأن جيريمي هيرست».

«لا عليك. سنواصل الحديث لاحقاً». يصمت قليلاً. «ما زلتُ مضطراً لتسجيل هذه في سجلّك».

«عفواً؟»

«سجلّك الشخصي. شكوى كهذه يجب أن تُدوَّن، حتى لو كانت غير صحيحة».

يزداد النبض قوة. هيرست. هيرست اللعين.

«بالطبع». أرغم نفسي على رسم ابتسامة صغيرة. «أفهم».

يمشي نحو الباب.

أسأله: «هل ستموت؟ والدة جيريمي؟»

يلتفت ويرمقني بنظرة غريبة.

«العلاج يسير بصورة جيدة. ولكن، مع هذا النوع من السرطان، الاحتمالات ليست مشجِّعة».

«لابد أن هذا شاق بالنسبة لجيريمي، ووالده؟»

«أجل. أجل، بالتأكيد». يبدو لوهلة بأنه يريد قول شيء آخر، لكنه بعد ذلك يهزُّ رأسه قليلاً كالعادة ثم يغلق الباب خلفه.

شاق على والده. أُخرج علبة سجائري وأبتسم. أقول في داخلي: جيد. كارما لعينة جيدة.

كان المبنى الإنكليزي يقع بين مبنى المدرسة الرئيسي والكافتيريا، ويتصل بهما بواسطة ممر ضيِّق كان يعجُّ دائماً بالطلاب بين الحصص وكان أسخن من مُصادم الهدرونات في فصل الصيف. كنا نقول على سبيل المزاح إنك ستصبح أشد سواداً من جيم بيري (الولد الوحيد المختلط عرقياً في مدرستنا) إذا وقفتَ فيه لوقت طويل جداً.

رغم أنه كان يُسمَّى رسمياً المبنى الإنكليزي، إلا أنه كان بالنسبة لجميع الأولاد «المبنى» وحسب. أربعة طوابق من البشاعة الإسمنتية تتأرجح عند هبوب رياح قوية.

لا أحد كان يحب أخذ دروس في «المبنى»، حتى قبل ما حدث. كان دائماً بارداً، وكانت نوافذه تسرِّب، وفي أحد الشتاءات شديدة البرودة أذكر حصة تجمَّدتْ فيها ندف الثلج على ألواح الزجاج وكنا نرتدي فيها جميعنا قبعات وأوشحة.

بعد سقوط كريس مانينغ من سطح «المبنى»، أُغلق ثم أُعيد فتحه مع «احتياطات أمان جديدة»، وكان ذلك يعني بشكل رئيسي التأكد من أن باب السطح مُقفَل دائماً.

هُدم المبنى في وقت ما خلال العقديْن السابقيْن وأُنشئتْ مكانه باحة مرصوفة صغيرة فيها ثلاثة مقاعد موزعة حول دائرة صغيرة من النباتات نصف الميتة. وثُبِّتَ على أحد المقاعد لوحة صغيرة كتُب عليها: «إحياءً لذكرى كريستوفر مانينغ».

أجلس على المقعد الآخر وأسحب سيجارة من علبة سجائري. أفتل السيجارة بين أصابعي وأحدِّق في ألواح الرصف الحجرية، متسائلاً أي منها تُخفي موقع سقوطه.

لم يُصدر مانينغ أي صوت أثناء سقوطه، وحتى عند اصطدامه بالأرض. كانت خبطة ناعمة مكتومة. لم تبدُ قوية بما يكفي. ولولا أن جسده بدا منكمشاً على نحو غريب، كأن شخصاً أخرج كل الهواء منه، لكان بوسعي الاعتقاد بأنه كان لا يزال حياً، وبأنه كان مستلقياً هناك يستمتع بشمس الخريف الباهتة. وبالطبع، لولا الدم الذي كان ينتشر من تحته ببطء، ظلاً أحمر قانياً يستطيل في الشمس الآفلة.

«أمر مخزٍ جداً، أليس كذلك؟»

أنتفض في مكاني. أنظر فأرى أمامي فتاة قصيرة ذات شعر داكن مربوط من الخلف على شكل ذيل فرس فوضوي ووفرة في الأقراط الفضية في أذنيها. لم أسمع صوت خطواتها عند اقترابها مني، ولكن هذا طبيعي فهي نحيلة جداً لدرجة أنها يمكن أن تطير في الهواء.

أظن لوهلة أنها طالبة في السنة الأخيرة، ومن ثم ألاحظ غياب الزي الرسمي (مالم يكن تيشيرت كيلرز وسروال الجينز الضيِّق وحذاء دوك

مارتينز هو الزي الجديد) والخطوط حول العينين التي تكذِّب المظهر الشاب الأولي.

«عفواً؟»

تومئ إلى السيجارة التي أعبث بها بأصابعي بقلق وتقول: «من المخزي أنهم يبتكرون منطقة التدخين المثالية ثم يمنعونك من إشعال سيجارة في منشآت المدرسة».

«آه». أنظر إلى السيجارة ثم أعيدها إلى العلبة. «مأساة بالفعل».

تبتسم وتجلس بجانبي دون أن تسألني. في العادة، هذا النوع من الحميمية غير المطلوبة يثير حنقي. ولكن، لسبب ما، مع هذه الآنسة ذات الثقوب العديدة، إنه يثير غضبي فقط.

«من المؤسف أمر ذلك الفتى الذي قفز أيضاً». تهزُّ برأسها. «هل فقدتَ أحدهم يوماً؟»

«تلميذ؟»

«من المؤكد أنني لا أقصد فردة جورب».

«لا، لا أعتقد أنني فقدتُ أحداً منهم».

«في الحقيقة، سوف تتذكَّر. كما أرجو». تُخرج علبة أقراص النعناع بولو، وتفتح واحداً وتضعه في فمها. ثم تعرض علي العلبة. أجد نفسي أسحب قرصاً رغم رغبتي برفضه.

«توفيت إحدى تلميذاتي. جرعة زائدة».

«يا للأسف».

«أجل. كانت فتاة لطيفة بحق. مجتهدة. محبوبة. بدا كأن كل شيء كان يسير في صالحها ومن ثم... علبتَيْ سيتامول وزجاجة شراب. أدخلتْ نفسها في غيبوبة. وبعد أسبوع اضطرُّوا لإيقاف جهاز الحفاظ على حياتها».

أعقد حاجبيَّ وأقول: «لا أذكر أنني سمعت بهذه القصة».

«بالتأكيد لن تسمع بها. لقد طغتْ قصة جوليا وبن مورتون عليها». ترفع كتفيها. «هناك دائماً مأساة أكبر، صحيح».

«أعتقد ذلك».

صمت.

«إذن، ألن تسأل؟»

«ماذا؟»

«الأسئلة المعتادة؟ هل كنتِ تعرفينهما؟ هل شككتِ بوجود أي شيء غير صحيح؟ هل رأيتِ أية إشارات؟»

«طيب، هل رأيتِ أي شيء؟»

«ليس تماماً. لا وأجل. ألم أذكرْ ذلك؟ جاءت جوليا إلى المدرسة وهي تضع لافتة حول رقبتها تقول، (أنا أنوي قتل ابني ونفسي. طاب يومكم)».

«في الحقيقة، التهذيب لا يكلِّف شيئاً».

تضحك وتمدُّ يدها قائلة: «بِث سكاترغود. فنون».

أصافحها قائلاً: «سكاترغود؟ حقاً؟»

«أجل».

«أراهن أن الأولاد يسخرون من هذا؟»

«أجل. أولاد، هه؟ عليك أن تحبهم وإلا فستلقى صعوبة لا بأس بها».

«أنا جو–»

«أعرف. جو ثورن. البديل».

«مُنحتُ ألقاباً أسوأ».

«إذن، من أي نوع أنت؟»

«ماذا تعنين؟»

«نوعان فقط من المدرسين ينتهي بهم المطاف في آرنهيل أكاديمي. أولئك الذين يريدون إنجاز شيء مختلف وأولئك الذين لا يستطيعون الحصول على عمل في مكان آخر. إذن، من أي نوع أنت؟»

أتردد قبل أن أقول: «أحب الاعتقاد بأنني أريد إنجاز شيء مختلف».

«أكيد». صوتها ينضح سخريةً. «حسناً، من اللطيف التعرُّف عليك سيد ثورن».

«شكراً. هذا أمر مشجِّع في يومي الأول».

ترسم ابتسامة عريضة وتقول: «نسعى للإرضاء».

أعتقد أنها تعجبني. وهذا الشعور يفاجئني أكثر مما يجب.

«إذن، من أي نوع أنتِ؟»

تنهض ثم تقول: «النوعِ الجائع. كنت في طريقي إلى الكافيتريا. هل تأتي؟ يمكنني تقديمك إلى بعض المنبوذين الآخرين الذين يعلِّمون هنا».

أسمع صخبَ الكافتيريا قبل مسافة طويلة من اقترابنا منها. مرة أخرى، إنها تذكِّرني بالماضي. رائحة الزيت المقلي الفاسد وشيء غير قابل للتمييز لا تراه يُقدَّم أبداً لكنك تشم رائحته آتية من مراوِح الشفط في المدرسة أو في منازل الناس القديمة.

من الداخل، لم تتغير الكافتيريا بالقدر الذي توقّعته. الأرضية الباركيه والطاولات والكراسي البلاستيكية. ولكن يبدو أن المطبخ خضع لعملية إصلاح شامل منذ أن اعتدتُ الوقوف في الصف بانتظار الحصول على البيرغر والبصل المقلي والبطاطا المقلية. أما الآن فكل ما يُقدَّم هو الدجاج والأرز، والمعكرونة بالخضروات، والسلطة. أُحمِّل المسؤولية لجيمي أوليفر.

«هناك بعض من مجموعتنا. تعال».

تقودني بِث نحو طاولة تقع في زاوية بعيدة –طاولة المعلِّمين. هنالك أربعة أشخاص يجلسون حولها. وتبدأ بالتعريف على الفور.

الآنسة سوزان هاردي –سيدة نحيلة ذات شعر شائب طويل ونظارة سميكة– تاريخ.

السيد جيمس إدواردس –شاب وسيم ذو لحية عصرية– رياضيات.

الآنسة كولين هيبرت –امرأة ذات فكين قويين وقصة شعر عسكرية– تربية رياضية.

والسيد سايمون سوندرز –رجل طويل نحيل ذو شعر متراجع مشدود إلى الخلف ومعقود على شكل ذيل فرس خشن، يرتدي تيشيرت بينك فلويد وجينزاً باهت اللون– علم اجتماع.

لسبب ما لا يعجبني على الفور. ربما لأنه يقدِّم نفسه بالقول: «مرحباً يا رجل؟»

ما لم تكن عضواً في فرقة موسيقية أو راكب أمواج أميركياً، لا تستخدم كلمة «رجل»، لأنها تجعلك تبدو أحمق، تماماً مثل عقدة ذيل فرس في شعر متراجع –لن تخدع أحداً بذلك.

حالما أجلس يشير إلي بشوكته قائلاً: «تبدو مألوفاً يا رجل. هل التقينا؟»

فأقول وأنا أحلُّ غلاف ساندويشتي بعناية: «لا أظن ذلك».

«أين كنت تعلِّم قبل مجيئك إلى هنا؟»

«في الخارج».

«أين؟»

أستغرق لحظة لتذكُّر الكذبة: «بوتسوانا».

«حقاً؟ حبيبتي السابقة علَّمتْ هناك لبعض الوقت».

لا شك في ذلك أبداً.

يقول مع ابتسامة: «وارينغ؟»

أفكِّر في الاحتمالات. وارينغ؟ ليست مكاناً. أمر واضح جداً. لابد أنها إحدى العبارات المستخدمة في بداية الحديث. ليس «مرحباً» لأننا فعلنا ذلك مسبقاً، لذا لابد أنها تعني...

أقول بلطف: «أنا بخير، شكراً. وأنت؟»

تتراجع ابتسامته بسرعة أكبر من سرعة تراجع شعره. أتناول قضمة من ساندويتشي متسائلاً إن كان أي من الحاضرين سيبالي إن جررته إلى الخارجِ ورميته تحت أقرب باص.

تسألني كولين، مغيِّرةً الموضوعِ لحسن الحظ: «سمعتُ أنك من آرنهيل؟»

«لقد نشأتُ هنا».

فيقول جيمس بنبرة غير مصدِّقة، نصف مازحة: «ورجعت؟»

«من أجل ذنوبي».

تقول سوزان: «حسناً، نحن سعداء لوجودك. كان أمراً صعباً إيجاد بديل بعد... أعني، بعد السيدة مورتون».

فيقول سايمون: «أجل. لا يجب أن تكون مجنوناً لتعمل هنا، لكن ذلك يساعد». ثم يقهقه لنكتته.

تنظر بث إليه ببرود ثم تقول: «كانت جوليا تعاني من اكتئاب. لم تكن مجنونة».

فيردُّ عليها بازدراء قائلاً: «صحيح. لأن تهشيم وجه طفلك أمر عاقل تماماً؟» يتناول لقمة كبيرة من المعكرونة ويمضغ بصخب.

ألتفت إلى بث وأسألها: «هل كان الجميع يعلمون بشأن اكتئاب جوليا؟»

تقول بث: «لم تُخفِ هذا الأمر مطلقاً. لقد مرَّتْ بفترة صعبة وجيزة بعد انفصالها عن والد بن. أعتقد أن الانتقال إلى هنا كان المقصود منه أن يكون بداية جديدة».

يا لها من بداية جديدة.

تضيف سوزان قائلةً: «كانت تأخذ أدوية. ولكن، من الواضح أنها توقفت عن تناولها».

«كيف حصلت على سلاح؟»

«تمتلك عائلتها مزرعة بجوار أوكستون. كان يخص والدها».

يقول جيمس: «من المؤكد أنه لو شك أي منا بوجود شيء خاطئ—»

أقول في داخلي: ماذا؟ ماذا كنتَ ستفعل؟ تسألها إن كان كل شيء على ما يرام وتبتسم بارتياح عندما تقول إنها بخير؟ أُنجزَ العمل. في الحقيقة، لا أحد يريد أن يعرف. ليس بشكل حقيقي. لأننا حينئذ قد نضطر للاهتمام، ومن يملك الوقت لذلك؟

«أكيد».

يُصدر سايمون طقَّة بأصابع ثم يشير إليّ مجدداً ويقول: «ستوكفورد أكاديمي».

تنقبض معدتي بشدة.

يتابع سايمون كلامه: «هذا هو المكان الذي أذكر أنني رأيتك فيه. لقد عملتُ هناك كمعلِّم إضافي منذ بضع سنوات».

أذكر على نحو ضبابي رجلاً نحيلاً ذا ذوق رديء في اختيار ثيابه ورائحة نفَس كريهة. لم نكن في القسم نفسه. ولكن، مع ذلك، معقول؟

«في الحقيقة، لم أبقَ هناك لفترة طويلة جداً، لذا...»

«صحيح. لقد رحلتَ بشكل مفاجئ. ماذا حدث؟ هل أغضبتَ المدير؟»

«لا. لا شيء من هذا القبيل».

«غريب مع ذلك». يعبس ثم يشير إلى ساقي ويضيف قائلاً: «لا أذكر أنك كنت تعرج حينئذ».

أحدِّق فيه وأقول: «إذن لابد أنك تُشبِّهني بشخص آخر. أنا أعاني من العرج منذ أن كنت طفلاً».

تطول لحظة الصمت أكثر مما يثير الارتياح فتتدخَّل سوزان قائلةً:

«ماذا حدث؟ إذا لم تكن تمانع سؤالي؟»

في الواقع، أنا أمانع، ولكن أنا من جلب ذلك لنفسي.

«كنتُ في الخامسة عشرة. كنتُ مع أبي وأختي الصغيرة حين تعرَّضنا لحادث سيارة. لقد خرجنا عن الطريق واصطدمنا بشجرة. آني وأبي توفيا على الفور. وساقي سُحقت. تطلَّب الأمر ستة أسياخ حديدية لترميمها من جديد».

تقول سوزان: «أوه يا إلهي. أنا متأسفة للغاية».

«شكراً».

تسألني بث: «كم كان عمر أختك؟»

«كانت في الثامنة».

ينظرون إلي بأعين حزينة ومتعاطفة، أما سايمون، فلا يقوى على النظر في عينيَّ، وأنا سعيد لرؤية ذلك.

«على أي حال، حدث ذلك منذ وقت طويل. ولحسن الحظ، كنت عازماً على أكون معلَّماً وليس راقصاً، ولهذا أنا هنا».

يضحكون بشيء من التوتر. وتستمر المحادثة. لقد لعبتها بطريقة حسنة. أنا رجل صالح، وصادق. رجل واجه مأساة ويحمل ندوباً، لكنه مع ذلك لا يزال يملك حس الفكاهة.

وأنا كذاب أيضاً. فأنا لم أفقد أختي في حادث سيارة، ولم أُصَب بالعرَج في ذلك الحين.

6

يقول الناس إن الزمن خير شافٍ، لكنهم مخطئون. الزمن ببساطة خير ماحٍ. إنه يمضي قدماً بصرف النظر عن كل شيء، متلفاً ذكرياتنا في طريقه، ومكسِّراً بالتدريج تلك الصخور الضخمة من البؤس إلى أن تصبح مجرد شظايا صغيرة حادة؛ صحيح أنها تبقى مؤلمة ولكن صغيرة بما يكفي لتحمُّلها.

القلوب المكسورة لا تلتئم، لكن الزمن يطحن القطع المتكسّرة ويحوِّلها إلى غبار.

أسند ظهري على أحد كراسي المنزل المخلخلة التي تصدر صريراً عند الجلوس عليها وأحتسي جرعة كبيرة من الشراب. كان يوماً طويلاً. أول يوم كامل أعلِّم فيه منذ فترة طويلة. ساقي المعطوبة تؤلمني وحتى أقراص الكودبين الأربعة التي ابتلعتها لا تُحدث أثراً كبيراً على الألم النابض المتواصل. لن أنام الليلة بالتأكيد، لذا فالحل هو أن أشرب بما يكفي لأن أفقد وعيي. علاج الذات.

الإنارة في الغرفة خافتة، لا يضيئها إلا مصباح طاولة وحيد ومدفأة حطب مطقطقة. لقد ذهبتُ إلى سوبرماركت يقع خارج البلدة وجلبت الأشياء الضرورية –بيتزا، وجبات جاهزة، قهوة، سجائر، وشراب. وفي طريق العودة رأيت منزلَ مزرعة حُوِّل إلى نزل للمبيت والإفطار (**B&B**) يبيع حطباً. لم يفتح أحد الباب عندما طرقت عليه رغم وجود سيارة فورد فوكُس مهترئة في الخارج. كان هناك كرسيان للأطفال على المقعد الخلفي ولافتة معلّقة على النافذة الخلفية كُتب عليها: يوجد وحوش صغيرة في السيارة.

تُركتْ بجانب الحطب سلّة كُتب عليها: « **5** جنيهات للكيس – ادفعْ هنا». بدا لي بأن السلة كانت تحتوي نحو ثلاثين جنيهاً. حدَّقتُ في الملاحظة المجعَّدة لوهلة، وفكَّرتُ في كرسيَّي الأطفال، ثم وضعت خمسة جنيهات وتناولت كيساً وعدت أدراجي بالسيارة إلى السوبرماركت من أجل شراء موقدات النار.

تطلَّب الأمر ستة من هذه الموقدات والكثير من الشتائم لإشعال المدفأة اللعينة. لكن الغرفة الآن، للمرة الأولى منذ انتقالي إلى هنا، تنعم بدفء جاف مريح. بوسعي تقريباً رؤية الرطوبة تختفي تدريجياً من الجدران. وإذا ما تغاضيت عن الأثاث المتداعي وغياب أية تذكارات شخصية، إضافة إلى حقيقة أن شخصين ماتا هنا، فأنا أكاد أشعر بأنني في منزلي.

أضع على حجري دفتراً كتبتُ على صفحته الأولى أربعة أسماء، إضافة إلى بضع الملاحظات. كريس مانينغ، ونيك فليتشر، وماري جيبسون، وبالطبع، ستيفين هيرست. الزمرة القديمة عادت من جديد، على الورق على الأقل. الأشخاص الذين كانوا هناك عندما حدث الأمر. الأشخاص الوحيدون الذين يعلمون.

اكتشفتُ أن فيلتش يدير الآن عملاً يتعلق بالسباكة في آرنهيل. وهيرست عضو في المجلس البلدي. لكنني لم أتمكَّن من إيجاد أي شيء حول ماري على الإنترنت. لعلها تزوجت، وتغيَّر اسمها. وكتبتُ بجانب

اسم كريس ببساطة، «مات»، مع أن ذلك لا يفي الأمر حقه. على الإطلاق.

وعلى رأس الصفحة التالية يوجد اسمان؛ جوليا وبن مورتون. كتبتُ تحتهما المزيد من الملاحظات، المأخوذة في معظمها من الإنترنت والصحف. أعلم أن أياً منها ليس موثوقاً تماماً. إذا كانت الصحف هي المكان الذي تتحول فيه الوقائع إلى قصص، فإن الإنترنت هو المكان الذي تتحول فيه القصص إلى نظريات مؤامرة.

ما أعرفه هو التالي: كان لدى جوليا ماضٍ من الاكتئاب. وكانت قد أنهت منذ فترة قصيرة معاملة طلاقها من والد بن (مايكل مورتون؛ محام). وأوقفت علاجها، وأخرجت بن من المدرسة. آه، وبعد أن ضربتْ ولدها حتى الموت -قبل أن تنسف رأسها- كتبتْ ثلاث كلمات بالدم على جدار غرفة نوم بن.

إنه ليس ابني.

باختصار، إنها ليست أفعال نابعة من عقل متوازن.

لقد طبعتُ صورتين وثبَّتهما بواسطة مشْبكيْن داخل دفتر الملاحظات. الأولى لجوليا. يبدو أنها التُقطتْ في مناسبة عمل. ترتدي بذة أنيقة. شعرها معقود على شكل ذيل حصان غير مشدود. ابتسامتها عريضة لكن عينيها متعبتان وحذرتان. لسان حال وجهها يقول: التقطْ صورتك واتركني وشأني. أتساءل إن كان هذا هو سبب اختيار الصحيفة لهذه الصورة. هذه امرأة توشك على الانهيار. امرأة على الحافة. أم لعلها مجرد امرأة متضايقة لكونها مرغَمة على الوقوف من أجل التقاط صورة غبية.

أما صورة بن فصورة مدرسية. ابتسامته عريضة وجذابة. السنّان الأماميان مائلان بشكل طفيف، وربطة العنق معقودة بعناية، (ربما) للمرة الأولى في حياته القصيرة. سرد الصحفيون الأشياء المكررة المعتادة؛ تلميذ جيد –، أصدقاء كُثُر، مستقبل مشرق. إنهم لا يذكرون شيئاً عن الولد الحقيقي –مجرد عملية قص ولصق من ملفات «الصبي المقتول» المحفوظة.

ثمة مقال واحد فقط يشير إلى شيء إضافي. لقد ادَّعى مصدر من المدرسة –لم يُذكَر اسمه– أن بن كان يتصرَّف بغرابة في الأسابيع التي سبقت مقتله؛ تورُّط في مشاكل، غياب عن الحصص الدراسية. يقول المصدر: «كان غريب الأطوار. لم يكن الصبي الذي عرفناه».

أفكِّر في الكلمات التي كتبتها جوليا: إنه ليس ابني. أشعر بظفْر بارد يداعب قمة عمودي الفقري.

أرمي الدفتر على طاولة القهوة. يرنُّ هاتفي فتعكِّر رنّة «إنتر ساندمان [أغنية لفرقة ميتاليكا]» صفو الصمت المريح. ألتقطه وأنظر إلى الشاشة. إنه بريندان. أضغط على «قبول المكالمة».

«ألو؟»

«كيف تسير الأمور؟»

«سؤال جيد. ما زلتُ أعمل على الإجابة».

بريندان ليس ذلك النوع من الأصدقاء الذين يتصلون فقط للسؤال عن حسن سير أحوالي. إن لم تكن هناك أية أخبار تشير إلى العكس، فإنه يفترض بأنني حي، وهذا جيد بما يكفي بالنسبة إليه.

يقول: «سأل شخص عنك في الحانة منذ بضع ليالي».

«شخص؟»

«امرأة. صغيرة الحجم، شقراء، جميلة، لكنها قاسية نوعاً ما».

تنقبض معدتي وتنبض ساقي العليلة بشكل أشد إيلاماً.

«هل تحدَّثتَ معها؟»

«بالطبع لا. تسلَّلتُ إلى الخارج حالما رأيتها. بعض النساء لا تنشرن إلا الأخبار السيئة».

«حسناً. لا ترجع إذن».

«لكن الحانة تقدِّم أفضل شطيرة لحم ستيك وكلْية خارجِ مطبخ أمي العجوز العزيزة».

«اجلبْ كتاب طهو».

«هل تمزح معي».

«لا مزاح. لا تعُدْ».

«يا إلهي». أسمع طقة قدّاحة وصوت شهيق. «ماذا فعلت؟ رهنتَ مجوهراتها؟ هربتَ بمدّخرات حياتها؟»

«أسوأ».

«أنت تعلم ما كانت ستقوله أمي العجوز العزيزة؟»

«لدي شعور بأنك ستخبرني».

«أسرع طريقة لدفن إنسان هي إعطاؤه مجرفة».

«المعنى؟»

«متى ستتوقف عن الحفر بحق الجحيم؟»

«عندما أجد الكنز».

«الشيء الوحيد الذي ستجده يا صديقي هو قبر مبكر».

«أحب حواراتنا الصغيرة. إنها ترفع المعنويات جداً».

«إذا كنتَ تريد رفع معنويات، شاهد أوبرا».

«لدي خطة–»

«لديك أمنية موت».

«أريد فقط بعض الوقت».

يتنهَّد ثم يقول: «هل فكَّرتَ يوماً في أنك بحاجة إلى مساعدة اختصاصية؟»

«عندما أنتهي من حل هذا الأمر، سأفكر في الأمر».

«افعلْ ذلك».

يُنهي الاتصال. أفكِّر في الأمر بالفعل؛ لمدة عشر ثوان. أنا مدين لبريندان بذلك. لقد عرفنا بعضنا لمدة ثلاث سنوات تقريباً، وتشاركنا شقة لمدة سنة ونصف. كنتُ أجده دائماً معي في وقت الشدة؛ وحده فقط. لكن بريندان كحولي في طور الإقلاع عن الشرب، وهذا يعني أنه يميل لأشياء مثل الاعتراف والغفران والتكفير عن الذنوب. أما فأنا فأكثر ميلاً للاحتفاظ بالأسرار، وإضمار الضغائن، والتشبُّث بالشعور بالاستياء.

أتساءل أحياناً كيف أصبحنا صديقين. أعتقد أن ذلك كان، مثل كثير من العلاقات، ناجماً عن تلاقي مزيج من الظروف والشراب (من جانبي على الأقل).

كنا معتادين على رؤية بعضنا بصورة منتظمة في حانة قريبة من مكان سكني. وفي إحدى الليالي، تحوَّلت التحيات العادية إلى حوار فيما بيننا. وبدأنا نجلس معاً ونتبادل الأحاديث ونشرب –عصير برتقال لبريندان وشراب لي.

كانت صحبة بريندان سلسة وغير متطلِّبة –الشيء الوحيد تقريباً في حياتي الذي يتصف بهذه الصفات. كانت أسس وجودي المريح في الطبقة الوسطى تتداعى على نحو سريع تحت قدميّ. كان عملي معلَّقاً بخيط، وكنت أصارع لكي أدفع إيجار شقتي. وحين تأخرتُ ستة أشهر عن الدفع، جاء المالك مع أخويه الضخميْن ورموني خارجاً وغيَّروا الأقفال.

فجأةً أصبحتْ خيارات سكني محدودة؛ كأن أختار بين غرفة ذات بقع مريبة على الجدران، وبين شقة في قبو رطب تفوح منها رائحة العفونة ويعيش فوقها ما كان يبدو مثل فرقة رقص. دون ذكر أنني كنت مقيَّداً بالبحث في نوعٍ من الأحياء قد يفكِّر الرجل الوطواط مرتيْن قبل السير في أرجائها في ليلة مظلمة.

في تلك الفترة اقترح بريندان الانتقال للعيش معه.

«اللعنة. لدي غرفة إضافية تهدر الغاز والكهرباء فقط».

«هذا عرض لطيف، لكنني لا أستطيع تحمُّل الكثير فيما يتعلق بالإيجار».

«انسَ أمر الإيجار».

حدَّقتُ فيه وقلت: «لا. لا أستطيع».

رمقني بنظرة ممتعضة ثم قال: «لو كانت أمي العجوز العزيزة هنا لقالت لك (لا يمكنك مقاتلة الذئاب عند بابك الأمامي عندما تكون تصارع أسداً في غرفة نومك)«.

فكَّرتُ في خياراتي الأخرى. انسَ أمر الأسد، لكنني قد أستيقظ ذات يوم فعلاً وأجد جرذاناً تقضم مقلتي عينيّ.

«حسناً. وشكراً».

«اشكرني بتنظيم أحوالك».

«لا يمكن أن تستمر سلسلة خساراتي إلى الأبد».

امتقعَ وجهه لوهلة ثم قال: «من الأفضل ألا تستمر. مما سمعتُ، أنت مَدين لأشخاص لا يأخذون أقساطاً. إنهم يأخذون عظام الركبة».

«سأحلُّ الأمر. سأعيد لك مالك. أعدك».

«من المؤكد أنك ستفعل». يبتسم ابتسامة عريضة. «أنا أستمتع بتدليك ظهر لطيف قبل النوم. لا تخبِّئ زيت التدليك».

أمد يدي إلى علبة الشراب فأجدها فارغة. أجعّدها بيدي وأقف لأجلب واحدة أخرى ثم أقرر أنني بحاجة لزيارة الحمام. أمشي عبر غرفة الجلوس وأنقر على مفتاح مصباح الممر فيشتعل على مضض. أضع قدمي على الدرجة الأولى فتُصدر صريراً، كما هو متوقَّع. بينما أصعد على السلَّم الضيِّق أحاول عدم التفكير في جوليا مورتون وهي تجرُّ جثة ابنها على السلَّم هنا، خطوة مضنية، مترافقة مع صرير السلَّم، تلو الأخرى. جثة صبي في الحادية عشرة من العمر تكون ثقيلة، ووزن الميت يكون أثقل، كما أتذكّر.

الممر بارد. لا توجد تدفئة هنا، ولكن ليس هذا السبب. هذا ليس برداً طبيعياً. ليس البرد الذي اختبرته حين دخلت إلى المنزل للمرة الأولى.

هذا البرد مختلف؛ برد متغلغل –عبارةٌ لم أفكر فيها منذ أن كنت ولداً. ذلك البرد الذي يلتف حول عظامك ويستقر مثل كتلة جليد في أحشائك.

يمكنني سماع صوت أيضاً. خافت لكنه مستمر. صوت سقسقة وحفيف يشبه صوت الهواء في الأنابيب. أتوقف وأصغي السمع. إنه آت من الحمام. أدفع الباب وأجذب حبل المصباح القديم المهترئ فيشتعل المصباح مصدراً أزيز خافت مزعج، مثل بعوضة تحتضر.

البرد أسوأ هنا. والضجيج أعلى أيضاً. ليس هواءً في أنابيب. لا. صوت السقسقة هذا شيء آخر. شيء مألوف. شيء... حي. وهو صادر من المرحاض.

المقعد والغطاء مُنزلان. ليس لأنني متصالح مع جانبي الأنثوي، ولكن لأنني أعاني من فوبيا طفيفة من الثقوب المفتوحة. مصارف، بلّاعات. أية فتحة في الأرض. في الليلة الماضية، طفتُ في أرجاء المنزل قبل الخلود للسرير ووضعتْ جميع السدادات في فتحات أحواض المغاسل. والآن، أمدُّ يدي وأرفع غطاء المرحاض بتردد.

«اللعنة!»

أقفز إلى الخلف بسرعة شديدة لدرجة أنني أكاد أفقد توازني وأقع على الأرض. لكنني أتمكَّن بطريقة ما من الإمساك بحوض المغسلة وأحافظ على توازني. لا أسيطر على مثانتي الممتلئة فتنساب دفقة من البول على ساقي.

غير أنني بالكاد ألاحظ ذلك. ثمة شيء يتحرك داخل حوض المرحاض. إنه يعج بمجموعة كبيرة من أجساد صغيرة سوداء لامعة تسقسق وتتحرك بسرعة داخل الحوض، مثل بحر متحرِّك من البراز.

«يا إلهي».

تجتاحني رعشة اشمئزاز إلى جانب صدى خافت لذكرى غامضة:

إنها الظلال. الظلال تتحرك.

أستند إلى المغسلة، متنفِّساً بصعوبة. خنافس. خنافس لعينة.

بعد لحظة، أتقدَّم وأرفع الغطاء ثانيةً فتزداد الحركة، كأنها تشعر بوجودي. تحاول اثنتان التسلُّق نحو الحافة فأغلق الغطاء بعجلة وأسمع بسعادة صوت سحْقهما.

كيف وصلت هذه الحشرات إلى هنا؟ لابد أن الحوض كان جافاً فجاءت عبر الأنابيب، لكنه أمر غريب مع ذلك؟ أتناول السائل المبيِّض، وأسحب نفَساً عميقاً، ثم أرفع الغطاء مجدداً وأسكب العلبة بأكملها في المرحاض، غامراً الحشرات كلها.

تزداد السقسقة والحركة المنهمكة. يتسلّق بعضها جانب الحوض فأمسك فرشاة التواليت وأرغمها على النزول. ثم أضغط على زر جريان الماء. وإضافة إلى ذلك، أتناول لفافة محارم التواليت وأحشرها في داخل التواليت كي أسدّه.

أجلس على حافة حوض الاستحمام، أو بالأحرى تنهار ساقاي وترتفع حافة حوض الاستحمام لتستقبلني بخبطة قاسية. خنافس. اللعنة، اللعنة، اللعنة. قلبي ينبض بقوة، والعرَق ينضح من جسدي رغم برودة

الجو. أنا بحاجة لمشروب وسيجارة. لكنني بحاجة لأكثر من ذلك؛ أنا بحاجة لحقنة مخدِّر. للمرة الأولى منذ وصولي إلى هنا، للمرة الأولى منذ فترة طويلة، أشعر بأنني بحاجة لشيء يهدِّئ أعصابي ويسكِّن يديَّ المرتعشتين.

أبحث في جيبي عن هاتفي. صحيح أن شركة BT لن تأتي لتركيب الشبكة ذات النطاق العريض حتى الأسبوع القادم، ولكن لديّ G3. وهذا كافٍ. اللعب على الإنترنت هو الخيار المفضَّل الثاني، بل الثالث، مثل مدمن على الشراب يتناول أقراص مخدر الميث عندما تفرغ جميع زجاجات الشراب لديه –حُكم الضرورة.

أفتح صفحة إنترنت. تظهر «فيغاس غولد» بأحرف ذهبية برّاقة ملائمة للاسم. لا تفوتني مفارقة لعب «فيغاس غولد» وأنا جالس على حوض استحمام مغطًّى بالعفن مرتدياً سروال جينز مبلَّلاً بالبول. يحوم إبهامي فوق الرابط.

وفي هذه اللحظة، أسمع صوت تكسُّر شيء ما في الطابق السفلي.

«ما هذا؟»

أنزل على السلَّم الضيِّق، بأقصى سرعة ممكنة بالنسبة لساقي العرجاء، ومنه إلى غرفة الجلوس فتصفعني هبَّة هواء مسائي بارد على وجهي. أنظر فأرى طرفيّ الستارة يتخبَّطان ويتصارعان في خضم الريح المتسلِّلة من فتحة مثلَّمة في نافذة غرفة الجلوس، وشظايا زجاج مبعثرة فوق ألواح الأرضية. أسمع احتكاك عجلات حاداً، وتسارع دوران محرك، وعنيناً شديداً لدراجة آلية صغيرة يتلاشى تدريجياً.

ألمح مصدر الضرر في وسط الغرفة؛ طابوقة ملفوفة بورقة مثبَّتة برباط مطاطي. يا له من شيء مبتكَر.

أمشي نحو الطابوقة، راكلاً شظايا الزجاج من أمامي، ثم ألتقطها وأنزع الورقة. إنها ورقة رقيقة مسطَّرة – يبدو أنها ممزَّقة من كتاب تمارين.

كحال رسائل الترحيب، إنها ليست مُرْضيةً كما ينبغي: اغرب عن هنا أيها الأعرج.

7

تعرف بأنك تتقدَّم في السن عندما ترى عناصر الشرطة يصبحون أكثر شباباً. لكنني لستُ واثقاً مما يعنيه الوضع عندما يصبحون أصغر حجماً.

أحدِّق إلى الأسفل –إلى الأسفل كثيراً– في الشرطية شيريل تيلور، أو هذا ما أظن أنه الاسم الذي ذكَرَتْه. كلامها مقتضب وسلوكها هادئ. ينتابني شعور بأنها تفضِّل عدم التواجد هنا. لعلي أمنعها من سرقة كبيرة، أو سباق شطيرة البطاطا المقلية (*nur yttub–pihc*) المسائي.

«إذن قلتَ إن شخصاً ما قذف الطابوقة على نافذتك في الساعة 8.07 تقريباً هذا المساء؟»

«صحيح».

منذ ساعة تقريباً، أي أن من فعلها رحل منذ وقت طويل الآن.

ولكن، على الأقل سنحت لي الفرصة لتغيير سروالي.

«هل رأيتَ أي شيء؟»

«رأيتُ طابوقة منزلية حمراء كبيرة وسط غرفة جلوسي المكيَّفة حديثاً».

ترمقني بنظرة امتعاض؛ نظرةٌ مألوفة لدي. يبدو أنني أتلقاها كثيراً من النساء.

«قصدتُ أي شيء آخر؟»

«لا، لكنني سمعتُ صوت دراجة آلية صغيرة تُسرع مبتعدةً».

تدوِّن مزيداً من الملاحظات ثم تنحني وتلتقط الطابوقة.

«هل تحتاجين لوضع شيء ما في كيس، أو البحث عن بصمات أصابع؟»

فتجيب وهي تعيدها إلى الأرض ثانية: «هذه آرنهيل، ليس *ISC*».

«آه، صحيح. بالطبع. آسف، ظننتُ لوهلة بأنكِ كنتِ مهتمة بالإمساك بمن فعل ذلك، كائناً من يكون».

تبدو كأنها ستردُّ علي بالمثل لكنها تلجم التعليق الذي كاد أن يفلت منها، وتكتفي بالقول: «الرسالة؟»

أعطيها لها فتتفحّصها وتقول: «ليس جيداً كثيراً بالتهجئة».

فأقول: «في الحقيقة. لا أعتقد أن هذا خطأ. إنه مقصود. من أجل تضليلي».

ترفع أحد حاجبيها الرقيقيْن ثم تقول: «تابعْ».

«أنا معلِّم لغة إنكليزية، ولهذا فإنني أرى الكثير من الأخطاء الإملائية. هذه ليست من الكلمات التي يخطئ فيها التلاميذ. إنهم لا يُسقطون الحرف (أ) هكذا ببساطة».

تفكِّر في الأمر لوهلة ثم تقول: «حسناً. إذن هل يمكنك التفكير في أي شخص يمكن أن يفعل شيئاً كهذا؟ أي أعداء، أشخاص يحملون ضغينة ما».

أوشك على الضحك بصوت عالٍ. ثم أفكّر في الأمر. أنا متأكد تماماً بأن هيرست أو أحد زملائه مسؤول عما حدث. ولكن ليس لدي أي شهود، أو أدلة، ومع الأخذ بعين الحسبان الحوار الصغير الذي دار بيني وبين هاري هذا الصباح (يا إلهي، هذا الصباح فقط؟)، لا أعتقد بأنني أريد تعريض وظيفتي للخطر. ليس الآن، على أي حال.

«سيد ثورن؟»

«لكي أكون صادقاً، لقد انتقلتُ إلى هنا منذ فترة قريبة ولم يُتَح لي الوقت الكافي لأُغضب الكثير من الناس بعد».

«ولكن، يبدو أنك تشتغل على ذلك».

«هذا واضح».

«حسناً، جيد، سوف ننظر في هذا الأمر، ولكن على الأرجح إنهم مجرد أولاد. لقد عانينا من بعض المشاكل مع أولاد من مدرستك من قبل».

«حقاً؟ أي نوعٍ من المشاكل؟»

«المعتادة. تخريب. تعدِّي على أملاك الغير. سلوك غير منضبط».

«آه، هذا يذكِّرني بالماضي».

«إذا شئت، يمكن أن يأتي أحد أفراد الشرطة إلى المدرسة ويتحدث معهم قليلاً حول المسؤولية الاجتماعية، شيء من هذا القبيل».

«هل سيجدي ذلك نفعاً؟»

«آخر مرة فعل شريكي ذلك عاد ليجد جميع عجلات سيارته مثقوبة».

«إذن لا».

طيب، حسناً، إليك رقم الجرائم، على سبيل الضمان. إذا حدثت مشكلة أخرى، اتصلْ بنا على الفور».

«سأفعل».

تتوقف عند الباب. يبدو أنها تفكِّر في شيء ما. ثم تقول: «انظرْ. لا أريد أن أجعل ليلتك أشد سوءاً—»

أفكِّر في الخنافس المسقسقة سريعة الحركة التي وجدتها في المرحاض.

«ستكون قاسية».

«ولكن، هل أخبرك أحد عن هذا المكان؟»

«تقصدين ما حدث هنا؟»

«أنت تعرف؟»

«جرى التطرُّق إلى الأمر».

«ولم يزعجك ذلك؟»

«لا أؤمن بالأشباح».

تتلفَّت حولها دون أن تتمكّن من إخفاء رعشة الاشمئزاز التي تظهر على وجهها فجأةً.

فأسألها: «أنتِ وجدتهما، أليس كذلك؟»

تتردَّد قليلاً قبل أن تجيب: «أنا وشريكي كنا أول من وصل إلى المكان، أجل».

«لابد أن ذلك كان صعباً».

«إنه جزء من العمل. عليك التعامل معه».

«لكنك، مع ذلك، لن ترغبي بالسكن هنا؟»

ترفع كتفيها على نحو طفيف ثم تنزلهما وتقول: «لا يمكنك حقاً تنظيف الدماء. لا تهمُّ كمية السائل المبيِّض التي تستخدمها، أو القوة التي تفرك بها. ستبقى موجودة دائماً حتى لو لم تستطع رؤيتها».

«أمر مريح. شكراً على ذلك».

«أنتَ سألت».

«هل يمكنني أن أطرح سؤالاً آخر؟»

تقول بحذر: «أعتقد ذلك».

«ألا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر لما حدث؟»

«لا وجود لأية إشارة إلى عملية اقتحام، ولا دليل على تورُّط طرف ثالث. صدِّقني، لقد بحثنا».

«وماذا بشأن والد بن؟»

«كان في عشاء مع زبون في تلك الليلة».

«إذن فأنتِ تعتقدين أن جوليا مورتون انهارت ببساطة وقتلت ابنها ونفسها؟»

«أعتقد أنك تطرح الكثير من الأسئلة بالنسبة لشخص لا علاقة له بالأمر».

«مجرد فضول».

«تخلَّصْ منه. لن يجديك نفعاً هنا». تضع دفتر ملاحظاتها في جيبها. «وأنا أعلمتُك بشأن المنزل في حال لم يُطْلعك وكيل الإيجار بكل الحقائق».

«شكراً... لكنني لا أعتقد أن المنزل يمثِّل مشكلة».

«لا». ترمقني بنظرة أخرى، لكنني لا أستطيع تفسيرها تماماً هذه المرة. «أعتقد بأنك على الأرجح محق».

يصل عامل تركيب الزجاج بعد ربع ساعة. يضع لوحاً خشبياً فوق النافذة المكسورة ويُعلمني بأن «هذا سيكلِّف خمسين جنيهاً، وتركيب نافذة جديدة سيستغرق نحو أسبوع».

أقول له بأن هذا جيد. يمكنني العيش بدون الإطلالة على الشارع.

يرمقني هو الآخر بنظرة غريبة. ليس من المعجبين فيَّ.

بعد مغادرته أشرب كأسين آخرين من الشراب، وأدخِّن سيجارة وأنا مستند إلى الباب الخلفي من الخارج ثم أقرر بأن ذلك كافٍ، بل أكثر من كافٍ، بالنسبة ليوم واحد وأعود إلى الطابق العلوي من أجل النوم.

ذهب البرد، ولم تبقَ سوى البرودة الطبيعية للمنزل. أدخل إلى الحمّام بحذر لكن المرحاض ما يزال فارغاً. أنزع لفافة ورق التواليت وأتبوَّل، ثم أغسل وجهي وأنظِّف أسناني بالفرشاة. وبعد ذلك أطفئ المصباح وأغلق الباب.

ثم تخطر لي فكرة أخرى. أنزل مجدداً إلى الطابق السفلي وألتقط الطابوقة وأحملها إلى الحمام ثم أضعها فوق غطاء المرحاض.

على سبيل الاحتياط فقط.

لا أحلم.

بل أُكَوْبِس.

في العادة، يفيد الشراب في هذا الأمر.

ولكن، ليس الليلة.

أنا أصعد على السلَّم في منزل طفولتي، لكنه –كما تجري الأمور في الأحلام– ليس منزل طفولتي؛ ليس تماماً. السلَّم أضيق بكثير وأشد انحداراً وهو ملتفٌّ بشكل حلزوني. أسمع ضجة تحتي في الظلمة؛ صوت سقسقةٍ وحركةٍ سريعةٍ. الظلال تتحرّك في الأسفل. ومن الأعلى، أسمع صوت ضجيج آخر. صوت حاد مريع، كصوت حيوان يتألم تتخلَّله صرخات تقول: «آبي–آيز. آبي–آيز. قَبِّلي الفتيان واجعليهم يبكون».

لا أريد صعود السلَّم ولكن ليس لديّ خيار. كلما أنظر ورائي، أرى بضع درجات أخرى من السلَّم تختفي في الظلمة. الظلال تزحف، مثل البرد، وتقترب مني.

أواصل تسلُّق السلَّم الذي يلتفُّ إلى ما لا نهاية فوقي وبعد ذلك أجد نفسي فجأة على الممر. أنظر خلفي إلى الأسفل فلا أجد السلَّم. لقد ارتفعت الظلال وابتلعته. وهي تتلوّى وتتحرك بقلق على بعد سنتمترات من قدميّ.

هنالك ثلاثة أبواب، جميعها مغلقة. أفتح الباب الأول فأجد أبي في الداخل. إنه جالس على السرير. في الواقع، «جالس» ليست الكلمة المعبِّرة تماماً. إنه يجلس باسترخاء مثل دمية نوابضها نصف مقطوعة. رأسه مسترخٍ على كتفه، كأنه يستريح من عناء كونه مسؤولاً. أوتار لامعة وشرائح عضلية حمراء ذات ألياف بالكاد تبقيه معلَّقاً بجسده. عندما اصطدمت السيارة بالشجرة، أوشكتْ شظيةٌ مثلَّمةٌ من الزجاج الأمامي على فصل رأسه عن جسده.

يفتح فمه فتخرج هسهسة صفيرية غريبة. أدرك أنه اسمي: «جوو–يييييي». يحاول الوقوف فأغلق الباب ثانيةً بقلب ينبض بعنف وساقين ترتعشان. أنتقل إلى الباب الثاني. هذا سيكون أسوأ؛ أعرف ذلك. ولكن، مثل شخصية في فيلم رعب رديء، أعلم بأنني سأفتحه.

أدفع الباب ثم أخطو خطوة إلى الوراء. الغرفة مليئة بالذباب. ذباب أزرق يرتفع على شكل غيمة داكنة تصدر طنيناً. يمكنني رؤية شخصيْن في مكان ما داخلها. جوليا وبن. أو على الأقل، هذا ما أظنه. من الصعب التمييز لأن معظم رأس جوليا غير موجود وبن بلا وجه. مجرد كتلة حمراء وبيضاء من الدم والعظام والغضاريف.

يقفان؛ شخصان مظلَّلان وسط الذباب... ثم أدرك أنهما مكوَّنان من الذباب. وبينما أحدِّق فيهما يتفكّكان ويتدفّقان نحوي فأقذف نفسي خارج الباب وأغلقه بقوة. بوسعي سماع الذباب يضرب نفسه على الباب الخشبي بغضب عارم.

أقول لنفسي في الحلم: استيقظْ، استيقظْ، استيقظْ. لكن لا وعيي لن يفلتني بهذه السهولة. أنتقل إلى الباب الأخير. تمتدُّ يدي وتفتل المقبض فينفتح الباب على مهل. هذه الغرفة فارغة إلا من سريرٍ وعليه آبي–آيز. إنها مستلقية في الوسط بعينين مغمضتين. أمشي نحوها وأرفعها فتنفتح عيناها بسرعة وتتمدَّد الشفتان البلاستيكيتان الزهريتان لترسما ابتسامة: إنها خلفك.

ألتفت فأرى آني واقفة في الباب. إنها ترتدي بيجامتها الوردية الفاتحة المزيّنة بخراف بيضاء صغيرة. الثياب التي كانت ترتديها في ليلة الاصطدام. ولكن، هذا ليس صحيحاً. ليس هذا ما كانت ترتديه أختي حين ماتت.

أقول لها: «ارحلي».

ثم تفتح فمها فتخرج منه مجموعة كبيرة من الخنافس. أحاول الركض لكن ساقيَ العليلة تصطدم بشيء ما فأقع على الأرض. يمكنني سماع طقطقة احتكاك قشرة أجسادها القاسية وسيقانها الصغيرة المنهمكة

بالجري. يمكنني الشعور بتسلقِّها على كاحليَّ وحفْرها في جلدي. أحاول الركل وإبعادها عني بيدي. إنها تزحف مسرعةً على ذراعيَّ ورقبتي، وتدخل إلى فمي وبلعومي. لا أستطيع التنفس. إنني أختنق من أجساد سوداء مقرفة...

أستيقظ متعرِّقاً، ومرتعشاً، ومتخبِّطاً فوق أغطية سريري المتشابكة والملتفّة حول جسدي العاري.

تتسلَّل شظايا من ضوء النهار عبر الستائر نصف المسدَلة وتضرب أجفاني. أنظر بعينين شبه مغمضتين إلى المنبِّه الذي يرنُّ في نفس اللحظة مُحدثاً انفجارات من العذاب في رأسي النابض.

أتدحرج وأنا أَئن. حان وقت المدرسة.

8

«سيدي؟»

«نعم يا لوكاس؟» أشير بتعب إلى الذراع الملوِّحة في الهواء، وقبل أن يتمكَّن من قول أي شيء، أرفع يدي أنا أيضاً.

«إذا كان هذا سؤال آخر حول [برنامج] تيندر، فأنا أعتقد أننا غطَّينا حقيقة أن تطبيقات المواعدة لم تكن موجودة في زمن روميو وجولييت».

ترتفع يد أخرى بسرعة.

«جوش؟»

«ماذا بشأن سنابتشات؟»

ينفجر الصف بالضحك، وأكبت بدوري ابتسامة.

«حسناً. لقد أعطيتني فكرة».

«صحيح سيدي؟»

«أجل. انتقِ أحد الفصول التي قرأناها وأعد كتابته كما لو أنه مكتوب في الزمن الحالي. أَوْلِ اهتماماً خاصاً لأوجه الشبه وموضوعي المأساة والنكبة».

ترتفع أياد أخرى في الهواء فأنتقي واحدة.

«أليشا؟»

«ماذا تعني أوجه الشبه؟»

«شيء مشابه أو مكافئ لشيء آخر».

«ما هي النكبة؟»

«هذا الصف».

يُقرَع الجرس من أجل الغداء. أحاول ألا أُبدي أي تأثُّر بالضجيج.

«حسناً. اخرجوا من هنا. أتطلَّع لقراءة المقالات غداً».

تتزحزح الكراسي وتُقرقع مع هروب الأولاد السريع من الصف. أياً تكن درجة المتعة التي تعطي بها دروسك أو درجة حماسة الأولاد، فإن رنين الجرس تجعلهم يخرجون بعجلة من الصف كمساجين أُطلق سراحهم من السجن.

أبدأ بجمع كتبي ووضعها في حقيبتي. يبرز رأس مألوف داكن الشعر من باب الصف.

«مرحباً!»

«أهلاً».

تدخل بث وتجلس على حافة منضدتي. إنها ترتدي اليوم تيشيرت كُتب عليه «نيرفانا» وجينزاً ممزَّقاً وحذاءً من نوع فانز.

«سمعتُ أن شخصاً ما رمى طابوقة على نافذتك الليلة الماضية؟»

«تنتقل الأخبار بسرعة في آرنهيل».

«أجل، لكنها لا تغادرها أبداً».

أضحك ثم أقول: «من أخبرك؟»

«أولاد عم أحد المعلّمين المساعدين يعملون بدوام جزئي مع امرأة يعمل شقيقها لصالح الشرطة».

«أووووه. مصادر أفضل من السي إن إن».

«أكثر دقة، في العادة».

ترفع حاجباً فأفترض أنه دوري لتأكيد أو إنكار التقارير.

أرفع كتفيَّ وأنزلهما ثم أقول: «أظن أن شخصاً ما لم تعجبه خططي التدريسية».

«هل تعتقد أنه كان واحداً من الأولاد هنا؟»

«يبدو ذلك الأكثر ترجيحاً».

«لديك مُشتبَهاً رئيسياً؟»

«يمكنك قول ذلك». أتردد قليلاً. «جيريمي هيرست».

«أوه».

«لا تبدين مستغربة».

«القديس جيريمي؟ لا. سمعتُ أنكما تشاجرتما».

«لديكِ حاسة سمع عظيمة بالفعل. إذا سمعتِ يوماً ما عن أرقام اليانصيب الرابحة...»

ترسم ابتسامة عريضة على فمها ثم تقول: «وكأنني سأخبرك».

«إذن ماذا تعرفين عن–»

نسمع طرقة على الباب نصف المفتوح فنلتفت كلانا. تظهر فتاة زائدة الوزن قليلاً ذات شعر مخصَّل باللون الأشقر وتضع على وجهها الكثير من مساحيق التجميل بالنسبة ليوم مدرسة، ثم تقول: «هل هذا صف السيد أندرسون؟»

تجيبها بث: «لا، الباب المجاور».

«تمام». ثم تغادر مسرعةً.

فتصيح بث بعد مغادرتها: «على الرحب!» ثم تلتفت مجدداً نحوي وتقول: «لماذا لا نأخذ هذا الحوار إلى خارج الصف؟ أعتقد أنه وقت الغداء».

«الكافتيريا؟»

«تباً لها؟ كنتُ أفكر في الحانة».

الكراسي والمقاعد البالية اختفت. والسجادة المسبِّبة للصداع النصفي بألوانها العديدة استُبدلت بألواح أرضيات خشبية لامعة. وهنالك مصابيح رفيعة الذوقة مرتبة على عتبات النوافذ، ومجموعة من زجاجات الشراب الفاخرة متوفرة في المشرب. ويوجد أيضاً قائمة وجبات «غاسترو بَبْ» جديدة رائعة.

في الحقيقة، لا شيء من هذا الكلام صحيح.

لم تتغير حانة «فوكس» على الإطلاق، ليس منذ آخر مرة جلستُ فيها، قبل خمسة وعشرين عاماً. صندوق الموسيقا (*xobekuj*) القديم نفسه يقبع في الزاوية، ولعله محشوٌّ بالأغاني القديمة ذاتها. حتى إن بعض الزبائن، على ما يبدو، لم يتغيروا، أو ينتقلوا إلى مكان آخر، منذ القرن الماضي.

تنتبه بث إلى أنني أتفحَّص الحانة فتقول: «أعرف. أنا آخذك إلى أفضل الأماكن».

«في الحقيقة، كنت أفكر للتو بأنه قد يكون بوسعك أن تشمِّي رائحة قيئي في المراحيض».

«جميل. نسيتُ أنك نشأتَ هنا. أعني، ليس هنا حرفياً».

«في الواقع، لا أعلم».

«إذن فهذه كانت الحانة التي تشرب فيها دائماً؟»

«نوعاً ما. من الناحة الرسمية، لم أكن كبيراً بما يكفي للشرب. وبشكل غير رسمي... لم يكن المالك صارماً جداً بخصوص هذا النوع من الأشياء».

ألتفت إلى المشرب، نصفَ متوقِّعٍ رؤية جيبسي لا يزال يقدّم المشروبات خلفه، غير أنني أرى شابة تضع قرطيْن دائرييْن ضخميْن، ذات شعر معقود على شكل ذيل فرس مشدود بقوة لدرجة أن حاجبيها يبدوان كأنهما معلَّقان رغماً عن إرادتهما.

تقول لي بوجه عابس: «ماذا تطلبان؟»

أنظر إلى بث فتقول: «كوكا دايت فقط، شكراً».

أنظر بتوْقٍ إلى المشروبات ثم أقول على مضض: «اثنان كوكا دايت من فضلك. آه، وقائمة الوجبات».

فتقول الساقية خلف المشرب: «لفافة جبن، لفافة لحم فخذ، فطيرة لحم مدهنة، أو بطاطا مقلية».

أقول لها: «الشيف هيستون بلومينثال يزقزق بحذائه الجلدي».

تحدِّق فيَّ وهي تمضغ علكتها.

تقول بث: «بطاطا مقلية ولفافة جبن من فضلك».

«نفس الشيء، شكراً».

«عشرة جنيهات وستون بنساً».

قلْ ما شئت عن فظاظتها، لكن حسابها الذهني ليس سيئاً.

تبدأ بث بالبحث في حقيبتها.

فأقول: «لا، لا عليكِ. سأدفع ثمن هذه». أُدخل يدي في جيبي وأعبس. «اللعنة. لقد تركتُ محفظتي في المنزل».

فتقول بث: «لا داعي للقلق. هذا لن يُفلس البنك».

أبتسم مع قليل من الشعور بالذنب. قليل فقط.

ندفع ونجد مكاناً للجلوس –بدون صعوبة بالغة– في زاوية قريبة من إحدى النوافذ.

أقول لها وهي تأخذ رشفة من كأسها: «كنتِ ستخبرينني بشأن هيرست؟»

«صحيح. في الحقيقة، ربما ليس هناك الكثير لإخبارك به. الصبي ذكي ورياضي ووسيم ووغد سادي صغير. وهو يفلت بأفعاله بسبب أبيه».

«ستيفين هيرست».

«هل تعرفه؟»

«كنا نرتاد المدرسة معاً».

«آه، صحيح».

«سمعتُ أنه في المجلس الآن؟»

«أجل. وأنت تعرف نوع الأشخاص الذين يصبحون أعضاء في المجلس–»

«أشخاص يريدون بصدق مساعدة مجتمعهم؟»

«وأوغاد ينتشون لوجودهم في موقع سلطوي ويستخدمونه لدعم غاياتهم الخاصة».

«يا إلهي، لا يمكنني التفكير في أي من النوعين يمكن أن يكون ستيفين هيرست».

«أجل، إنه خبيث. ولكن، لعلك تعرف ذلك مسبقاً. هل سمعتَ بشأن الخطط المتعلقة بمنجم الفحم؟»

«يريد المجلس تحويله إلى متنزّه ريفي عام؟»

«صحيح. في الواقع، يعود أحد أسباب تأخر البدء به إلى هيرست».

«كيف؟»

«رسمياً، بسبب صعوبات في التمويل. وبشكل غير رسمي، يملك هيرست روابط مع شركة عقارية تريد بناء مساكن على الأرض بدلاً من ذلك».

«مساكن؟ على موقع منجم قديم؟ هذا سيستغرق سنوات كي يوافق المجلس... آه، فهمت».

«صحيح. بشكل أساسي، هيرست الابن نسخة عن أبيه. والأب في مجلس إدارة المدرسة، لذا في كل مرة يفعل جيريمي شيئاً ما كان سيؤدي إلى استبعاد أي ولد آخر من المدرسة لو كان مكانه، يتدخّل هيرست الأب ويُجري حديثاً مع هاري، ربما بشأن تمويل المركز الرياضي الجديد أو مبنى العلوم الإضافي الذي نحتاجه، واحزرْ ماذا يحدث؟ لا شيء».

أشعر بغضب مألوف يثور في داخلي. لم يتغيَّر أي شيء.

تقترب «ساقية العام» مجدداً وهي تلوّح بالسكاكين والشوك كما لو كانت أسلحة ثم تضعها على الطاولة بغير اكتراث.

«البطاطا المقلية ستستغرق دقيقة. نفد لدينا الكَتْشَبْ».

«لا بأس».

تحدِّق فيَّ لوهلة أطول من الحد المريح فأتساءل إن كانت كلمة «لا بأس» أهانتها بطريقة ما. ثم تستدير وتعود أدراجها بخطوات متصلّبة غاضبة.

تنظر بث إليّ ثم تقول: «أنت تعرف حقاً كيف تصنع صداقات وتؤثر في الناس، أليس كذلك؟»

«سحري الطبيعي؟»

«لا تسخر من نفسك».

أرتشف من الكوكا دايت ثم أقول: «كانت جوليا مورتون مرشدة هيرست الاجتماعية السنة الماضية، صحيح؟»

تهز برأسها مؤكِّدة وتقول: «لكنني لا أستخلص أي شيء من ذلك».

«حقاً؟»

«لا. كان بوسع جوليا التعامل مع هيرست. لم تكن تقبل أي هراء وهو لم يكن يقدِّم لها الكثير. كانت كعكة قاسية. لم تكن تتفتّت بسهولة».

أقول في داخلي: ومع ذلك انهارت. لقد ضربت ابنها حتى الموت. ولكن، لماذا لم تستخدم البندقية؟ لحظة جنون؟ أم شيء آخر؟

تقول بث كأن بمقدورها قراءة أفكاري: «لهذا السبب، ما حدث ليس منطقياً على الإطلاق».

«قلتِ إنها كانت مكتئبة».

«كانت تعاني من اكتئاب، في الماضي».

«لكن الاكتئاب لا يزول ببساطة. لقد توقفتْ عن تناول أدويتها. ربما حدث لها انتكاسة، انهيار؟»

تتنهَّد ثم تقول: «لا أدري. ربما. وربما، لو أنها قتلت نفسها فحسب، فمن الممكن أن أفهم ذلك. ولكن، أن تقتل بن؟ كانت مولعة به. لن أفهم ذلك أبداً».

«كيف كان بن؟»

«ذكي بما يكفي، كثير من الأصدقاء. ربما كان سهل الانقياد. وقد أوقعه ذلك في مشاكل بضع مرات. لكنه كان ولداً جيداً. إلى أن فُقد».

«بن فُقد؟ متى؟»

«قبل بضعة أشهر من موته. ظهر بعد أربع وعشرين ساعة، وبعد أن خرجت القرية بأكملها بحثاً عنه. لم يقل أين كان. تغيَّرتْ شخصيته، لم يعد كما كان».

أفكِّر في الأمر. فُقد. لكنه عاد.

«لم أقرأ أي شيء حول هذا الأمر».

ترفع كتفيها ثم تقول: «كُنس تحت السجادة مع كل ما حدث بطريقة ما. على أي حال، بعد ذلك...» –تصمتُ قليلاً– «أصبح مختلفاً».

«كيف؟»

«انطوائي، شارد. توقفَ عن قضاء الوقت مع أصدقائه، أو توقفوا هم عن إمضاء الوقت معه. يبدو هذا بشعاً، ولكن كانت تفوح منه رائحة كريهة، كأنه لم يكن يغتسل. بعد ذلك، تورَّط في شجار وآذى الولد الآخر بشدّة. هنا أَخْرَجَتْه جوليا من المدرسة. قالت إنه كان يعاني من (مشكلات عاطفية) بسبب الطلاق».

«لماذا لم يذكر أحد هذه المسألة؟»

«هل أنت جاد؟ من سيقول أي شيء سيئ عن ولد ميت؟ إضافة إلى ذلك، ألقى الجميع باللائمة على جوليا بالنسبة لسلوكه. كانت أمه مجنونة. لابد أن كل شيء كان بسببها، صحيح؟»

أفكِّر في ذلك المصدر المجهول من المدرسة. أريد أن أطرح مزيداً من الأسئلة، لكن نادلتنا الفاتنة تعود إلى الطاولة في اللحظة المناسبة تماماً.

«لفافات الجبن، بطاطا مقلية».

«شكراً».

تخبط الطبقيْن على الطاولة وتحملق فيَّ مجدداً.

أقول: «عفواً. هل هناك مشكلة؟»

«أنت تستأجر منزل مورتون؟»

«أجل».

«أتعرف ماذا حدث هناك؟»

يبدو كأنه سؤال الأسبوع.

«أجل».

«إذن، من تكون؟»

«عفواً؟»

«غول؟»

«أمم، لا؟ في الحقيقة، أنا معلِّم».

«صحيح».

تفكِّر في ذلك قليلاً ثم تمدُّ يدها إلى جيبها وتُخرج بطاقة وتعطيها إلي.

لأنني لا أرغب بإثارة مزيد من الغضب، آخذها وأقرأ ما كُتب عليها: «داوسون لنفض الغبار».

«ما هذه؟»

«أمي. إنها عاملة تنظيف. اعتادت على تنظيف المنزل للسيدة مورتون. قد ترغب في الاتصال بها».

لعلها أغرب خطة مبيعات رأيتها في حياتي.

«حسناً، لستُ واثقاً من قدرتي على تحمل نفقة عاملة تنظيف الآن، ولكن شكراً».

«كما تشاء».

تعود أدراجها ثانيةً. أنظر إلى بث ثم أقول: «واو».

«أجل، إنها–»

«فظة؟ غريبة؟ مخيفة؟»

«في الحقيقة، لورين فيها شيء من كل هذا. الحوارات الاجتماعية الطبيعية جداً يمكن أن تكون شاقة بالنسبة إليها».

«واضح. ووظَّفَها شخص ما لتكون نادلة؟»

«ألا تعتقد أن كل شخص ينبغي أن يُعطَى فرصة متساوية؟»

«أقول فقط إن صناعة حُسن الضيافة ليست المهنة الأمثل».

«انتقادي».

«عَمَلاني».

« طماطم، بندورة».

«لا، إنها بندورة. أنا انتقادي جداً في هذا الأمر».

ترسم ابتسامة عريضة. أرى إنها تفعل ذلك كثيراً. تجعلني أريد فعل الشيء ذاته؛ أن أستخدم عضلاتٍ لم أمرِّنها منذ وقت طويل.

أقول وأنا أضع البطاقة في جيبي: «على أي حال، كنتِ تقولين؟»

توجِّه شوكتها نحوي وتقول: «لا. دورك. لماذا استأجرتَ منزل مورتون؟»

«أنتِ أيضاً؟»

«في الحقيقة، إنه أمر غريب بعض الشيء».

«منزل مناسب، رخيص. ومنذ سنوات لم يكن منزل مورتون بل كان يخص سيدة مسنَّة بعض الشيء اعتادت رمي فتات الخبز للطيور وشتم من كان يمرُّ على دراجته الهوائية من أولاد المدرسة. إنه مجرد مبنى. له تاريخ، مثل معظم المباني».

رغم أن معظم الأماكن لا تغزو الخنافس أنابيب تصريف مراحيضها. أكبتُ قشعريرة اشمئزاز.

تنظر بث إلي بفضول ثم تقول: «على ذكر التاريخ، أليس غريباً العودة إلى هنا؟»

أرفع كتفيّ ثم أقول: «غريب دائماً العودة إلى المكان الذي نشأتِ فيه».

«دون أن أكون مضحكة، ولكنني لا أتخيّل أبداً أنني أرغب بالعودة إلى آرنهيل. حالما تسنح لي الفرصة، سأهرب».

«كم مضى على وجودك هنا؟»

«سنة، ويوم، وحوالي» –تتحقّق من ساعتها– «اثنتي عشرة ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة–»

«أنتِ لا تحصين فعلاً؟»

«بل أحصي حقاً».

«في الواقع، أعرف أنها صغيرة، ومعزولة، ومتخلفة بعض الشيء».

«ليس هذا...»

«ماذا إذن؟»

«هل ذهبتَ يوماً إلى ألمانيا؟»

«لا».

«ذهبتُ مرةً، بعد الجامعة مباشرة. كان لدي صديقة تعمل في برلين. أخذتني إلى أحد معسكرات الاحتجاز».

«ممتع».

«كان يوماً مشمساً جميلاً. السماء زرقاء، الطيور تزقزق، والأبنية مجرد أبنية، أليس كذلك؟ لكن المكان كان لا يزال يملك طابعاً مميِّزاً، صحيح؟ كأنه كان موجوداً في الهواء نفسه، في الذرّات. تعلمُ أن شيئاً رهيباً حدث هناك، حتى دون أن تُخبَر بذلك. حتى أثناء تجوُّلك مع المرشد، وأنت تهز برأسك وملامح الحزن بادية عليك، جزء منك يريد الهرب والصراخ».

«هذا هو رأيك في آرنهيل؟»

«لا. أريد أن أعود إلى ألمانيا». تضع قطعة بطاطا في فمها ثم تسألني: «ما هي المشكلة بينك وبين ستيفين هيرست؟»

«دوري أنا؟»

«أشعر أنكما لم تكونا صديقين تماماً في تلك الأيام؟»

«ليس تماماً».

«حدث شيء ما؟»

أغرز قطعة بطاطا بشوكتي ثم أقول: «الأشياء المعتادة المتعلقة بالفتيان المراهقين فقط».

«صحيح».

توحي نبرتها بأنها لا تصدِّقني، لكنها لا تلحُّ في السؤال.

نمضغ طعامنا. البطاطا جيدة، لكن مذاق لفافة الجبن يشبه البلاستيك، كأن شخصاً ما حاول جعل البلاستيك أقلَّ لذَّة.

ثم أقول: «أخبرني هاري أن زوجة هيرست مريضة؟»

تهز برأسها مؤكِّدةً: «سرطان. وأياً تكن مشاعرك نحو هيرست فلابد أن هذا يُشعرك بالشفقة».

«أجل».

وفي بعض الأحيان، يحصد المرء ما زرع.

«هل هما متزوجان منذ وقت طويل؟»

«حبيبان من أيام المراهقة» –تنظر إلي– «في الواقع، إذا ذهبتَ إلى المدرسة مع هيرست، فقد تتذكّرها».

«ذهبتُ إلى المدرسة مع الكثير من الأشخاص».

«اسمها ماري».

يتباطأ الزمن ثم يقف.

«ماري؟»

«أجل. لا يمكنني إخبارك باسم عائلتها، أنا خائفة».

ليست بحاجة إلى ذلك. تتحوَّل قطعة أخرى من قلبي المحطَّم إلى غبار.

أقول لها: «إنه جيبسون. ماري جيبسون».

نشأنا أنا وماري في الشارع نفسه، ووالدتانا كانتا صديقتين، لذا فقد كنا نُترَك معاً كثيراً عندما كنا صغيرين كي نلعب بينما كانتا تحتسيان الشاي وتثرثران. كنا نلعب لعبة الإمساك والاستخباء والبحث، ونجلس على حافة الرصيف ونأكل آيس كريم 99 عند مجيء شاحنة الآيس كريم. كان هذا قبل ولادة آني، لذا أعتقد أننا كنا في سن الرابعة أو الخامسة في ذلك الحين.

كنت أعشق ماري بهدوء، وهي كانت تتحمّلني بهدوء –الصبي الوحيد الذي كان يماثل عمرها في الشارع. لكنها في المدرسة كانت تتركني لتلعب مع رفاق لعب يتمتعون بشعبية أكبر. أعتقد أنني كنت أعتبر ذلك قَدَري، فماري كانت حلوة ومرحة وأنا كنت ولداً غريباً منعزلاً لا يحبه أحد.

مع بلوغنا المرحلة الثانوية، بدأتُ ألاحظ أن ماري كانت أكثر من حلوة بقليل؛ كانت جميلة. كان شعرها البني اللامع قد أصبح قصيراً

رجراجاً، بعد أن كان مضفَّراً في صغرها -أحياناً كانت تجعِّده مثل بطلتها مادونا. وكانت ترتدي سراويل جينز باهتة اللون وبلوزات فضفاضة تصل أكمامها حتى أصابعها. وكانت ترفع حزام تنُّورتها إلى الأعلى فتحوم فوق ركبتيها كاشفةً عن لمحة معذِّبة من اللحم المشدود ما بين ثنية حافة التنورة وجوربها الواصل إلى ما فوق الركبة.

بالطبع، كانت ماري في ذلك الحين بالكاد تلاحظ وجودي.

لم تكن فظة أو قاسية -ليس بشكل متعمَّد على الأقل. في بعض الأحيان، كانت تمرُّ بجانبي على الطريق وتبدو كما لو أنها ترى شخصاً تتذكَّره بغموض أو لا تستطيع تمييزه فتمنحني «هاي» عابرة تجعلني أطير فرحاً لساعات، لمجرد أنها عرفتني.

كثيراً ما كانت آني تحاول مضايقتي بقولها: «أووه، انظر. إنها حبيبتك». ثم تصدر أصوات قُبَل وتضيف: «جُوي وماري، جالسان عند شجرة، يتبادلان القُبَل».

وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي أنزعج فيها بشدة من آني، ربما لأنها كانت تنقر وتراً حسّاساً. لم تكن ماري حبيبتي، ولم يكن من الممكن أن تكون حبيبتي. الفتيات مثل ماري لا تخرجن مع فتيان مثلي – نحيلون، غير اجتماعيين، يقرؤون مجلات مصَّورة ويلعبون ألعاب الكمبيوتر– بل مع فتيان لائقين يلعبون كرة القدم والرُغبي ويتحلَّقون في باحة المدرسة، يبصقون ويتلفّظون بألفاظ نابية من دون سبب.

فتيان مثل ستيفين هيرست.

بدآ الخروج معاً في السنة الثالثة. بطريقة ما، كان ذلك محتوماً فهيرست كان أزعر القرية وماري كانت الفتاة الأجمل في المدرسة. على هذا النحو كانت تجري مثل هذه الأمور. لم أشعر بالغيرة تماماً. في الحقيقة، ربما قليلاً. فحتى في ذلك الحين، كنت أعلم أن ماري أفضل من هيرست؛ أذكى، وألطف، وبخلاف الكثيرات من الفتيات في مدرستنا، كانت تملك طموحاً أكبر من مجرد الزواج وإنجاب أطفال.

عندما وجدتُ نفسي مقبولاً في زمرة هيرست –وبدأتْ ماري تلاحظني مجدداً– أخبرتني بأنها تريد الذهاب إلى الجامعة ودراسة تصميم الأزياء لأنها كانت جيدة في الفنون. كانت تحلم بالانتقال إلى لندن، وتخطط لإعالة نفسها من خلال عرض الأزياء لبعض الوقت. لقد خططتْ لكل شيء. ولم تكن لترضى أبداً بالبقاء في مكبٍّ نفايات مثل آرنهيل. كانت ستركب في أول حافلة مغادرة –الحافلة التي تغادر إلى مكان بعيد– حالما تسنح لها الفرصة.

غير أنها لم تفعل. لقد تغيَّر شيء ما. شيء ما منعها، انتزعها من أحلامها، وداس على تلك الطموحات وحوَّلها إلى تراب. شيء ما أبقاها هنا.

أو شخص ما.

أقف عند زاوية شارعي القديم، وأحدِّق في الطريق وأنا أدخِّن. كنت أنوي العودة مباشرة إلى المنزل بعد المدرسة، ولكن يبدو أن لاوعيي يفكِّر في أشياء أخرى.

تغيَّر الشارع، ولم يتغيَّر. نفس المنازل المبنية من الطابوق الأحمر، تقف كتفاً إلى كتف، تواجه بعضها بتحدٍّ عبر الشارع كما لو أنها تستعد للقتال. ولكن، مع إضافات جديدة –أطباق أقمار اصطناعية، ونوافذ سقفية، وأبواب ونوافذ عازلة للصوت. وهناك عدد أكبر من السيارات مركونة على امتداد الرصيف الضيِّق. سيارات غولف لامعة، وسيارات رباعية الدفع، وسيارات صغيرة الحجم. في أيامي، لم تكن جميع العائلات تملك سيارة، وبالتأكيد لم تكن جديدة.

بعض الأشياء تبقى على حالها. مجموعة من الشبان يتحلَّقون حول دراجة نارية نصف مفكَّكة، وهم يدخِّنون ويشربون من علب شراب كارلسبيرغ. بضع كلاب تنبح بصوت عال وبلا توقف. موسيقا ثقيلة الإيقاع ضعيفة اللحن قليلة الكلمات تنساب من إحدى النوافذ. مجموعة من الفتيان يلعبون بالكرة.

منزلي القديم يقع في منتصف الشارع، بعد بضع منازل من محل الميكانيكي الهاوي، وقبل بضع منازل من منزل عائلة رووني المقلِّدة. من

بين جميع المنازل، يبدو منزلي بأنه الأقل تغيُّراً. نفس الباب الخشبي المطليّ بالأسود الذي أذكر، رغم استبدال المطرقة النحاسية القديمة بواحدة فضية أكثر عصريةً. البوابة الحديدية ما تزال مائلة قليلاً، وهناك بضع قرميدات مفقودة من السطح، والجدار حول الواجهة بحاجة لترميم.

كانت غرفتي تقع في الخلف، بجوار غرفة آني، الغرفة الصغيرة المخصصة للتخزين. عندما كنا صغاراً، كنا معتادين على الطرْق على الجدر بيننا قبل الخلود للسرير. ولاحقاً، بعد عودتها، أصبحت أستلقي في غرفتي واضعاً سماعتي الأذنين والأغطية فوق رأسي كي لا أضطر إلى سماعها.

باعت أمي المنزل بعد فترة قصيرة من خروجي من المستشفى – بعد الحادث– بحجة أننا كنا بحاجة إلى مكان أسهل للحركة بالنسبة لي، فقد كنتُ ما أزال أستعمل العكازيْن. ولم تكن الشرفة الضيِّقة بدرجاتها شديدة الانحدار عملية بالفعل.

لم يكن هذا هو السبب الحقيقي، بالطبع، بل لأنه يحوي الكثير من الذكريات، وجلُّها سيئة. اشترت أمي بيتاً مكوَّناً من طابق واحد على مستوى سطح الأرض غير بعيد عن منزلنا الأول، وعشنا فيه معاً إلى أن بلغتُ الثامنة عشرة. وبعد ذلك، بقيتْ أمي فيه عشر سنوات إلى أن أخذوها إلى المستشفى كي تموت، في سن الثالثة والخمسين فقط. قالوا إنه سرطان الرئة، ولكن ليس هذا كل شيء، فقد مات جزء من أمي في ليلة الاصطدام، واستغرق الباقي بعض الوقت ليلحق به.

أستدير على عقبيَّ. الضوء بدأ يخفت الآن والهواء يزداد برودة، وإذا بقيتُ هنا مدة أطول من ذلك، فمن الممكن جداً أن يتصل أحدهم بالشرطة. وآخر شيء أريده هو لفت الانتباه إلى نفسي. أرفع ياقة سترتي وأشرع في العودة من حيث أتيت.

ثمة عبارة يتشدَّق بها الناس –في العادة، أشخاص يريدون الظهور بمظهر الحكيم والعاقل– حول استحالة الهرب من نفسك أياً يكن المكان الذي ترتحل إليه.

هذا هراء. ابتعدْ بما يكفي عن العلاقات التي تقيِّدك، والأشخاص الذين يعرفونك، والمناظر المألوفة، والأشياء الروتينية التي تشدُّك إلى هوية معينة، وستتمكّن من الخلاص من نفسك بسهولة، لبعض الوقت على الأقل. النفس ليست سوى بنية. يمكنك تفكيكها، وإعادة تركيبها من جديد، وبناء نفس جديدة لك.

شريطة ألا تعود، وإلا فستسقط النفس الجديدة مثل ثياب الإمبراطور الجديدة، وتتركك عارياً ومكشوفاً أمام العالم ليرى كل عيوبك القبيحة وأخطائك المشينة.

لا أقصد العودة إلى الحانة، لكنني أذهب إليها بطريقة ما. أقف في الخارج لبضع دقائق، منهياً السيجارة التي أدخنها، ومحاولاً إقناع نفسي بأنني لن أدخل. قطعاً لا. لستُ بحاجة لبدء يوم آخر في المدرسة وأنا أعاني من آثار الثمالة. سأعود إلى المنزل وأعدُّ بعض الطعام وأنام باكراً. أخمد سيجارتي بحذائي مهنئاً نفسي على تعقُّلي، ثم أدخل.

الحانة مختلفة عما كانت في وقت الغداء. في الواقع، الكثير من الحانات تكون كذلك؛ تتغيّر في الليل. إنها أكثر عتمة بمصابيحها المغطّاة القديمة التي تبث بُرَكاً من الإضاءة الضبابية. حتى الجو يبدو –إذا كان ذلك ممكناً– أقل ترحاباً. والرائحة مختلفة أيضاً. إنها أقوى، ولو لم أكن أعرف أنه غير قانوني، لأقسمتُ بأن بعض الأشخاص كانوا يدخّنون هنا مؤخراً.

وهي أشد ازدحاماً أيضاً. هناك بضعة شبّان يقفون حول المشرب وبأيديهم كؤوس كبيرة من الشراب، رغم وجود الكثير من الكراسي الشاغرة. إنه السلوك التملُّكي للرجل المحلي الثابت. إنه يحاول امتلاك الأرض، مثل الكلب الذي يبول على شجرة (ولا أستغرب إن كانوا قد فعلوا ذلك على المشرب أيضاً).

بقية الطاولات يشغلها رجال ونساء أكبر سنّاً يجلسون بظهور مقوَّسة فوق كؤوس شرابهم مثل حيوانات تحرس فريسة اصطادتها. يضع الرجال خواتم عليها نقوش ويرتدون قمصاناً مرفوعة الأكمام تكشف عن

أوشام رمادية غير واضحة الحدود. وجميع النساء ذوات شعر مخصَّل باللون النحاسي وأذرع مغضَّنة تبرز من بلوزات بلا أكمام رديئة الذوق.

أعرف حانات كهذه، وليس من أيام طفولتي فقط. قد تخدع نفسها في مدن أكبر بكونها أكثر عصريةً بقليل، لكن الزبائن والجو متماثلان. إنها ليست حانات ملائمة لتناول وجبات عائلية أو شرب كأس من الشراب البارد مع حبيبتك. إنها حانات للسكان المحليين، حانات للسكارى، وفي بعض الحالات، حانات للمقامرين.

أتجه نحو المشرب محاولاً ألا أبدو بأنني غير مُنتمٍ إلى المكان. صحيح أنني أعرف هذا النوع من الحانات، لكنني لا أزال غريباً هنا –رغم نشأتي في القرية. لا يمكنني تشبيه الوضع تماماً بانفتاح بابٍ متأرجحٍ لمشرب فاخر وتوقُّف عازف البيانو عن العزف، لكنني أقسم بأن الضجيج العام للمحادثات يتوقف، لوهلة، وتشخص الأعين نحوي أثناء سيري نحو المشرب.

الآنسة المخيفة الصغيرة لا تعمل الليلة. يوجد بدلاً منها رجل آخذ بالصلع مع أكياس سوداء تحت عينيه وعدة أسنان مفقودة تعبس في وجهي.

«ماذا يمكنني أن أقدم لك؟»

«أمم، كأس شراب، من فضلك».

يشرع في صبّ الكأس بصمت، فأشكره وأدفع، ثم أمسح القاعة بنظري مجدداً فأجد طاولة فارغة في زاوية بعيدة. بعد انتهائه من ملء الكأس أمشي نحوها وأجلس. أحمل كتبي المدرسية معي، لذا أُخرجها وأقوم ببعض التقييم. بالرغم من نوعية العاملين على الخدمة والإضاءة والرائحة والديكور، إلا أن الشراب جيد لدرجة أنني أنهي كأسي بسرعة أكبر مما كنت أنوي.

أعود إلى المشرب فأجد الساقي في الجانب البعيد منه. من الواضح أنه خضع لعملية تغيير عجائبية للشخصية فهو يبتسم ويضحك مع

مجموعة من الرجال لاحظتهم عند دخولي. في الواقع، إنه يبدو اجتماعياً جداً لدرجة أنني أتساءل لوهلة إن كان لديه توأماً مطابقاً.

أقف وأنتظر. يلتفت أحد الشبان نحوي ويقول شيئاً ما فيضحك الساقي بصوت أعلى ويواصل الحديث. أنتظر أكثر محاولاً أن أبدو هادئاً وغير منزعج. يتابع حديثه. أنحنح حنجرتي بصوت عالٍ فينظر إلي وتختفي ابتسامته من وجهه ثم يمشي على مضض في اتجاهي، ويلحق به شابان كما لو أنهما يُجرَّان بواسطة قوة مغناطيسية غير مرئية.

أرفع كأسي الفارغ وأقول له: «شكراً» –على قيامك بعملك أخيراً– «شراب آخر، من فضلك».

يتناول كأساً ويضعه بانزعاج تحت المضخة.

أدرك أن الشابيْن أصبحا قريبيْن مني على نحو غير مريح. أحدهما قصير، ممتلئ الجسم، حليق الرأس، ولديه كُمٌّ من الأوشام. أما الآخر، فأطول منه قامةً، لكنه نحيل، وذو بشرة سيئة، وتسريحة شعر ملمَّعة بالجِلْ اعتقدتُ أنها انقرضت مع الجوارب البيضاء والسراويل القصيرة. لم ينتهكا

حيِّزي الشخصي بعد. إنهما يقفان عند الحدود فقط. يمكنني شم الرائحة الكريهة لعرَق نتن حُجبتْ جزئياً فقط بمزيل رائحة رخيص. ثمة شيء مألوف على نحو غريب بخصوص هذين الشابين، أو لعل خطر المواجهة هو المألوف.

بينما أراقب امتلاء كأس الشراب ببطء أسمع القصير الممتلئ يقول: «لم أرك هنا من قبل، يا صديقي».

إذا كان هناك شيء أكرهه أكثر من أُدعَى «يا رجل»، فهو أن أُدعى يا «صديقي» من شخص ليس كذلك ولن يكون أبداً.

ألتفت وأبتسم ثم أقول: «انتقلت إلى هنا مؤخراً فقط».

يقول صاحب تسريحة الشعر الغبية: «أنت ذلك المعلِّم الجديد».

«هذا صحيح».

أحب حقاً أن يخبرني الناس أشياء أعرفها مسبقاً.

أمدُّ يدي معرِّفاً بنفسي: «جو ثورن»، لكن أحداً منهما لا يتلقفها.

«أنت تسكن في منزل مورتون القديم؟»

مجدداً. منزل مورتون. مأساة دموية عنيفة تدمغ هويتها على كل ما حولها.

أقول مرة أخرى: «هذا صحيح».

يقترب صاحب الشعر الغبي أكثر ويقول: «أمر غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟»

«ماذا تقصد؟»

يقول ممتلئ الجسم: «تعرف ماذا حصل هناك، أليس كذلك؟»

«أجل».

«معظم الناس لن يرغبوا في العيش في مكان قُتل فيه صبي بتلك الطريقة».

يضيف صاحب الشعر الغبي، في حال لم أفهم المعنى الضمني: «ما لم يكونوا غير طبيعيين».

«لابد أنني كذلك إذن».

«هل تحاول أن تبدو ظريفاً يا صديقي؟»

«لا أعتقد ذلك».

يقترب أكثر ثم يقول: «أنت لا تعجبني».

«وأنا كنت على وشك أن أطلب رقم هاتفك».

أراه يشد قبضته فأمسك بالكأس الفارغ وأجهز نفسي لكسره على المشرب إن احتجت إلى ذلك، وقد حدث أن احتجت إلى فعل ذلك في الماضي، مرة واحدة على الأقل.

ومن ثم، حين بدا أن العنف لا مفر منه، أسمع صوتاً مألوفاً يقول: «حسناً أيها الأولاد. لا توجد مشكلة هنا، صحيح؟»

يستدير «الأَخوان تْشَكل (srehtorB elkcuhC)» ويتبخَّرا. ويأتي رجل طويل قوي الجسد إلى المشرب. أظن أنني أؤمن بالأشباح –الأشباح السيئة التي لا يطردها الزمن أو المسافة، أو الماء المقدس.

يقول: «جو ثورن. مضى وقت طويل».

أحدِّق في ستيفين هيرست وأقول: «أجل. بالفعل».

إذا كان بعض الأولاد يُولَدون ضحايا، فهل يُولَد آخرون مُتنمِّرين مُعتَدِين؟

لا أعرف الإجابة، لكنني أعرف أنه من غير المقبول قول ذلك في هذه الأيام. من غير اللائق القول إن بعض الأولاد، أو بعض العائلات، سيئة ببساطة. ولا علاقة لذلك بالطبقة أو المال أو الحرمان. إنه موجود في جيناتهم.

ينحدر ستيفين هيرست من سلالة طويلة من المتنمِّرين. متعة الاعتداء على الضعفاء صفة انتقلت عبر الأجيال، مثل قطعة كلاسيكية موروثة أو مرض الهيموفيليا (الناعور).

كان والده، دينيس، مشرفاً على مجموعة من العمال في المنجم. وكان الرجال يمقتونه ويخافون منه. كان يستخدم سلطته مثل فأس الفحم، حيث كان يفتِّت من يعارضه، ويضع أعداءه في أقسى المناوبات، ويستمتع

برفض منحهم إجازات لإمضائها مع مواليد جدد أو مرضى من أفراد العائلة.

في أثناء الإضراب، كان بوسعك رؤيته في مقدّمة صف المحتجين، ملوِّحاً بلافتته، وقاذفاً العمال الذين واصلوا العمل بالشتائم ورجال الشرطة بالحجارة والزجاجات. لا أعني إن جميع المحتجِّين كانوا على خطأ، ولن أحكم أبداً على أولئك الذين استمروا في العمل، مثل والدي، فكلاهما كانا يعتقدان أنهما يفعلان ما فيه مصلحة لعوائلهما. لكن هيرست لم يكن يشارك في التظاهر من أجل معتقداته أو توجهاته السياسية، بل لأنه كان يحب المواجهة والتصعيد والقُبْح، وأكثر من هذا كله، العنف.

صحيح أن ذلك لم يُذكَر في ذلك الوقت، لكنني حين أفكر في الأمر الآن، أعتقد أن دينيس، على الأرجح، هو من كان وراء كتابة تلك الكلمة على بابنا، والترهيب، والطابوقة التي رُميتْ على نافذة منزلنا. هذا هو أسلوبه. لقد استهدف النقطة الضعيفة، فبدلاً من مهاجمة والدي بشكل مباشر، هاجم عائلته.

غالباً ما كان الناس يرون إما شَفَة مشقوقة أو كدمة سوداء حول عين والدة ستيفين. وذات مرة، كانت إحدى ذراعيها النحيلتين بأكملها ملفوفة بالجص. معظم الناس كانوا يعرفون أن تلك الإصابات لم تكن ناجمة عن كونها «خرقاء بعض الشيء»، وإنما عن تحرُّر دينيس قليلاً في استعمال قبضتيْه بعد شرب كأس، أو عشرة كؤوس. مع ذلك، لم يكن أحد يتفوّه بكلمة. في ذلك الحين، وفي قرية صغيرة مثل آرنهيل، كان هذا النوع من الأمور يخص الرجل وزوجته فقط؛ وابنهما.

كان ستيفين طويل القامة مثل والده لكنه أخذ عن والدته ملامحها الجميلة وعينيها الزرقاوين. كان وسيماً كشبّان ملصقات الإعلانات. وكان باستطاعته الاتصاف بالود والمرح أيضاً، إذا ما أحبَّ ذلك. لكن الجميع كانوا يعلمون أن هذا لم يكن سوى واجهة، فستيفين فرد من عائلة هيرست.

بالطبع، كان هناك فرق واحد كبير بينه وبين أبيه، وهو أن دينيس كان متوحشاً غبياً، أما ستيفين فكان ذكياً ولعوباً إضافة إلى كونه عنيفاً ومتوحشاً وسادياً.

لقد رأيته يدفع رأس صبي في مرحاض مليء بالبول، ويُرغم آخر على أكل بعض الديدان، ويضرب ويذلّ ويعذِّب –ذهنياً وجسدياً. أحياناً كنتُ أكرهه، وأحياناً أخرى كنت أخافه. وذات مرة، كنت سأقتله بكل سرور.

لكنني لم أكن يوماً واحداً من ضحاياه، بل واحداً من أصدقائه.

الشعر الأشقر أصبح خفيفاً، والقَسَمات التي كانت ذات يوم مشدودة ومصقولة أصبحت أطرى، ومنفوخة بفعل العمر ورغَد العيش. إنه يرتدي قميص بولو، وجينزاً أزرق غامقاً، وحذاءً رياضياً فاقع البياض. مثل الكثير من الرجال متوسطي العمر، إنه يحوِّل «الملابس غير الرسمية» إلى مجموعة من المتناقضات.

يبدو عليه عدم الارتياح –أكثر اعتياداً على الاستعلاء ببذّةٍ وربطة عنق. كما أنه يبدو مُرهَقاً. السُمْرة المستمَدَّة من عطلتيْن في السنة لا يمكنها إخفاء الهالات الداكنة أسفل عينيه الزرقاوين أو ترهُّل جلده، كأن القلق يمطُّه من العظام مطّاً.

الغريب في الأمر هو أن ذلك لا يجعلني أشعر ببعض الرضا. خلال السنين السابقة، تمنَّيتُ الكثير من الأشياء الفظيعة لستيفين هيرست. ومع أن زوجته تحتضر الآن، إلا أنني لا أحسُّ بأي شعور بالرضا. قد يعني ذلك أنني رجل أفضل مما أعتقد. أو ربما العكس تماماً. لعل ذلك ليس فظيعاً بما يكفي. أو لربما يعني، كما هو الحال دائماً، أن الحياة ليست عادلة. فستيفين هيرست هو الذي ينبغي أن يُؤكَل ببطء من الداخل بواسطة السرطان، وليس ماري. يمكنني القول إن ذلك برهان على أن الشيطان يعتني بالفعل بخاصَّته، إن لم أقل إن هيرست هو الشيطان نفسه.

نجلس على جهتين متقابلتين من الطاولة الصغيرة المتقلقلة، ونرمق بعضنا بنظرات تقييمية. كأسي نصف مشروب أما كأسه فبالكاد مُسّ.

«إذن ما الذي أعادك إلى آرنهيل؟»

«عمل».

«بهذه البساطة هه؟»

«تماماً».

«عليّ أن أقول إنني كنت أعتقد أنك آخر شخص يمكن أن يعود».

«في الواقع، لا تحدث الأشياء كما نتخيّلها عندما نكون أولاداً، أليس كذلك؟»

ينظر إلى الأسفل ثم يقول: «كيف حال الساق؟»

هؤلاء هم آل هيرست. يصوّبون مباشرة إلى النقطة الضعيفة.

«تزعجني أحياناً، مثل أشياء كثيرة».

ينظر إلي بمكْر. رغم السلوك الودّي، إلا أنني ما زلت قادراً على رؤية الضوء البارد في هاتين العينين.

«لماذا عدتَ حقاً؟»

«أخبرتك، جاءني عمل».

«أنا واثق بأن الأعمال تأتي في كل مكان، طوال الوقت».

«هذا العمل راقني».

«لديك أسلوب في أخذ الخيارات السيئة».

«يجب أن تكون جيداً في شيء ما».

يبتسم كاشفاً عن أسنان بيضاء على نحو غير طبيعي. مزيفة كلياً. ثم يقول: «لو أبلغني هاري بمن كان سيُجري مقابلة معه، لما حصلتَ على الوظيفة أبداً. آرنهيل قرية صغيرة. الناس هنا يهتمّون ببعضهم. لا يعجبهم أن يأتي غرباء ويُحْدثون مشاكل».

«أولاً، أنا لست غريباً، وثانياً، لا أعرف أي مشكلة تسبَّبتُ بها».

«حقيقةُ أنك هنا بالذات هي مشكلة».

«وخز ضمير؟ لا، مهلاً، هذا يعني بأن لديك ضمير».

أراه يتململ. قليلاً فقط. رد فعل انعكاسي. يودُّ لكمي على وجهي، لكنه يضبط نفسه.

«ما حدث هنا حدث منذ زمن بعيد. ألم يحن الوقت لتضعه خلفك؟»

أضعه خلفي. كأنه كان مزاحاً من أيام الدراسة أو أول وقوعٍ في الحب. أشعر بالغضب يثور في داخلي.

«ماذا لو أنه يحدث ثانيةً».

لا يفصح وجهه عن أي شيء. لعله أكثر مهارةً مني في الخداع.

«لا أعلم ما تقصده».

«أقصد بنجامين مورتون».

«أمه كانت مكتئبة، وتعرَّضتْ لانهيار. كانت قلقة. نمط الأشخاص الذين يصبحون معلِّمين، ألا تعتقد ذلك؟»

لا أردُّ عليه، لكنني أسأله: «سمعتُ أن بن فُقد، قبل مدة ليست طويلة من قتله».

«الأولاد يهربون أحياناً».

«لأربعِ وعشرين ساعة؟ كما قلتَ، آرنهيل ليست قرية كبيرة. أين كان؟»

«ليس لدي فكرة».

«هل ما يزال الأولاد يلعبون فوق موقعِ المنجم القديم؟»

تلمع عيناه. ينحني إلى الأمام ثم يقول: «أعلم ما تلمِّح إليه. أنت مخطئ. الأمر ليس–» يسكت عند مرور رجل أكبر سناً منا تُغطّي رأسه

هالة من الشعر الأبيض ويرتدي بنطالاً بنياً عريضاً من الأسفل يرفع يده ويقول: «أنت بخير، ستيف؟»

«لست بحالة سيئة. هل ستكون هنا من أجل ليلة المسابقة غداً؟»

«في الحقيقة، المرء بحاجة لأن يجلد مؤخرتك مجدداً».

يضحكان. ثم يذهب الرجل إلى طاولة أخرى. يلتفت ستيفين نحوي وتختفي الابتسامة على الفور، كأن شخصاً نقر مفتاحاً.

«أنا واثق بأن رجلاً بمؤهلاتك قادر على إيجاد وظيفة تعليمية أخرى لنفسه في مكان أفضل من حفرة الفضلات هذه. أسدِ لنفسك معروفاً وغادرْ قبل أن يحدث أي مكروه آخر».

«أي مكروه آخر؟»

إذن فهو يعرف بشأن الطابوقة.

أقول له: «أخبرني. هل يملك ابنك دراجة آلية صغيرة؟»

«دع ابني خارج الموضوع».

«حسناً، سأفعل، ولكن يبدو أن لديه عادة غير سارة وهي رمي الطوابيق على نافذتي».

«يبدو ذلك أشبه بالافتراء».

«ظننتُ أنه ضرر جرمي».

«أعتقد أننا انتهينا هنا». يبدأ بدفع كرسيه إلى الخلف.

«أشعر بالأسى حيال ماري».

شيء ما في وجهه يتغيَّر. ترتعش شفته وتتدلّى إحدى عينيه. لوهلة يبدو مسنّاً جداً. ولجزء صغير من الثانية أشعر بالإشفاق عليه.

«لابد أن ذلك شاق. أنتما متزوجان منذ وقت طويل».

«أتشعر بالغيرة؟»

«خائب الأمل، في الحقيقة. لطالما اعتقدتُ بأن ماري كانت ستغادر هذا المكان. كان لديها أحلام».

«حصلتْ علي».

بطريقة ما يجعل جوابَه هذا يبدو كأنه عبء، بدلاً من أن يكون منطقياً.

أسأله: «وهل هذا كل شيء؟»

«وماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ كنا نحب بعضنا. وتزوجنا».

«سعيدان حتى آخر العمر».

«نحن سعيدان بالفعل. لعل ذلك صعب عليك فهمه. لدينا حياة جيدة هنا. لدينا جيريمي. لدينا منزل كبير، وسيارتان، وفيلا خاصة بنا في البرتغال».

«جميل».

«أكيد جميل. ولا أحد، وخصوصاً إذا كان معلِّماً من الدرجة الثالثة في مدرسة حقيرة، سيفسد علينا هذا».

«كنت أظن بأن السرطان فعل ذلك مسبقاً».

«ماري مكافحة».

«وكذلك كانت أمي. حتى الرمق الأخير».

هذا ليس صحيحاً. ففي النهاية، توقفتْ عن القتال، وأصبحت تصرخ فقط. كان السرطان الذي بدأ في رئتيها -برعاية عشرين سيجارة في اليوم من دخان بنسون آند هيدجز- قد انتشر إلى كبدها وكليتيها وعظامها، وغزا كل مكان في جسدها. حتى المورفين لم يعد قادراً على تسكين ألمها -ليس طوال الوقت. كانت تصرخ لأنها تتألم، وفي لحظات الراحة القليلة كانت تصرخ لفزعها من الاستسلام للشيء الوحيد القادر على تخليصها من آلامها كلياً.

«أجل، في الواقع، هذا أمر مختلف. ماري ستهزم السرطان. وأطباء الخدمة الصحية الوطنية، الذين بالكاد نبت الشعر في ذقونهم، لا يعلمون كل شيء».

يحدِّق فيَّ والشرر يقدح من عينيه الزرقاوين، مع حمرة قانية تغطي وجنتيه، واللعاب يتجمَّع عند زاوية شفتيه.

«قالوا إنها تحتضر، أليس كذلك؟»

«لا!» يضرب بيده على الطاولة فتقفز كأسانا، وكذلك أنا. «ماري لن تموت. لن أدع ذلك يحدث».

هذه المرة تصمتُ الحانة بالفعل. الهواء نفسه يبدو كما لو أنه توقَّف. والعيون كلها شاخصة إلينا. لابد أن هيرست يشعر بذلك أيضاً. وبعد لحظة –لحظة طويلة جداً، توقّعتُ خلالها بأنه سيزمجر ويقلب الطاولة ويُطْبق يديه حول رقبتي– ينظر حوله ثم يضبط أعصابه ويقف.

«شكراً لاهتمامك، لكنه –مثل وجودك هنا– ليس ضرورياً».

أراقبه وهو يمضي. وفي هذه اللحظة أشعر بموجة فزع، مثل دوّار الأماكن المرتفعة، يُفرغ معدتي من الداخل ويمتص قواي من عظامي.

لن أدع ذلك يحدث.

إنه يحدث مجدداً.

بعد مغادرة هيرست، أُنهي كأسي -لإظهار أنني لست خائفاً أكثر من رغبتي بشرب المزيد أو بالبقاء في الحانة- ثم أعود أدراجي نحو المنزل. ساقي لا تشكرني. إنها تدعوني بالسادي والغبي الأحمق الذي ينبغي له ابتلاع كبريائه واستعمال عصاه اللعينة. وهي محقة، ففي منتصف الطريق أتوقف وأتنفَّس بعمق وأدلِّك الساق الملتوية والمتورِّمة.

تكاد الساعة تبلغ التاسعة والنهار فَقَدَ معظم ضيائه. السماء رمادية مغبرَّة، والقمر ظلٌّ شاحب عارٍ خلف ستائر متقلِّبة من الغيوم.

أدرك أنني توقفتُ بجانب موقع منجم الفحم القديم. ترتفع بقايا المنجم المستصلَح خلفي؛ أكوامٌ داكنةٌ من نفايات الفحم الباقية تقف مثل تنانين خاملة.

موقع ضخم لا تقل مساحته عن ثلاثة أميال مربعة. أُنشئ سياج جديد على هذا الجانب، إضافة إلى بوّابة قوية مقفلة وُضع عليها لافتة تقول: حديقة ريفية عامة، تُفتَح في حزيران.

بالأخذ بعين الاعتبار أننا في شهر أيلول، يمكنني القول، بالحد الأدنى، إن هذا متفائل، فأنا أعلم بوجود خطط لتطوير المنطقة منذ أن كنت ولداً صغيراً. صحيح أن جميع أنفاق ومداخل المنجم رُدمتْ عند إغلاقه، ولكن قيل إن هذا تمّ بسرعة وعجلة بالغيْن، ولم يجرِ الالتزام بالمخططات الإجمالية بدقة، الأمر الذي أدى إلى حدوث انخساف في الأرض –حفرٌ غائرة. أذكر قصة حول واحدة من هذه الحفر كادت أن تبتلع شخصاً عندما كان ينزِّه كلبه.

تبدو المنطقة في هذه الليلة مثلما كانت في الماضي، أرضاً ميتة مهجورة. ثمة حفّارة وحيدة قابعة في منتصف أحد المنحدرات. ما تزال رؤيتها تُثير قشعريرة باردة في ظهري. تحفر في الأرض، وتُفسد الأشياء.

أستدير وأستأنف سيري البطيء المترنِّح. أسمع ضجيجاً خلفي. سيارة تقترب مني على الطريق. ليست سريعة جداً. في الواقع، إنها تسير ببطء شديد. ألتفت إلى الخلف فتعميني مصابيحها الأمامية المضاءة بطاقتها القصوى. أرفع يدي لأقي عيني.

تتوقف السيارة وأسمع صوت رجل يقول: «هل أنت بخير، يا صديقي؟»

يجلس صاحب الشعر الغبي في سيارة كورتينا بالية بجوار صديقه الممتلئ، الذي يقودها. الطريق فارغ، ولا توجد سيارات أخرى، أو حتى منازل. ومنزلي ما يزال يبعد نحو نصف كيلومتر. إنهما اثنان، ويركبان سيارة، وأنا لا أحمل شيئاً يمكنني استخدامه كسلاح، ولا حتى عصا مشي لعينة.

أقول محاولاً الحفاظ على نبرتي طبيعية: «أنا بخير، شكراً».

«أتحتاج إلى توصيلة؟»

«لا، لست بحاجة إلى ذلك». أتابع المشي.

أسمع صوت طقطقة تعشيق تروس ثم تسير السيارة على مهل بجانبي.

«أنت تعرج بشدة يا صديقي. ينبغي لك الركوب معنا».

«قلتُ، لا شكراً».

«وأنا قلت، اركبْ».

«لا أعتقد أنك قادر على دفع ثمني».

تتوقف السيارة بشكل مفاجئ. غبي يا جو. غبي حقاً. في بعض الأحيان، يبدو لي بأن فمي يخرج باحثاً عن شجار. أو لعله يحاول فقط تسريع ما سيحدث حتماً في كل الأحوال.

يُفتَح البابان ويترجّلان كلاهما. بوسعي محاولة الهرب، لكن ذلك سيكون عديم الفائدة ومثيراً للشفقة. لكنني لا أمانع استخدام بعض التوسُّل.

فأقول: «اسمع، كانت مزحة يا صديقي. أريد الوصول إلى المنزل فقط».

يتقدَّم صاحب الشعر الغبي خطوة نحوي ثم يقول: «هذا ليس مكانك. أنت لست مرغوباً هنا».

«حسناً، وصلتِ الرسالة».

«لا، لم تصلك. لهذا السبب أرسلَنا».

هنالك في الغالب أشياء حتمية في الحياة. ليست قدَراً تماماً، ولكن سلسلة من الأحداث لا يمكن تجنُّبها. في اللحظة التي تسبق إصابة وجهي بالضربة الأولى، أدرك كم كنت غبياً. أرسلَنا. هذان ليسا سوى خادمين عند هيرست. لهذا السبب ابتعدا مثل جَرْوَيْن مطيعَيْن عند دخوله

إلى الحانة. وبعد ذلك، عندما لم أرضخ، أرسلهما خلفي. كما في الماضي تماماً. بينما أفكر في ذلك، تصيبني ضربة أخرى تجعلني أخرُّ جاثياً على ركبتيّ.

أتكوَّر حول نفسي مثل كرة فأتلقى رفسة على أضلاعي تسبِّب ألماً حارقاً. ألفُّ ذراعي حول رأسي. للأسف، لقد كنتُ في هذه الوضعية من قبل. ولو كان بوسعي التكلُّم -لكنني لا أستطيع، لأنني أحاول التشبُّث بأسناني- لأخبرتُ هذين الوغدين أنني ضُربتُ على يد شخص مستأجَر أفضل منهما، وبأنهما، من ناحية الضرب، مجرد هاوييْن. أتلقى ركلة على ظهري فتنشب النيران في عمودي الفقري وأصرخ من الألم -في الحقيقة، حتى الهواة يأتيهم الحظ أحياناً. لا أظن أن هيرست طلب منهما قتلي، لكنها رسالة جيدة، مع أنني لست واثقاً من قدرة هذين الأبلهين على فهم فحواها الضمني.

ترتطم جزمةٌ برأسي من الجانب فتنفجر جمجمتي ويترنَّح بصري. ثم أسمع شيئاً ما من بعيد. صياح أم صراخ؟ أسمع شتائم مكتومة، وصرخة

توجُّع –ليس مني هذه المرة. وبعد ذلك، يُغلَق بابا السيارة بقوة –الأمر الذي يثير دهشتي– وتنطلق السيارة مبتعدةً بسرعة. أود أن أشعر بالارتياح لكنني من شدة الألم بالكاد أنجح في التشبث بالوعي.

أبقى مستلقياً على الأرض القاسية الباردة. مجرد التنفُّس يؤلمني، فما بالك بالتحرُّك. أشعر بخَدَرٍ مقلقٍ في رأسي، كما أشعر على نحو غامض بأنني لستُ وحيداً.

أحسُّ بحركة على أحد جانبيّ. يمين أم يسار، لم أعد قادراً على التمييز. يلمس شخص ما ذراعي. أحاول التركيز على الوجه الذي ينحني فوقي ويظهر ثم يختفي أمام بصري. شعر أشقر. شفتان حمراوان. وآخر شيء أعيه قبل أن يغلِّفني السواد هو رجائي بأن أكون أحتضر.

لأن البديل أسوأ بما لا يُقاس.

11

احتكاك أحذية مطاطية الكعب على أرضية لينوليوم لامعة. رائحة ملفوف، ومادة مطهِّرة، وشيء آخر لا تستطيع المادة المطهرة إخفاءه تماماً –براز وموت.

إذا كانت هذه هي النعيم، فإنها مقزِّزة. أرمش عينيّ وأفتحهما.

«آه، ها أنت معنا من جديد في أرض الأحياء».

تتوضَّح الرؤية أمامي. امرأة ترتدي زيَّ الأطباء. طويلة ونحيلة ذات شعر قصير أشقر ووجه قوي الملامح.

«هل تعلم أين أنت؟»

أتمعَّنُ في الستارة الزرقاء نصف المغلقة حول السرير الضيِّق، والممرضات المنهكات اللواتي تمررْن بعجلة ذهاباً وإياباً أمام السرير، والصراخ والأنين القريب... ثم أرمي تخميناً بعيد الاحتمال:

«مستشفى؟»

«جيد». تتقدَّم مني ثم تُنير ضوءاً في عينيّ فأغمضهما نصف إغماضة وأحاول الابتعاد عنه بسبب انبثاق برعم جديد من الألم في إحدى زوايا دماغي.

فتقول الطبيبة: «حسناً، حسناً». يمكنني أن أشم رائحة القهوة والنعناع في أنفاسها. تُمسك رأسي بعناية وتحرِّكه من جانب إلى آخر. «وهل يمكنك إخباري باسمك؟»

«جو ثورن».

«والتاريخ يا جو؟»

«أمم... 6 أيلول 2017».

«جيد... وتاريخ ميلادك؟»

«الثالث عشر من نيسان، 1977».

«جيد».

تعود إلى وضعية الوقوف وتبتسم. من الواضح أنها ابتسامة متصنِّعة. يبدو أنها من الأشخاص الذين ينفقون الكثير من الوقت في العمل بكفاءة، وما بقي منه في النوم، ولكن ليس بما يكفي.

«هل تتذكَّر ما حدث؟»

«أنا...» –أشعر بأن دماغي مشوَّش وهش حوالى الأطراف. إن أعملتُ التفكير بشدة، فإنه يؤلمني– «كنت أمشي عائداً إلى المنزل من الحانة و...»

السيارة. وغدا هيرست. وهناك شيء آخر. أصمتُ قليلاً ثم أقول: «لا أتذكَّر حقاً».

«هل كنتَ تشرب؟»

«كأسان» –إنها الحقيقة، هذه المرة– «حدث كل شيء بسرعة فائقة».

«لا بأس. حسناً، من الواضح أنك تعرَّضتَ لاعتداء، لذا فالشرطة سترغب في التحدث معك».

عظيم.

«هل أنا بخير؟»

«لديك رضوض حادة في الأضلاع وبعض الكدمات الأشد في الجزء السفلي من جذعك».

«تمام».

«لديك سحجات فظيعة وتورُّمان كبيران على رأسك، ولكن بلا كسور، الحمد لله، ولا يبدو أنك تُظهر أية إشارات إلى وجود ارتجاج. مع ذلك، نود إبقاءك هنا هذه الليلة، من أجل المراقبة فقط».

إنها ما تزال تتحدَّث لكنني لم أعد أصغي. فجأة أتذكَّر المرأة التي كانت منحنية فوقي.

أسألها: «كيف وصلتُ إلى هنا؟»

«وجدك شخص صالح. امرأة كانت تقود سيارتها على الطريق فرأتكَ ممدّداً على الرصيف، فتوقّفتْ وجلبتك إلى هنا. كنتَ محظوظاً جداً».

«كيف كان شكلها؟»

«قصيرة، شقراء. لماذا؟»

«هل ما تزال موجودة هنا؟»

«أجل. في قاعة الانتظار».

أُنزل ساقي إلى الأرض ثم أقول: «يجب أن أخرج من هنا».

«سيد ثورن، لا أعتقد حقاً إن هذا سيكون حكيماً –»

«لا أبالي بما تعتقدينه إن كان حكيماً أم لا».

تظهر حُمرةٌ طفيفةٌ على وجنتيها الشاحبتين الذابلتين، ثم تهز برأسها وتفتح الستارة وتقف جانباً وتقول: «لا بأس».

«أنا آسف... أنا...»

«لا. هذا خيارك».

«ألن تمنعينني؟»

ترتسم ابتسامة متعَبة على وجهها ثم تقول: «إذا كنتَ معافى بما يكفي للخروجِ من هنا، فليس بيدي الكثير لفعله».

«أعدك بأنني سأحاول ألا أموت».

ترفع كتفيها وتقول: «بيني وبينك، لدينا أسرَّة أكثر في المشرحة على أية حال».

أدخل إلى الحمّام وأرشق وجهي ببعض الماء. مع أنه لا يساعدني كثيراً في إزالة الدم الجاف، لكنه يمنحني قدراً أكبر بشكل طفيف من الشعور بأنني إنسان. ثم أخرج إلى الممر ثانيةً وأنا أعرج ببطء. إنه مستشفى كبير ويحوي الكثير من طرق الدخول والخروج. أسلك الاتجاه المعاكس للافتات التي توجّهني إلى «المخرج الرئيسي» وأتوغّل في متاهة

الممرات الرمادية المزرقّة. وأخيراً، أرى لافتة أخرى تشير إلى «المخرج الشمالي». عظيم.

تحتجُّ أضلاعي المرضوضة تقريباً مع كل نَفَسٍ آخذه. وأشعر كما لو أن شخصاً أدخل مسماراً ساخناً في قاعدة عمودي الفقري، إضافة إلى الألم الخافت ولكن المتواصل في جمجمتي. ومع ذلك، كان من الممكن أن يكون الأمر أشد سوءاً. كان من الممكن أن تجدني.

وأخيراً أصل إلى المخرج الشمالي وأدفع الباب. يُحيِّيني هواء الليل بصفعة متجمّدة على وجهي ويجعل جسدي –بعد الدفء الخانق للمستشفى– يُصاب بنوبة رعاش مفاجئة. أتوقف للحظات محاولاً السيطرة على الارتجاف وأنا ألهث في الهواء الصقيعي. ثم أُخرج هاتفي الخلوي بيديْن مرتعشتيْن. أنا بحاجة للاتصال بسيارة أجرة. يجب أن أعود إلى المنزل قبل أن... وهنا أدرك الحقيقة المرَّة.

إذا كانت موجودة هنا... إذا كانت تقود سيارتها على طريق آرنهيل في هذا المساء، فهذا يعني أنها تعرف أين أعيش مسبقاً.

أُنزل الهاتف في اللحظة التي أسمع فيها هدير محرك سيارة. وأعرف أنها هي، حتى قبل أن تتوقف المرسيدس الفضية اللامعة أمامي وتنفتح النافذة على مهل.

تبتسم غلوريا لي من مقعد السائق ثم تقول: «جو، عزيزي. تبدو في حالة مزرية. ادخل. سأوصلك إلى المنزل».

ثمة لحظة يعرفها معظم المدمنين، وهي عندما يدركون أن رذيلتهم –سواء أكانت شراباً، أم مخدرات، أم، في حالتي أنا، قماراً– أصبحت مشكلة حقيقية.

جاءت لحظة تنوُّري أنا عندما التقيتُ غلوريا. في الواقع، يمكنك القول إن غلوريا أنقذتني من نفسي.

حتى تلك اللحظة، أعتقد أنني كنت قادراً إلى حد ما على الادّعاء بأنها كانت ما تزال مجرد هواية، لعبة، تسلية. رغم فقداني وظيفتي، وأصدقائي، ومدّخراتي، وسيارتي أمام إغراء الطاولات الخضْر والصوت

المميّز لخلط وتوزيع الأوراق، إلا أنني كنت ما أزال أعتقد أنني أسيطر على الوضع.

غريب كيف تكون أكبر الخدع هي تلك التي نجريها على أنفسنا.

جدّاي هما اللذان علّماني لعب الورق. كنا نلعب مقابل سنتات نحتفظ بها في جرّة زجاجية كبيرة. لقد وجدت أوراق اللعب، حتى في سن الثامنة، ساحرة وقابلة للإدمان. أحببتُ التصميم الملتفَّ الأحمر الباهت على ظهر الأوراق، واختلاف المجموعات، والآس ذا الوجهيْن (أنا في الأعلى الآن، أنا في الأسفل الآن)، والملوك والملكات المتعجرفين، والشبان الذين يبدون أشراراً وخبثاء بعض الشيء.

أحببتُ مراقبة جدّي وهو يوزِّع الأوراق بنقرات سريعة كالبرق بأصابعه الصفراء الخشنة؛ أصابع كانت تبدو قاسية وخرقاء لكنها تصبح بارعة وسريعة وخفيفة إذا ما وضعتَ فيها رزمةً من ورق اللعب.

حاولتُ تقليد طريقة الخلط، والقطْع، وخفّة اليد. من بين أسعد الأوقات التي عشتها في طفولتي تلك التي كنت أقضيها مع جدَّيَّ حول

طاولة الفورمايكا المقشَّرة في مطبخهما الصغير المبقَّع بالدهْن ونحن نحدِّق في أوراقنا، مع كأس من الكولا فقَدَ نكهته بسبب فتح العلبة منذ وقت طويل أمامي، وسيجارتين محترقتين حتى الفلتر في المنفضة.

علَّمتُ آني بعضاً من نفس الألعاب. ولكن، بما أن أبي وأمي لم يكونا يملكان متسعاً من الوقت للعب، فإن المتعة لم تكن هي ذاتها. أنتَ بحاجة في العادة لثلاثة أشخاص كحد أدنى، لكننا مع ذلك أمضينا الكثير من فترات بعد الظهر الماطرة في لعب سناب أو بيشينس.

بعد الحادث، توقفتُ عن اللعب وركَّزتُ بدلاً من ذلك على دراستي. قررتُ التسجيل في كلية لتدريب المعلِّمين لأنني كنت أحب اللغة الإنكليزية. بدا لي عملاً محترماً قد يجعل أمي فخورة بي، ولعل جزءاً مني كان يعتقد بأنه وسيلة لفعل شيء نافع –مساعدة الأولاد والتعويض عن كل الأشياء الخاطئة التي فعلتها عندما كنت أنا نفسي ولداً.

ما أثار دهشتي هو أنني كنت مُعلِّماً جيداً، لدرجة أنه في إحدى المدارس جرى الحديث عن ترقية –معلِّم العام. كان ينبغي أن أكون

سعيداً، أو راضياً على الأقل، بيد أنني لم أكن كذلك. كان هناك شيء ناقص. كان يوجد خواء داخلي لم يكن باستطاعة العمل أو الأصدقاء أو الصديقات ملأه. وفي بعض الأيام، كانت حياتي بأكملها تبدو غير واقعية، كأن الواقع انتهى مع موت آني وأصبح كل شيء منذ ذلك الحين نسخة رديئة.

عدتُ للعب الورق في مرحلة لاحقة من حياتي. كنت أجد في العادة معارف يشبهونني في طريقة التفكير لألعب معهم بضع «فتّات» في الحانة بعد العمل. مثل السكّيرين، ينجح المقامرون في إيجاد بعضهم بعضاً. ولكن، سرعان ما أصبحت الألعاب الودّية، أو المراهنة بجنيه واحد أو خمس جنيهات، غير كافية.

قابلتُ رجلاً –هناك رجل دائماً. مُغيِّرُ لعبة؛ شيطان يظهر عند كتفك. كنتُ أحضِّر نفسي للمغادرة ذات ليلة، فإذا بأحد الزبائن الدائمين –شخص نحيل شاحب لم أعرف اسمه أو أسأل عن اسمه قط– أومأ لي برأسه وقال بصوت هامس: «هل ترغب بلعبة جيدة؟»

كان ينبغي لي أن أقول لا. كان ينبغي لي أن أوضِّح له مع ابتسامة بأن الوقت متأخر سلفاً وبأن عندي عمل بعد بضع ساعات فقط، بدون ذكر أكداس الفروض المنزلية التي كان يتوجَّب علي تقييمها. كان ينبغي لي أن أذكِّر نفسي بأنني معلِّم، ليس قرش ورق لعب. كنتُ أقود سيارة تويوتا، وأشتري قهوتي من متجر كوستا وساندويتشاتي من إم آند إس. ذلك هو عالمي آنذاك. كان ينبغي لي أن أخرج وأعود إلى المنزل بسيارة أجرة وأواصل حياتي.

هذا ما كان ينبغي لي فعله، لكنني لم أفعل.

بل قلت له: «أين؟»

في وقت لاحق –لاحق بمدة طويلة– عندما وجدتُ نفسي في ورطة خانقة، عندما بدأت الديون تتكدّس عند قدميّ مثل قنابل يدوية لم تنفجر، عندما بعت التويوتا، وتركت عملي، وردَّني على عقبيّ كل الدائنين، عندما أُدخلتُ عنوةً إلى سيارة فان ذات ليلة لأجد غلوريا جالسة هناك

تبتسم كابتسامة قائدة تشجيع أميركية رداً على ابتسامة مُعتَدٍ معتوه أميركي...

عندئذ قلت: «لا. من فضلك، لا!»

إنني لا أعرج اليوم بسبب حادث سيارة وقع قبل خمسة وعشرين عاماً، رغم أنني عرجتُ حينئذ لبعض الوقت. لكن ذلك العرج كان قد اختفى، والجروح شُفيتْ، منذ مدة طويلة، عندما وضعت غلوريا ظفراً وردي اللون كحلوى غزل البنات على شفتيَّ وهمستْ بعذوبة:

«لا تتوسَّل يا جو. لا أستطيع تحمُّل رجل يتوسّل».

توقفتُ عن التوسُّل، وبدأت أصرخ.

تنقر بأظافرها –الحمراء اللامعة هذه المرة– على المقوَد. موسيقا فرقة «هيومان ليغ» تدوِّي بقوة من الستيريو.

الشيء الوحيد الآخر الذي تحبه غلوريا –إضافة إلى إيذاء الناس– هو موسيقا الثمانينيات. لا يمكنني الاستماع إلى سيندي لوبر دون أن أهرع إلى المرحاض لأتقيأ.

«كيف وجدتِني؟»

«لدي أساليبي».

يتوقّف قلبي عن النبض: «ليس بريندان؟»

«أوه لا. بريندان بخير» –ترمقني بنظرة موبِّخة– «أنا لا أؤذي الناس بدون سبب. حتى أنت».

أشعر بالارتياح و–على نحو غبي– بالامتنان. ثم أتذكَّر شيئاً آخر.

«ماذا بشأن الاثنيْن الآخريْن؟ اللذان هاجماني؟»

«آه، الغبي والأغبى. كتف مخلوع وأنف مكسور. كنتُ متساهلة معهما. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليلوذا بالفرار.

لا، يمكنني المراهنة على ذلك. قد تبدو غلوريا مثل دمية صينية رقيقة، لكن الدمية الوحيدة التي تشبهها هي تشَكي (فيلم رعب). قيل إنها كانت تمارس الجمباز عندما كانت طفلة ثم غيَّرتْ اختصاصها إلى الفنون القتالية. ومُنعتْ من المنافسات بعد إدخال إحدى منافساتها في غيبوبة. إنها سريعة وقوية وتعرف كل بقعة هشة في جسم الإنسان –بعضها لم يكتشفها بعدُ حتى أطباء التشريح.

تنظر إلي ثم تقول: «كانا سيقتلانك لو لم أتدخَّل».

«ووفَّرتِ لنفسك عملاً».

تُصدر صوت سَكْسَكة ساخرة ثم تقول: «أنت لا تفيدني ميتاً. الموتى لا يُسدِّدون ديونهم».

«أمر مُطَمْئن».

«والبدين ما زال يريد ماله».

«هل يدْعونه الناس بذلك حقاً، أم أنه مجرد اسم حصل عليه من مجلة مصوّرة؟»

تضحك بصوت خشن منخفض ثم تقول: «أتعرف؟ هذا هو بالضبط نوعِ التعليق الذي يجعله يستأجر أناساً مثلي لإيذائك».

«رجل لطيف. يجب أن أقابله يوماً ما».

«لا أنصحك بذلك».

«أنا أعمل على جمع النقود. لدي عمل جديد».

«جو، اعذرني لصراحتي، لكن بضع جنيهات هنا وهناك لن تفي بالغرض. ثلاثون ألفاً. هذا ما يريده البدين».

«ثلاثون؟ ولكن هذا أكثر بكثير–»

«الشهر المقبل سيريد أربعين. أنت تعرف كيف تجري هذه الأمور».

بالفعل. أهز برأسي ثم أقول: «لدي خطة».

«أنا مصغية».

«يوجد رجل هنا. يريدني أن أغادر القرية. بشدة».

«لابد أنه نفس الرجل الذي أرسل ذينك الوغدين لضربك الليلة».

«أجل».

«والآن إنه سيعطيك كمية كبيرة من المال؟»

«أجل».

«ولماذا سيغير موقفه بهذه الطريقة؟»

بسبب ما حدث. بسبب ما فعله. لأنه، كما قال بنفسه، يملك حياة جميلة هنا وبوسعي إفسادها عليه. بهذه البساطة.

أقول: «إنه مدين لي. وهو لا يريدني حقاً أن أتسبَّب بمشكلة له».

«مثير للاهتمام. من يكون هذا الرجل؟»

«عضو مجلس بلدي ورجل أعمال ناجح».

تعطي إشارة من أجل الدخول إلى القرية ثم تقول: «أحب الشخصيات العامة. هناك طرق عديدة لإفساد حياتهم، ألا تعتقد ذلك؟»

«لم أفكر من قبل كثيراً بهذا الأمر».

«أوه، ينبغي لك فعل ذلك. إنهم أسهل الناس إذا ما أردتَ إيذاءهم. الأشخاص الذين يملكون أكثر من الجميع ليخسروه».

«في هذه الحالة، يجب أن أكون منيعاً».

«في الحقيقة، لا يوجد أحد كذلك. لكن الألم الجسدي هو الأسهل بالنسبة للتعافي».

في الوقت الحالي، كل جزء تقريباً في جسدي يرغب بالاعتراض، لكنني ألتزم الصمت. التكلُّم حول الألم مع غلوريا فكرة سيئة، مثل أخذ صيّاد غير شرعي في رحلة صيد.

نصمت قليلاً قبل أن تتنهّد وتقول: «أنت تعجبني يا جو».

«لديكِ طريقة غريبة في إظهار ذلك».

«أحسُّ بشيء من السخرية».

«لقد تسبَّبتِ بإعاقتي».

«في الحقيقة، لقد أنقذتك من أن تصبح معاقاً». توقفُ السيارة أمام المنزل وترفع المكبح اليدوي. «أراد البدين أن أُفسد ساقك السليمة».

تستدير نحوي وتريح يدها برقّة على فخذي ثم تضيف: «من حسن حظك –كوني فتاة غبية من مانشستر– اختلط علي الأمر قليلاً».

أحدِّق فيها وأقول: «أتريدينني أن أشكرك؟»

تبتسم مجدداً. كان من الممكن أن تكون ابتسامة لطيفة لو أنها اتّسعتْ لتقترب بعض الشيء من عينيها الزرقاوين الباردتين. إذا كانت العينان نافذتي الروح، فإن عينيّ غلوريا لا تُظهر إلا غرفاً فارغة مغطاة بشراشف ملطَّخة بالدماء.

تمرِّر يدها على فخذي إلى أن تصل إلى ركبتي ثم تضغط بشدة. بالنسبة لامرأة صغيرة الحجم، إنها تملك قبضة قوية. في ظروف أخرى، قد يكون هذا أمراً جيداً، لكنه الآن يقطع أنفاسي من صدري ويفجِّر ألماً يمنعني حتى من الصراخ. تفلتني في اللحظة التي أشعر فيها بأنني أوشك على فقدان الوعي، فأشهق بقوة وأقذف نفسي إلى الخلف في مقعدي.

«لا أريدك أن تشكرني. أريدك أن تجلب لي تلك الثلاثين ألفاً، لأنني في المرة القادمة لن أكون متسامحة جداً».

تقول بث: «لا تخبرني. يجب أن أرى المحدلة».

أحاول رفع أحد حاجبيّ فأشعر بالألم. كل شيء تقريباً يؤلمني في هذا الصباح. العزاء الوحيد هو أنه يجعل ألم ساقي محمولاً بالمقارنة.

«مضحكة جداً». أجلس بجانبها حول طاولة الكافتيريا. «اعذريني إن لم أضحك فأنا لا أريد أن أمزِّق أي شيء».

تنظر إلي بقدر أكبر بقليل من التعاطف. إما ذلك أو أن هناك شيئاً ما عالق في حنجرتها. ثم تقول: «ماذا جرى؟»

«وقعتُ على السلَّم».

«حقاً؟»

«إنه سلَّم شديد الانحدار».

«أوه».

«يسهل التعثُّر عليه».

«أه–هه».

«يبدو كأنكِ لا تصدّقينني؟»

ترفع كتفيها وتنزلهما ثم تقول: «كنتُ أتساءل فقط إن كنتَ قد نجحتَ في إغضاب شخص آخر».

«لديكِ تقييم متدنٍ جداً لي».

«لا. لدي فقط تقييم عالٍ جداً لقدرتك على أن تكون مزعجاً».

أضحك فأتألم –كما توقعتُ.

«حسناً. على الأقل يمكنك أن تضحك على ذلك».

«بالكاد».

تقول برقة: «جدّياً، هل أنت بخير؟ إذا كان هناك أي شيء تريد التحدث حوله...»

قبل أن أرد، أشمُّ نفحة رائحة نفَس كريهة ممزوجة مع عطر ما بعد حلاقة رديء. أدفع ساندويتشتي جانباً –في الحقيقة، لست جائعاً كثيراً على أي حال.

«جُوي، يا رجل».

ظننت بأنني لن أكرهه أكثر، لكن إضافة «ي» إلى نهاية اسمي جعل ذلك ممكناً.

يسحب سايمون كرسياً ويجلس. إنه يرتدي اليوم تيشيرتاً كُتب عليه «ماجيك راوندأباوت» (برنامج شهير للأطفال) فوق بنطال كستنائي. كستنائي.

«واو، ماذا حدث لوجهك؟ أم لعلي أرى الشخص الآخر؟»

تقول بث مازحةً: «لديه مفاصل قبضة متضررة بشدة».

يضحك سايمون بفتور. أشعر أنه لا يحب النساء الذكيات أو المرحات. تجعلنه يبدو دون المستوى. وهو كذلك بالفعل. وفي الحقيقة،

لقد تضرَّر وجهي على نحو طفيف فقط –مجرد كدمة حول العين وشفة مشقوقة.

«وقعتُ على السلّم».

«حقاً؟» يهز برأسه. «ظننتُ أن لهذا صلة بستيفين هيرست».

أحدِّق فيه باستغراب ثم أقول: «ماذا؟»

«لقد رأيتكما أنتما الاثنين في الحانة الليلة الماضية».

«كنتَ هناك؟»

«أحتسي كأساً هادئاً من الشراب فقط».

وتتجسّس علي. تنبثق الفكرة في رأسي بشكل عفوي. أهو هوس الارتياب؟ ربما. ولكن، لماذا لم يُقدِّم نفسه.

يقول: «لم أشأ المقاطعة». كذبة محضَّرة مسبقاً.

أسأله ببراءة: «وما علاقة التحدث مع ستيفين هيرست بالموضوع؟» إذا كنا سنلعب لعبة الكاذبات الصغيرات الجميلات (مسلسل أميركي)، فأراهن بأنني أستطيع الفوز.

يبتسم. أتمنى أن لا يفعل ذلك.

«في الواقع، بيني وبينك وبين عمود الإنارة... قد يُعطي ستيفين هيرست انطباعاً بأنه عضو مجلس محترم، ولكن يُقال إنه لا يمانع استخدام وسائل أقل احترافية حين يُغضبه الناس».

«المعنى؟»

تتدخّل بث قائلةً: «المعنى. تشاجر جيريمي هيرست مع رئيس التربية الرياضية الأخير في مدرستنا. وقبل أن يستقيل الرجل، تشاجر مع قبضات شخص ما في طريقه إلى المنزل ذات ليلة».

تنظر إليّ فأدرك أنها تعرف. كانت تعرف منذ لحظة جلوسي المؤلم.

«في الواقع، ينبغي لك ألا تصغي للشائعات».

يقول وهو يفتح غلاف ساندويتشته: «نصيحة جيدة». ثم يأكل قضمة بنفس القدر من الصخب. أراهن أنه ينام بصخب أيضاً.

يضيف قائلاً: «مع ذلك، هذا يذكِّرني» -يلوك طعامه- «هل تتذكَّر كارول ويبستر؟»

«عفواً؟»

أحاول الحفاظ على وجهي محايداً، مع أن نبضات قلبي تتسارع مثل عدَّاء قُبيْل وصوله إلى خط النهاية، مع فارق وحيد هو أنني لست سعيداً بالنهاية التي سيُفضي إليها هذ المسار.

«للأسف لا».

في الحقيقة، أنا أتذكّرها جيداً. كانت امرأة مفرطة الوزن ذات هالة جعداء من الشعر الأسود ووجه يبدو مستاءً على الدوام، لكنني لا أدري تماماً ممّ -من نفسها، أم من المدرسة، أم من العالم بصورة عامة.

«في الواقع، أنا وهي نتواصل دائماً على الفيسبوك».

بالتأكيد. الفيسبوك هو المكان الذي يتواصل فيه الأشخاص، الذين لا يملكون أصدقاء في العالم الواقعي، مع أشخاص لن يرغبوا أبداً بأن يكونوا أصدقاءهم في العالم الواقعي.

«هذا جميل».

«إنها تتذكّرك، أو بالأحرى، تتذكّر رحيلك».

«حقاً؟»

«حدث ذلك في نفس الوقت الذي فُقد فيه كل المال في خزنة المدرسة».

أنظر إليه بثبات وأقول: «أعتقد أنك أسأت فهم حقائقك. سمعتُ أن المال أُعيد».

يتظاهر بأنه يُمسِّد ذقنه ثم يقول: «أوه أجل. لهذا السبب ربما لم تتدخّل الشرطة. طُلب منها التزام الصمت فيما يبدو».

تنظر بث إلى سايمون وتقول: «هل تتهم السيد ثورن بشيء ما هنا، لأنك تتحدث بطريقة ناعمة مثل دبّابة لعينة؟»

يرفع يديه قائلاً: «أوه لا. على الإطلاق. أقول فقط إنها لهذا السبب تذكَّرَتْه. التوقيت. وبالحديث عن ذلك» -ينظر إلى ساعته- «هناك ولد أحتاج لرؤيته بشأن احتجاز». يقف وبيده ساندويتشته. «أراكما لاحقاً».

«أجل، نراك لاحقاً».

أراقبه وهو يغادر، متمنياً أن تُفتَح حفرة تحته بشكل مفاجئ، أو يهبط السقف فوق رأسه، أو تحدث حالة احتراق بشري عفوية.

تقول بث: «لا تدعه يضايقك».

«لم يضايقني».

«هراء. سايمون معلِّم مريع لكن الشيء الوحيد الذي يتفوق فيه هو إزعاج الآخرين. إذا كنتَ تملك كعب أخيل، فإنه سيجده ويقضمه مثل كلب يتضور جوعاً».

«شكراً على الصورة الذهنية».

«عفواً». تضع قطعة من المعكرونة في فمها. «ليس صحيحاً، أليس كذلك؟»

«ماذا؟»

«لم تسرق كل المال من مدرستك الأخيرة؟»

«لا».

نويتُ فعل ذلك –لقد انحدرتُ إلى هذا المستوى حقاً– ولكن، عندما اقتربتُ من التنفيذ، لم أستطع.

لأن شخصاً آخر وصل إليه قبلي.

«آسفة. ما كان ينبغي حتى أن أسأل».

«لا بأس».

«أعني، أعرف أن هاري كان متلهفاً للحصول على معلِّم لغة إنكليزية، لأن الوظيفة –لنواجه الحقيقة– أشبه بكأس مسمومة نوعاً ما».

«كما قلتُ، انسي الأمر».

«ولكن، حتى هاري لم يكن لي»

قلت بحدّة: «انسي الأمر».

تحدِّق فيّ. لا أريد أن أزعج الحليف الوحيد الذي أملك هنا.

«آسف. أنا فقط أشعر بالألم قليلاً و–»

«لا عليك». تهزُّ رأسها فيلمع قرطاها الفضّيان. «أحياناً لا أعرف متى أصمت».

«ليس الأمر–»

يهتزُّ الهاتف في جيبي. أود أن أتجاهله لكنني أخشى أن تكون غلوريا هي المتصلة. ولقد أوضحتْ تماماً ليلة أمس بأنها لن تقبل بأن تُتَجاهَل».

«آسف، يجب أن–»

«تفضَّلْ».

أُخرج الهاتف من جيبي وأنظر إلى الشاشة. ليست غلوريا. أحدِّق في الرسالة النصية، وأشعر كما لو أن جلدي يُوخَز بمليون شوكة دقيقة.

«هل هناك مشكلة؟»

أجل.

«لا». أُعيد الهاتف إلى جيبي. «لكنني تذكَّرتُ للتو بأنه يتوجب علي أن أكون في مكان معين».

«الآن؟»

«الآن».

«لديك حصة ستبدأ بعد ثلاثين دقيقة».

«سأعود».

«مريح معرفة ذلك».

ألوي وجهي ألماً عندما أرتدي جاكيتي ثم أقول. «سأراكِ لاحقاً».

«انتبه لخطواتك».

أقول عابساً: «لماذا؟»

ترفع أحد حاجبيها وتقول: «من المؤكد أنك لا تريد الوقوع مرة أخرى على السلَّم الآن، صحيح؟»

كنيسة سانت جود عبارة عن مبنىً صغير مغطى بالشحّار يبدو أكثر شبهاً بكوخ تخييم رثّ منه بكنيسة قرية. لا يوجد فيها برج، وإنما مجرد سطح غير مستوٍ، مليء بالتجاويف، إضافة إلى بعض الثغرات نتيجة فقدان قطع قرميد. النوافذ مغطاة بقضبان حديدية والأبواب مسدودة بألواح خشبية. والرعايا الوحيدون الذين يملؤون مقاعدها ويسندون عوارضها السقفية هم الغربان والحمائم المعشعشة فيها.

أدفع البوابة وأمشي على الطريق الترابي. مقبرة الكنيسة مهجورة بدورها. إنها لم تُستخدَم من أجل إقامة شعائر الدفن منذ مدة طويلة جداً. لقد أُحرقتْ جثث أختي ووالديّ في محرقة ضخمة في مانسفيلد.

شواهد القبور هنا مكسّرة ومشقّقة، والنقوش متآكلة بفعل الطقس ومرور السنين؛ وبعضها ممحيّ تماماً. كما قلبتْ جذور الأشجار بضع قبور قديمة وابتلعتها الحشائش والأعشاب.

نبذل قصارى جهدنا لترك بصمة تدل على وجودنا على هذه الأرض؛ لترك شيء ما من أنفسنا. ولكن، في نهاية المطاف، حتى هذه العلامات زائلة، غير دائمة. لا يمكننا محاربة الزمن. ذلك أشبه بمحاولة صعود هضبة على سلَّمٍ متحركٍ نزولاً بسرعة تزداد باضطراد. الزمن يتحرّك دوماً، منهمك دوماً، ينظّف خلفه دوماً، يزيل مخلَّفات القدامى ويأتي بالجديد.

أمشي على مهل حول الكنيسة نحو القسم الخلفي. ترتفع الأرض هنا قليلاً وتقلُّ شواهد القبور. أقف وأنظر حولي. لا أستطيع رؤيتها. لعلها اختفت. لعل الرسالة النصية كانت مجرد... ومن ثم أراها متواريةً في الطرف البعيد من المقبرة. نصف مخفية بواسطة شجرة لبلاب ونباتات معترشة.

الملاك. إنها ليست نصباً تذكارياً أو شاهدة قبر. لا شك أنها وُضعتْ هنا في العصر الفيكتوري بواسطة مالكي هذه الأرض. يقول البعض إن ذلك حدث بعد موت رضيعتي العائلة التوأم، لكن القبر نُبش ذات مرة

(شيء له علاقة بقلق الكنيسة لكونها لا تملك أية علامة مميزة) ولم يُكتشَف تحته أية بقايا بشرية.

لا أحد يعلم تماماً من أين أتت أو ما هو الغاية منها. حتى إنها لم تعد تبدو مثل ملاك في هذه الأيام فيداها مقطوعتان ورأسها غائب. وهي مائلة قليلاً على نحو غير متوازن فوق قدميها الحجريتين المستويتين. والعباءة الفضفاضة التي كانت ذات مرة تكسوها بأناقة، أصبحت متكسّرة ومشققة ومغطاة بطحالب تشبه الفرو، كما لو أن الطبيعة لفَّتها بطبقة إضافية لتُبقي عظامها الحجرية دافئة.

أنحني، فينبثق ألم جديد مثير للاهتمام يذكِّرني بحاجتي لتناول مزيد من المسكِّنات في وقت عاجل، وأُزيل بيدي الطحالب والعشب من القاعدة. الكتابة متلاشية قليلاً لكنها ما تزال مفهومة.

أما يسوع فقال: «دعوا الأولاد يأتون إلي ولا تمنعونهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات».

أنظر مجدداً إلى الرسالة على هاتفي:

اخنقِ الأطفال الصغار. اعتدِ عليهم. وليتعفَّنوا في رقادهم.

منذ زمن بعيد كتبتْ زمرة من المراهقين بواسطة بخَّاخ طلاء كلمات غطَّت الملاك بأكمله. نفس الأشخاص الذين جلبوا مجرفة وقطعوا رأسها ويديها. لم يكن هناك أي سبب حقيقي لهذا الهجوم، وإنما مجرد تخريب طائش مدفوعٍ بتأثير شراب رخيص وجرأة مراهقين.

كان هيرست هو صاحب فكرة التشويه وعلب البخّاخ، لكن الكلمات –أشعر بالخجل لقول ذلك– كانت لي. في ذلك الحين –تحت تأثير الكحول وتشجيع صاحب من بقية أفراد الزمرة– أحسستُ بقدْر كبير من الرضا عن نفسي.

لكنني لاحقاً، بينما كنت منحنياً فوق المرحاض، أتقيأ المرارة والعار، أحسستُ بالخزي. صحيح أنني لم أكن متديِّناً، كحال عائلتي كلها، لكنني كنت أعرف بأن ما فعلته خطأ.

حتى بعد مضي خمسة وعشرين عاماً، ما زلت أشعر بالانزعاج كلما تذكُّرت هذا الأمر. غريبٌ كيف تتنقَّل الذكريات الجيدة مثل الفراشات –

هاربة، سريعة، يستحيل إمساكها دون سحقها. أما الذكريات السيئة، مثل الذنب أو العار، فإنها تعلق في مكانها مثل الطفيليات. تأكلك ببطء من الداخل.

كان أربعة منا موجودين هنا في ذلك اليوم –هيرست وأنا وفليتش وكريس– باستثناء ماري. صحيح أن مرافقتها لزمرتنا كانت تزداد يوماً بعد يوم –الأمر الذي كان يزعج فليتش، لأنه كان يكره وجود فتاة بيننا– ولكن ليس طوال الوقت. لعل هيرست هو الذي أخبرها بهذا الأمر. وفي المدرسة، تنتقل الأخبار، وتنتشر الإشاعات. مجرد أننا كنا الوحيدين هنا في ذلك اليوم لا يعني أنه لم يعلم بذلك أحد آخر.

لكن ذلك يعني أن الشخص الذي أرسل الرسالة –أياً تكن هويته– كان معنا في المدرسة في ذلك الحين حتماً. ولعله الشخص نفسه الذي أرسل الإيميل؟ حاولتُ الاتصال بالرقم فأوصلني بمجيب آلي. وأرسلتُ رسالة نصية، مع أنني لا أتوقع ردّاً إذ لا أظن أن المرسل يريد حواراً، بل يريدني أن آتي إلى هنا فحسب. ولكن لماذا؟

أنتصب ثانيةً وأحدِّق في الملاك مقطوعِ الرأس. إنها ترفض بعناد منحي أي تنوير إلهي. أتساءل ماذا حلَّ برأسها ويديها. لعل الكنيسة خبأتها، أو لعل معتوهاً أخذها كتذكار، كي يحتفظ بها تحت ألواح أرضيته. باعتقادي، يظل ذلك أفضل من الاحتفاظ برأس حقيقي.

ثمة شيء ناقص. شيء واضح. أنظر إلى وضعية الملاك المائلة على نحو غير طبيعي، ومن ثم تخطر لي. أمشي نحو المؤخرة وأقرفص ثانيةً.

توجد فجوة حيث بدأت جذور النباتات المعترشة بدفع الملاك عن الأرض. فجوة في الأرض الرطبة. لقد غُرز شيء ما تحتها. أُدخل يدي في الحفرة فيلتوي وجهي من ملمس التربة الباردة الرطبة. هنالك رزمة من نوعٍ ما ملفوفة بكيس بلاستيكي. أشدُّها مرتين قبل أن أتمكَّن من إخراجها ثم أنفض عنها التراب وبضع ديدان وحشرات أبو مقص. أتمعَّن في المغلَّف وأنا أُقلِّبه بين يديّ. قياسه يعادل قياس ورقة من فئة 4A وسماكته تعادل نصف سماكة كتاب متوسط الحجم ورقي الغلاف، وهو ملفوف

بكيس قمامة ومربوطة بسلك كهربائي. سوف أحتاج إلى مقص لفتحه، ما يعني بأنني بحاجة للعودة إلى المدرسة.

أضع المغلّف داخلي حقيبتي (إلى جانب دفاتر ملاحظاتي وبعض المقالات التي كان يجب أن أكون منكبّاً على تقييمها الآن). أربط حزام الحقيبة ثم أقف وأعود أدراجي من حيث أتيت حول الكنيسة، ولكن بسرعة أكبر هذه المرة. وقُبيل وصولي إلى البوّابة أدرك أنني لست وحيداً. ثمة شخص جالس على المقعد الوحيد للكنيسة تحت شجرة دلب معمِّرة. شخص نحيل مألوف يجلس محنيّ الظهر. يهبط قلبي. ليس الآن. أنا بحاجة للعودة إلى المدرسة. أريد أن أفتح الكيس. لا أريد لعب دور المعلِّم المهتم أو الرجل الصالح الآن.

لكن جزءاً آخر مني –الجزء المزعج الذي يكترث حقاً للأولاد والذي دفعني نحو التعليم في المقام الأول– يبسط سيطرته على نفسي.

أمشي صوب المقعد وأقول: «ماركوس؟»

ينتفض وينظر إلى الأعلى، منكمشاً على نفسه قليلاً، مثل شخص يتوقع دائماً إهانة أو ضربة.

«ماذا تفعل هنا؟»

يتململ بارتباك ووجه مُحمرَّ، ثم يقول: «لا شيء».

«صحيح».

أنتظر، لأن هذا ما يجب عليك فعله أحياناً. لا تضغط من أجل دفع الأولاد لإخبارك ببعض الأشياء. انتظرْ ودعهم يُخرجون ما لديهم من تلقاء أنفسهم.

يتنهَّد ثم يقول: «إنني آتي إلى هنا من أجل تناول غدائي».

أوشك على أن أسأله لماذا، لكنني أمسك نفسي لأنه سيكون سؤالاً غبياً. لماذا كانت روث موور تتناول طعام غدائها في موقف الباص على الطريق خارج المدرسة كل يوم؟ لأنه أأمن. مكان للاختباء من

المتنمِّرين المعتدين. موقف باص تفوح منه رائحة البول أو مقعد رطب في مقبرة باردة أفضل من الإذلال الاعتيادي في الكافتيريا أو باحة المدرسة.

«هل ستوبّخني لأنني خارج المدرسة؟»

أجلس بجانبه محاولاً ألا أُبدي أي انعكاس لوخزة الألم الجديدة في ظهري على وجهي، ثم أجيبه قائلاً: «لا، مع أنني أشعر بالفضول بشأن كيفية إيجادك طريقة للمرور من البوابة الأمنية».

«وكأنني سأخبرك».

«وجهة نظر محقة». أتلفَّتُ حولي. «ألا يوجد مكان أفضل للجلوس فيه؟»

«ليس في آرنهيل».

وجهة نظر محقة أيضاً.

«هل أنت هنا لتتحاشى هيرست؟»

«ما رأيك؟»

«اسمعْ–»

«إذا كنتَ ستعطيني محاضرة حول أنه يتوجّب عليّ الوقوف في وجه هيرست لأن المتنمِّرين يحترمونك إن وقفتَ في وجههم، فبوسعك أخذ هذا الهراء وحشره مجدداً في حقيبتك الغبية، إلى جانب نسختك من الغارديان».

يحدِّق فيّ بتحدٍّ. وهو على حق. المتنمِّرون لا يحترمونك إن حاولتَ صدّهم، بل يضربونك بقسوة أكبر. لأنهم دائماً أكثر عدداً. معادلة عددية بسيطة.

«لن أقول لك ذلك يا ماركوس لأنه هراء. أفضل ما يمكنك فعله هو إبقاء رأسك منخفضاً والابتعاد عن هيرست، والحفاظ على نفسك بأفضل الطرق الممكنة. لن تبقى في المدرسة إلى الأبد، رغم أن هذا ما تشعر به الآن. وباستطاعتك المجيء إلي. سوف أتعامل مع هيرست. يمكنك الاعتماد علي في هذا الأمر».

يحدِّق فيَّ لوهلة، محاولاً التيقُّن مما إذا كنتُ أحاول خداعه أم أنه يستطيع حقاً الوثوق بي. لأن الحالتين ممكنتان. وبعد ذلك يهز رأسه على نحو طفيف جداً.

ثم يقول: «لستُ أنا فقط. هيرست يضايق الكثير من الأولاد. الجميع يرتعدون منه... حتى المعلِّمين الآخرين».

أفكِّر في ما قالته بث في الحانة بشأن وجود هيرست ضمن مجموعة إرشاد جوليا مورتون، وبشأن فقدان بن.

«ماذا عن السيدة مورتون؟ كانت مرشدته الاجتماعية السنة الماضية، أليس كذلك؟»

«أجل، لكنها لم تكن تخشاه. كانت أكثر... شبهاً بك».

مع الأخذ بعين الحسبان أنها قتلت ابنها ونسفت رأسها، لست واثقاً مما إذا كان يجب اعتبار هذا الكلام إطراءً أم لا.

أسأله: «هل كنتَ تعرف بن مورتون؟»

«ليس تماماً. كان في الصف الأول فقط».

«وماذا بشأن هيرست؟ هل كان هيرست يتنمَّر على بن؟»

يهز رأسه ثم يقول: «لم يكن هيرست يضايق بن. كان بن محبوباً. كان لديه أصدقاء-»

يتردد قليلاً.

«ولكن، كان هناك شيء ما؟»

يرمقني بنظرة جانبية ثم يقول: «الكثير من الأولاد الصغار يرغبون بإثارة إعجاب هيرست. بأن يكونوا بجانبه. بأن يكونوا جزءاً من زمرته».

«و؟»

«كان هيرست يجعلهم يفعلون أشياء معينة... لإثبات أنفسهم».

«مثل اختبار قبول عضو جديد؟»

يهز برأسه دلالةً على التأكيد.

«أي نوعٍ من الأشياء؟»

«مجرد مجازفات غبية وأشياء من هذا القبيل. أشياء مثيرة للشفقة حقاً».

«في المدرسة؟»

«لا. هناك مكان يعرفه هيرست... فوق موقع منجم الفحم القديم».

يتباطأ دمي ويبرد.

«فوق موقع المنجم القديم؟ أم تحته؟ هل وجد شيئاً ما هناك – أنفاق، كهوف؟»

ارتفعت نبرة صوتي.

حدَّق فيّ وقال: «لا أعلم، اتفقنا؟ لم أرغب يوماً بأن أكون فرداً من عصابة هيرست اللعينة».

لقد ضغطتُ بشدة. وهو يعلم بالتأكيد، لكنه ليس مستعداً للقول بعد. على أي حال، لدي فكرة جيدة منذ الآن. في الوقت الحالي، سأدع المسألة تمرّ. يمكننا العودة إليها في مرة أخرى. مع أولاد مثل ماركوس هناك دائماً مرة أخرى. قد يكون هيرست عشوائياً في تنمُّره، ولكن لكل متنمِّر، كالآباء، شخص مفضَّل، حتى لو لم يقل ذلك.

أنظر في أرجاء المقبرة مجدداً ثم أقول: «أتعلم، عندما كنت ولداً، كنا معتادين على تمضية الوقت هنا أحياناً».

«حقاً؟»

«أجل، كنا... نشرب، ندخِّن، وأشياء أخرى. ربما لا ينبغي لي إخبارك بهذا».

«أحب النظر إلى القبور القديمة. أسماء الأشخاص. أحب أن أتخيّل كيف كانت حياتهم».

أقول في داخلي: قصيرة وقاسية وبائسة. هكذا كانت حياة معظم الناس في القرن التاسع عشر. نحن نضفي لمسة رومانسية على الماضي في مسلسلاتنا الدرامية وأفلامنا الجذابة المستمدّة من الأعمال الأدبية. وهذا ما نفعله تقريباً مع الطبيعة. الطبيعة ليست جميلة. إنها عنيفة وغير متوقَّعة وعديمة الرحمة. كُلْ وإلا فستُؤكَل. هذه هي الطبيعة، أياً يكن الغلاف الذي تغلِّفه بها، كما يفعل أتنبورو [بيئي بريطاني ومنتج أفلام وثائقية] وفرقة كولدبليي الموسيقية.

أقول لماركوس: «معظم الناس عاشوا حياة قاسية في ذلك الزمن».

يهز برأسه ويقول بحماس مفاجئ: «أعلم. أتعرف معدل أعمار الناس في القرن التاسع عشر؟»

أرفع يدي قائلاً: «لغة إنكليزية، ليس تاريخ».

«ستة وأربعون، إذا كانوا محظوظين. وكانت آرنهيل قرية صناعية. العمال اليدويون من الطبقة الدنيا كانوا يموتون في عمر أبكر. التهابات

رئة، حوادث في المنجم، وبالطبع، جميع الأمراض العادية –الجدري، التيفوئيد، إلخ».

«ليس الزمن الأفضل كي يُولَد فيه المرء».

يُشرق وجهه. أشعر أننا وجدنا موضوعه المفضَّل. «هذا هو الشيء الآخر. في القرن التاسع عشر، كان معدل إنجاب النساء ثمانية أو عشرة أطفال. لكن الكثير منهم كانوا يموتون في سن الرضاعة أو قبل بلوغهم سن المراهقة». يصمت قليلاً ليتيح الفرصة لاستيعاب هذه المعلومات. «هل سبق لك أن لاحظتَ شيئاً غريباً بخصوص هذا المكان؟»

أنظر حولي ثم أقول: «تقصد، بعيداً عن كل الموتى؟»

يمتقع وجهه ثانيةً. يظن أنني أسخر منه.

«آسف. المزاح. عادة سيئة لدي. هلا تخبرني؟»

«ما هو الشيء الناقص في المقبرة؟»

أتلفَّتُ حولي. يوجد شيء ما بالفعل. شيء واضح. شيء كان ينبغي لي أن ألاحظه من قبل. أحسُّ به لكنني لا أستطيع تحديده تماماً.

أهزُّ رأسي نافياً ثم أقول: «تابعْ–»

«ليس هناك طفل واحد أو شاب مدفون هنا». يحدِّق فيَّ بتحدٍّ. «أين جميع الأطفال؟»

14

سألتني آني عندما كانت في عامها الثالث تقريباً: «أين جميع رجال الثلج؟»

لم يكن هذا سؤالاً عشوائياً تماماً، فقد كنا في شهر تشرين الثاني وكان الثلج قد نزل بغزارة خلال اليومين السابقين. وهرع جميع أولاد القرية إلى الخارج وراحوا يتقاذفون كرات الثلج ويصنعون منها كتلاً مشوَّهة لا تبدو مطلقاً مثل رجال الثلج الذين نراهم في الأفلام أو في بطاقات عيد الميلاد. رجال الثلج الحقيقيون لا يكونون كذلك أبداً، بل يكونوا في العادة غير مكوَّرين، ولا يكون الثلج أبيض أبداً، وإنما مخلوطاً بكمية لا بأس بها من الطين والعشب، وفي بعض الأحيان، براز كلب ما.

في عطلة نهاية الأسبوع تلك، كان هناك الكثير من رجال الثلج القبيحين هؤلاء يقفون على نحو مائل في كل حديقة وساحة. وكان باستطاعة آني رؤية بضع منهم خارج منازل الجيران من نافذة غرفتها. لقد صنعنا واحداً خاصاً بنا، بالطبع، لكنه لم يكن بذلك السوء، رغم أنه كان

صغيراً. كانت العينان والفم مكوَّنة من قطع من الفحم، وكانت القبعة واحدة من قبعاتي الصوفية القديم، أما الذراعان فقد صنعتهما من مسطرتيْن مدرسيتيْن لعدم وجود أية أشجار أو أغصان في شارعنا.

أحبّتْ آني رجل ثلجنا كثيراً وكانت تنهض من سريرها بحماس في الصباح لتنظر من نافذتها وتتحقق من أنه ما يزال موجوداً. لكن درجة الحرارة ارتفعت في اليوم الثالث، وبدأت السماء تُمطر، وفي ليلة وضحاها اختفى تقريباً كل الثلج مع جميع رجاله.

هرعت آني إلى نافذتها وصُدمت لرؤية قطع الفحم المتناثرة، والقبعات المبلّلة، والأوصال المقطَّعة رديئة الصنع.

«أين جميع رجال الثلج؟»

قلت لها: «في الحقيقة، لقد ذهب الثلج».

نظرتْ إلي بصبر نافذ وقالت: «أجل، ولكن أين جميع رجال الثلج؟ أين ذهبوا؟»

لم يكن باستطاعتها فهم أن رجال الثلج اختفوا مع ذوبان الثلج. كانوا بالنسبة إليها شيئاً منفصلاً. حقيقي، وصلب، وملموس. رجال ثلج. بعد تكوينهم، لا يمكن أن يختفوا ببساطة. لابد أن يذهبوا إلى مكان ما.

حاولت أن أشرح لها بالقول إن باستطاعتنا صنع رجل ثلج آخر عندما تُثلج ثانيةً، فقالت: «لن يكون نفسه. لن يكون رجل ثلجي».

كانت محقة. بعض الأشياء تكون كذلك –فريدة وعابرة. بوسعك نسخها، أو إعادة تكوينها، لكنك لن تستطيع أبداً إعادتها.

كل ما أرجوه هو ألا تكون آني قد ماتت فقط كي أدرك ذلك.

أجلس على الأريكة مرتدياً سترتي وواضعاً المغلَّف الغامض على طاولة القهوة أمامي. لم تسنح لي الفرصة لفتحه في المدرسة لأنني عندما عدت، كنت متأخراً مسبقاً عن الحصة التالية. واضطُّررتُ لاستغلال الاستراحة من أجل إنجاز التقييم، وبحلول نهاية الحصة الأخيرة كنت أريد فقط الخروج من المبنى.

حتى إنني رفضت عرضاً لتمضية ليلة الجمعة في الشرب مع بث وسوزان وجيمس في مشرب فوكس؛ أمر أشعر بالندم عليه الآن. صحبة جيدة وكأس جعة بارد في مشرب دافئة، وإن كانت في الفوكس، كل ذلك يبدو فجأة خياراً أفضل من منزل بارد بدون تلفزيون والصحبة الجديدة هم أصدقائي المسقسقين المنهمكين في الحمام.

أحدِّق في المغلَّف ثم أتناول المقص الذي وجدته في خزانة المطبخ وأفتح الكيس البلاستيكي بعناية. يوجد في داخله ملفّ مليء بالأوراق ومثبَّت بعصابتين مطاطيتين.

كُتب على مقدمته بقلم حبر جاف كلمة واحدة فقط هي «آرنهيل».

أتناول كأسي وأشرب جرعة كبيرة.

لكل قرية وبلدة ومدينة تاريخها الخاص بها. هناك التاريخ الرسمي؛ النسخة الجافة المجمَّعة في كتب دراسية وتقارير إحصائية، تُكرَّر حرفياً في الصفوف المدرسية.

وهناك التاريخ الذي يُتناقَل عبر الأجيال. القصص التي تُروى في المشرب، وعلى أقداح من الشاي بينما يتلوّى الرضّع في عرباتهم، وفي كافتيريا العمل، وفي باحة المدرسة.

التاريخ السري.

في 1949، حدث انهيار في منجم آرنهيل للفحم أدى إلى دفن ثمانية عشر عاملاً تحت عدة أطنان من الحطام والغبار الخانق. وأصبحت هذه الحادثة تُعرَف باسم كارثة منجم آرنهيل. ولم ينجحوا في استعادة سوى خمس عشرة جثة.

كان القرويون يتذكّرون كيف هزَّ ارتجاج مدوٍّ القرية بأكملها. اعتقدَ الناس في البداية أنه زلزال فهرعوا فزعين إلى خارجِ منازلهم، وأجلى المعلِّمون التلاميذ من صفوفهم. وحدهم كبار السن لم يهربوا، بل ظلوا يحتسون شرابهم ويتبادلون النظرات بقلق. كانوا يعلمون بأنه المنجم. وعندما يزمجر المنجم بتلك الطريقة فعلى الأرجح يكون الوقت قد فات.

وبعد الهدير جاء الغبار؛ غيوم سوداء متكثِّفة ملأت السماء وحجبت الشمس. زعقت صفارة إنذار المنجم بصوت حاد بلغ عنان السماء، تلتها صفارات إنذار سيارات الإسعاف والحريق والشرطة.

هذه هي النسخة الرسمية.

أما النسخة غير الرسمية –من سيخبر مثل هذه القصص لغريب أو صحيفة؟– فقد أقسم الكثيرون، ومنهم جدي (خصوصاً بعد بضع كؤوس كبيرة من الشراب)، بأنهم رأوا الرجال المفقودين فوق موقع المنجم في الليل. وتقول إحدى الأساطير –التي كان يُعاد سردها مع زخرفات جديدة في كل مرة– إن بضع عمّال ناجين كانوا جالسين يشربون في مشرب بُل لعدة ساعات ذات ليلة فإذا بالباب يُفتَح بقوة ويدخل كينيث دَنْ، أصغر الرجال المفقودين في ذلك اليوم (في السادسة عشرة من العمر)، ويتجه صوب البار مباشرة. كان واضحاً كالنهار وأسود كالليل بغبار الفحم.

يُزعَم أن الساقي وضع الكأس الذي كان يجففه على الطاولة ونظر إلى الفتى الميت من الأعلى إلى الأسفل ثم قال: «أخرج من هنا يا كينيث. أنت تحت السن القانوني».

قصة أشباح جيدة، ولكل قرية الكثير من هذه القصص. بالطبع لم يعترف أي عامل بوجوده هناك في تلك الليلة. وعندما كان الساقي يُسأَل عن الأمر (بعد فترة طويلة من تقاعده) كان يكتفي بالنقر على أنفه المليء بالعروق الحمراء ويقول: «سوف تحتاج لشراء الكثير من الشراب لي كي أخبرك تلك الحكاية».

ولم يتمكَّن أحد من شراء ما يكفي من الشراب له؛ رغم أن الكثيرين حاولوا.

كان مركز الرعاية الاجتماعية لعمال المنجم يقع بالقرب من الطريق العام. ليس المبنى الأصلي، الذي دُمِّر في الستينيات عندما تسبَّب انخساف أرضي بانهيار أحد الجدران فوق عدة عمّال وعائلاتهم وأدى إلى مقتل امرأتين وصبي صغير. ادّعى بعض الناس أن الصبي الصغير ظل

يجول في أرجاء المبنى الجديد، وأنه كان بالإمكان في بعض الأحيان رؤيته في الممر المظلم الطويل بين المشرب الرئيسي والمراحيض.

عندما كنت صبياً صغيراً، كنت أذهب مع أبي وأمي إلى مركز الرعاية الاجتماعية لقضاء سهرات اجتماعية عائلية في ليالي الجمعة، حيث كان أبي يشرب وأمي تشرب نصف كأس من شراب اللاجر مع الليمون بينما كانت تهز آني في عربتها، وأُترَك أنا لاحتساء مشروب غازي. في تلك السهرات، كنت أُرغم مثانتي على الصمود إلى أن نعود إلى المنزل، وإن اضطُّررت بشدة للتبوُّل، كنت أركض بأقصى سرعتي عبر ذلك الممر المظلم إلى المراحيض ثم أعود، مرتعباً من إمكانية أن أشعر بيد باردة حول معصمي وألتفت لأرى صبياً صغيراً ما يزال وجهه ملطّخاً بالغبار، وثيابه ممزَّقة، وفي رأسه شق أحمر دامٍ حيث سُحقت جمجمته.

في 1857، طَعن رجل يُدعى إدغار هورن زوجته حتى الموت وشُنق بواسطة حشد غاضب على عمود إنارة، وتُركتْ جثته في قبر قليل العمق في أرض غير مقدسة. تقول الأسطورة إنه كان ما يزال حياً عند

دفنه، وأنه شقَّ بأظافره طريقه للخروجِ من قبره، وأنه كان بالإمكان رؤيته أحياناً جالساً بجانب شاهدة قبر زوجته والتراب يغطّي شعره وثيابه. ولهذا السبب، اعتاد الناس لسنوات على إحراق دمية تمثِّل إدغار هورن في احتفال ليلة البونفاير (thgiN erifnoB)، للتأكد من موته هذه المرة.

كان أبي يسخر دائماً من هذه القصص. عندما كان يسمع جدي يروي قصة كينيث دَن، كان وجهه يمتقع ويقول: «دعك منها يا فرانك. إن الهواء الساخن الذي يخرج من فمك أكثر من ذاك الذي يخرج من فتحة المنجم».

لكن طريقته في قول ذلك جعلتني في بعض الأحيان أعتقد أنه لم يكن غاضباً بل خائفاً. لم تكن كلماته تنمُّ عن سخرية، بل عن رغبة بإبعاد أشياء كان يفضِّل عدم التفكير فيها.

حتى والدي لم يكن ينكر أن آرنهيل كانت مبتلاة بالشؤم. صحيح أنه لم يحدث المزيد من الحوادث المميتة في المنجم، لكن عدة حوادث

صغيرة تطلَّبتْ زمناً، ومالاً، وفي إحدى الحالات، بترتْ ساقيْ عامل منجم. كان الجميع يؤمن بأن المنجم مشؤوم لدرجة أن بعض العمال كانوا يرفضون إرسال أولادهم للعمل فيه. ولهذا السبب، اتُّخذ القرار بإغلاق منجم آرنهيل للأبد، رغم أنه كان ما يزال مربحاً، لوجود أطنان من الفحم تحت السطح.

وتُركت الأشياء التي بقيت في الأسفل هناك -أياً تكن ماهيّتها- مهجورةً وبدون إزعاج.

أقلِّب صفحات الملف واحدة تلو الأخرى. تُشعرني قراءتها بمتعة سقيمة. بعض ما فيها أعرفه؛ أو كنت أعتقد أنني أعرفه. ثمة تفاصيل لم أكن أعرفها. لقد حُجبتْ في سياق إعادة السرد. لطالما تخيَّلتُ إدغار هورن وحشاً جاهلاً، ولكن تبيَّنَ أنه كان طبيباً محترماً في المجتمع. إلى أن ذهب ذات مساء صيفي حار إلى الكنيسة، وتناول عشاء مكوَّناً من حساء البطاطا، ثم حزَّ رقبة زوجته بواسطة مبضع جرّاح خلال نومها.

من المثير للاستغراب أن أياً من القرويين لم يُحاسَب على قتله. كلهم غطّوا على بعضهم. أتساءل كم عدد أحفادهم الذين ما يزالون يعيشون في آرنهيل اليوم، وكم عدد من يعلم منهم –أو يبالي– بحقيقة تلوُّث أيدي أجدادهم بالدم.

بالغوص أكثر في الماضي، يصبح تاريخ القرية أشد غموضاً – الحكايات الاعتيادي التي تتحدث عن الفقر والمرض والموت المبكر. الكثير من الموت. ثمة صفحات معلَّمة بلون مختلف. أحمل واحدة منها.

سالم في نوتنغهامشير

خلال القرن السادس عشر، كانت مطاردة الساحرات منتشرة في شتى أنحاء أوروبا. بدأت المحاكمات في آرنهيل عندما اتُّهم شاب يُدعى توماس دارلينغ عمَّته [أو خالته] بمرافقة الشياطين من أجل إعادة بعض الرضَّع من الموت. بحسب دارلينغ، كانت ماري ووكيندن تأخذ الرضع المرضى إلى كهوف في التلال وتقايض أرواحهم مقابل حياة أبدية.

لا يقرع اسم دارلينغ أي جرس لدي، لكنني أذكر فتىً يُدعى جيمي ووكيندن في المدرسة. أقول في داخلي: إن الحافلة لا تغادر أبداً بالفعل. جيل بعد جيل، يولَدون ويعيشون ويموتون هنا.

أضع الصفحة جانباً وأتناول واحدة أخرى.

إزيكيريا هيرست–رجل العجائب (1794–1867)

كان هيرست معالجاً دينياً روحياً معروفاً، زُعم أنه اجترح العديد من المعجزات. يدَّعي شهود بأن هيرست شفى فتى من الشلل في ساقيه، وطرد الشيطان من امرأة، وأحيا مولوداً ميتاً. وحدثت معظم هذه العجائب في نوتنغهامشير، في قرية صغيرة تُدعى آرنهيل.

هيرست؟ هيرست؟ ليست مصادفة، بالتأكيد؟ ومعالج نصّاب يبدو بأنه يناسب إرث العائلة. معجزات ومآسي. مآسي ومعجزات. لا تحدث واحدة بدون الأخرى.

أقلب الصفحة التالية. أشعر كأن نَفَسي سُحب من رئتيَّ.

تواصل البحث عن طفلة مفقودة في الثامنة من العمر

يبتسم وجه آني لي. ابتسامة عريضة مفتوحة، وشعر معقود على شكل ذيل فرس مرفوع. كانت أمي تحاول دائماً جدله، لكن آني لم تكن تجلس الوقت الكافي لتسمح لها بفعل ذلك. كانت دائماً تريد الذهاب لفعل شيء ما. كانت دائماً تبحث عن مغامرة. دائماً تتبعني. لستُ بحاجة لقراءة هذه القصة، لأنني عشتها. أدفع الملف عني وأتناول كأسي فأجده فارغاً. غريب كيف يحدث ذلك. أقف، ثم أتوقف. أظن أنني سمعتُ شيئاً ما. صرير من المدخل. أحد ألواح الأرضية؟ اللعنة. غلوريا؟

ألتفتُ وتنحلُّ ركبتيَّ على الفور.

«مرحباً يا جو».

الحياة ليست لطيفة، مع أي منا، في نهاية المطاف.

إنها تضيف وزناً على أكتافنا، وثقلاً على خطواتنا. وتنتزع الأشياء التي تعنينا، وتُقسِّي أرواحنا بالندم.

ليس هنالك رابحون في الحياة. الحياة في جوهرها تعني الخسارة؛ خسارة شبابك ومظهرك، والأهم من ذلك كله، خسارة من تحب. أشعر أحياناً أن مضي الزمن ليس هو الذي يُهرمنا حقاً، بل مضي الأشخاص – والأشياء– الذين نكترث لهم. هذا النوع من الهرم لا يمكنك تنعيمه بالإبر أو نفخه بالمواد المالئة. الألم يظهر في عينيك. والعينان اللتان شهدتا الكثير من الأشياء ستفضحك دوماً.

مثل عينيَّ، ومثل عينيّ ماري.

تجلس بارتباك على الأريكة المترهلة. الركبتان ملتصقتان، واليدان مشبوكتان بشدة فوقهما. إنها أشد نحولاً –أشد بكثير– من الفتاة المراهقة

اليانعة التي أذكر. في ذلك الحين، كانت وجنتاها مكوّرتين، مع غمّازتين عميقتين تظهران عندما كانت تبتسم. وكانت أطرافها طويلة ومرنة، وملفوفة بلحم الشباب المشدود.

أما الآن، فإن ساقيها المغطاتين ببنطال جينز ضيِّق تبدوان مثل عَصَوين رفيعتين. ووجنتاها مجوَّفتان. غير أن شعرها ما يزال سميكاً وداكناً ولامعاً. أستغرق وهلة لأدرك أنه لابد أن يكون شعراً مستعاراً. وحاجباها خطّا قلم رصاص رفيعان مرسومان بإتقان فنّان.

أتململ في مكاني بنفس القدر من الارتباك. ثم أعيد الأوراق التي كنت أقرؤها إلى الملف وأضعه تحت إبطي. لا أعرف ماذا رأت ماري. لا أعرف كم من الوقت ظلت واقفة هناك بعد أن سمحت لنفسها بالدخول عندما لم أسمع طرقها، حسب قولها على الأقل.

«هل أجلب لك مشروباً؟ شاي، قهوة، شيء أقوى؟»

تجعلني الجملة أقف قليلاً. أرى ذهنياً كلمة كليشيه مكتوبة بخط أحمر.

تميل رأسها فيتدلى شعرها جانباً، كما في الماضي، ثم تقول: «إلى أي حد هو قوي؟»

«شراب؟ بالطبع، أنتِ لم تجرِّبي قهوتي–»

ترسم شبه ابتسامة فاترة ثم تقول: «شراب، شكراً».

أهز برأسي ثم أتجه نحو المطبخ. قلبي ينبض بعنف. وأشعر بوهن خفيف، ربما بسبب معدتي الفارغة. يجب أن آكل شيئاً ما حقاً. أو أشرب مشروباً خفيفاً.

مزيد من الشراب سيزيد شعوري سوءاً.

أفتح الثلاجة وأُخرج علبتين.

قبل الرجوع إلى غرفة الجلوس أفتح الخزانة تحت حوض الجلي وأضع الملف داخلها. ثم أعود وأضع علبة على طاولة القهوة أمام ماري. وأفتح علبتي وأشرب جرعة كبيرة. كنتُ مخطئاً فالمزيد من الشراب لم يزد

من شعوري سوءاً، ولم يجعلني أشعر بتحسُّن أيضاً، ولكن ليس هذا هو المهم.

أجلس بثقل على المقعد وأقول: «مضى وقت طويل جداً». أبدو هذه الليلة مثل ماكينة تنطق عبارات مبتذلة.

«بالفعل. ألن تخبرني بأنني لم أتغير قط؟»

أهز رأسي نافياً وأقول: «كلنا نتغيّر».

تومئ برأسها دلالة على التأكيد. تتناول علبتها وتفتح الغطاء، ثم تقول: «أجل. ولكن، ليس جميعنا نموت من السرطان».

تباغتني صراحتها. وعندما تشرب من علبتها أدرك أنه ليس مشروبها الأول هذا اليوم.

تقول: «أعتقد أنك تعلم، فهذه آرنهيل في نهاية الأمر».

أهز برأسي وأقول: «كيف يسير العلاج؟»

«لا ينفع. الورم ما يزال ينتشر. ببطء أكبر. لكنه يؤخِّر المحتوم فقط».

«أنا آسف».

كليشيه لعينة بعد كليشيه لعينة أخرى. أذكر أنني، بعد حادث الاصطدام، كنت أكره سماع الناس يقولون لي كم هم آسفين. لماذا؟ هل أنتَ من تسبَّب بالاصطدام؟ لا؟ إذن من أجل ماذا بالضبط أنت آسف؟

«ماذا يقول الأطباء؟»

«ليس كثيراً. إنهم يخافون من ستيفين لدرجة أنهم لا يتجرؤون على إعطائي إجابة مباشرة. يقول إنهم لا يعلمون كل شيء في كل الأحوال. يعتقد أن بإمكانه إدخالي إلى تجربة سريرية في أميركا. عيادة باردون هوب. علاج عجائبي جديد».

أقول في داخلي: إزيكيريا هيرست –رجل العجائب. ومن ثم أتذكَّر ما قاله لي ستيفين: ماري لن تموت. لن أدع ذلك يحدث.

أسألها: «هل قال ما هو العلاج؟»

تهز برأسها نافيةً وتقول: «لا، لكنني سأجرّب أي شيء». ثم تثبِّتُ عينيها الغائرتين على عينيّ وتضيف قائلة: «أريد أن أعيش. أريد أن أرى ابني يكبر».

بالتأكيد. كلنا نريد ذلك. مع أنه ليست هناك معجزات. ليس بدون ثمن.

أشيح بنظري بعيداً، ونشرب كلانا من علبتينا. غريب كيف أننا كلما شاطرنا الآخرين أفكارنا أكثر، كلما نضب مخزون ما يمكننا قوله.

وأخيراً تقول: «أنت تعلِّم في الأكاديمية؟»

«هذا صحيح».

«لابد أن ذلك غريب بعض الشيء؟»

«قليلاً. أنا الآن أحد الحرّاس، وليس أحد النزلاء».

«ما الذي جعلك تعود؟»

إيميل. دافع قسري داخلي. عمل غير مُنجَز. كل هذه الأشياء ولا شيء منها في الوقت عينه. في الوقع، كنتُ دائماً أعلم بأنني سأعود.

«لا أدري، حقاً. جاءني العمل وبدت لي فرصة جيدة».

«من أجل ماذا؟»

«ماذا تقصدين؟»

«كانت مفاجأة وحسب، سماع أنك عدت. لم أظن يوماً بأنك سترجع ثانيةً».

«في الحقيقة، أنت تعرفينني –بِنْس منحوس».

«لا. كنتَ واحداً من الصالحين يا جو».

أشعر بوجنتيَّ تصطبغان باللون الأحمر وفجأة أعود إلى سن الخامسة عشرة من جديد، مغتبطاً بحلاوة استحسانها لي.

أقول لها: «وماذا عنكِ أنتِ؟ ألم تغادري قط؟»

يرتفع كتفاها قليلاً بفتور ثم تقول: «كانت هناك أشياء تقف دائماً في الطريق، ومن ثم تَقَدَّم ستيفين لخطبتي».

«وقلتِ أجل؟»

«ولمَ لا؟»

أفكِّر في فتاة في الخامسة عشرة تبكي على كتفي. هناك كدمة حول عينها. ووعدٌ بأنها لم تسمح أبداً بحدوث ذلك مجدداً.

«ظننتُ أنك كنتِ تملكين خططاً؟»

«في الحقيقة، إنها لا تنجح دائماً، صحيح؟ لم أنل الدرجات التي كنت أريدها. وسُرِّحتْ أمي من العمل. وكنا بحاجة لمال إضافي ولهذا حصلتُ على عمل وتزوَّجت. نهاية القصة».

ليس تماماً، حسب ظني.

«ولديكِ ابن؟»

«أنت تعرف ذلك».

«أجل –فرع من الشجرة. أراهن أنه مصدر فخر أبيه».

ترمقني بنظرة حادة أشعر بلسعتها قبل أن تقول: «كلانا فخوران بجيريمي».

«حقاً؟»

«أليس لديك أولاد؟»

«لا».

«لا يمكنك أن تحكم إذن». تجعِّد علبتها. «ألديك واحدة أخرى؟»

«هل أنتِ متأكدة؟»

«في الواقع، من المستبعَد أنها ستقتلني».

أقف وأذهب إلى المطبخ وأتناول علبتين أخريين من الثلاجة. ومن ثم أتوقف. لابد أن ماري جاءت بسيارتها إلى هنا. رأيتها تضع مفاتيح سيارتها في حقيبة يدها. ربما لا ينبغي لها أن تشرب المزيد وتقود السيارة إلى المنزل.

ليست مشكلتي. أعود إلى غرفة الجلوس وأعطيها العلبة.

تتلفَّتُ حولها ثم تقول: «هذا المنزل بارد».

«أجل. لا تعمل التدفئة بشكل جيد».

ولكن ليس هذا هو بيت القصيد.

«لماذا هنا؟»

«جاءني وحسب».

«مثل العمل».

«أجل».

«هذا كله هراء».

أخيراً بصقتِ الكتلة المرّة التي كانت تنتظر بصقها منذ مجيئها.

«إذا جئتَ من أجل نبش الماضي–»

«ماذا؟ مم تخافين؟ مم يخاف هيرست؟»

تصمت لوهلة ثم تجيب بنبرة ألطف: «أنتَ رحلت. ونحن البقية ما زلنا هنا. أنا أطلب منك أن تترك الأمور على حالها. ليس من أجل ستيفين. من أجلي أنا».

فهمت.

«هو من أرسلك، أليس كذلك. لم ينجح زعرانه ففكَّر في أنك قد تتمكّنين من اللعب على مشاعري، وتقنعينني، كُرمى للأيام القديمة؟»

تهزُّ رأسها نافيةً ثم تقول: «إذا أراد ستيفين رحيلك، ما كان ليرسلني. كان سيرسل شخصاً ما لإنهاء العمل الذي بدأه أولاد فليتش».

«أولاد فليتش؟»

صحيح. الممتلئ وصاحب الشعر الغبي. لهذا السبب بدوا مألوفيْن. كان يجب علي أن أحزر. لطالما كان فليتش هو القوي عديم العقل عندما كنا صغاراً. والآن يواصل أولاده إرثه.

«كان ينبغي لي حقاً أن ألحظ الشبه العائلي. طريقة مشيتهما الثقيلة».

يحمرُّ وجهها. أشعر بانقباض، ولكن ليس في قلبي. إنه الانقباض الذي تشعر به في أحشائك عندما تتأكَّد لك أسوأ مخاوفك.

«كنتِ تعرفين بشأن حفلة استقبالي؟»

وهذا يفسِّر عدم استفسارها عن الكدمات في وجهي عند وصولها.

«ليس إلا لاحقاً. أنا آسفة».

«وأنا أيضاً».

تقف ثم تقول: «يجب علي الذهاب. كان هذا أمراً غبياً، مضيعة للوقت».

«ليس تماماً. يمكنكِ إيصال رسالة لهيرست».

«لا أظن ذلك».

«أخبريه بأنني أملك شيئاً يخصه».

«أشك في أنك تملك أي شيء يريده ستيفين».

«سَمِّهِ تذكاراً. من المنجم».

«كُرمى لله، كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً. كنا مجرد أطفالاً».

«لا، أختي كانت مجرد طفلة».

أشعر بالرضا لرؤية وجهها النحيل الأصفر يمتقع، الأمر الذي ربما يَشي بوجود شيء ما في داخلي.

«أنا آسفة بشأن آني».

«وماذا بشأن كريس؟»

«كان هذا خياره».

«صحيح؟ لماذا لا تسألين هيرست شيئاً آخر. اسأليه إن كان كريس قفز حقاً».

16

1992

وجدها كريس. كانت هذه موهبته. إيجاد الأشياء.

كان كريس، مثلي، يمثِّل إضافةً غير عادية إلى زمرة هيرست؛ طويل هزيل ذو شعر أشقر قريب من البياض واقف مثل قشٍّ مكَهْرب، وتَأْتَأَة تزداد سوءاً عندما يكون متوتراً (وكحال معظم الأولاد غير الاعتياديين والمنبوذين اجتماعياً، أمضى كريس الكثير من أيامه الدراسية متوتراً).

لم يكن بوسع أحد سواي فهم السبب الذي دفع هيرست لأخذه تحت جناحه. صحيح أن هيرست كان متنمِّراً، لكنه كان ذكياً أيضاً ويعرف من يسحق وبمن يحتفظ. وكان كريس نافعاً في بعض الجوانب –أعتقد أننا كنا جميعاً كذلك.

كان رفاق هيرست العاديين يشكلون الخليط المألوف من الاستعراضيين والعدوانيين، لكن دائرته الداخلية كانت مختلفة بعض الشيء. كان فليتش هو العضلات؛ العدواني العنيف عديم العقل الذي يضحك لنكات هيرست، ويسحق الرؤوس. وكان كريس هو الدماغ؛ العبقري المنبوذ المساء فهمه. لقد ساعدنا ولعه بالعلوم على صنع أفضل القنابل كريهة الرائحة يدوية الصنع على الإطلاق، وابتكار أفخاخ خادعة لضحايا غافلين، وفي إحدى المرات، تفجير كيماوي تسبَّب بإخلاء المدرسة كلها وطرد معلِّم علوم بديل.

لكن كريس كان يمتلك صفة غريبة مفيدة أخرى؛ الفضول الشديد. رغبةٌ في اكتشاف الأشياء، وإيجادها. وقدرةٌ على رؤية أشياء لا يستطيع الآخرون رؤيتها. إذا أردتَ الحصول على بعض من أوراق الامتحان، كان كريس سيجد طريقة للحصول عليها. أو بقعة لتقف عليها في الحقول وتمكِّنك من رؤية غرفة تبديل ثياب الفتيات، كان بوسع كريس حساب أفضل نقطة ممكنة. أو طريقة للدخول إلى محل بيع الجرائد وسرقة السكاكر والمفرقعات النارية، كان بمقدور كريس ابتكار خطة لفعل ذلك.

لو لم تتحطَّم جمجمته فوق باحة المدرسة ويُراق دماغه على الأرض الإسمنتية الرمادية المبقّعة، لأصبح كريس إما مقاولاً مليارديراً أو عقلاً إجرامياً مدبّراً. هذا ما كنت أظنه دائماً.

حين دخل مندفعاً بعجلة إلى حديقة اللعب في أمسية يوم الجمعة تلك، متأخراً كالعادة –لأن كريس كان يتأخر دائماً، ليس بصورة جذّابة، بل بوجه أحمر مرتبك، وربطة عنق مائلة، وقميص ملوَّث بآثار طعام– كان أشد ارتباكاً وهياجاً من المعتاد. عرفتُ على الفور أن هناك شيئاً ما.

«هل أنت بخير كريس؟»

«الموقع. و–و–وجدتُ. أ–أ–أرضاً».

عندما يكون كريس متوتراً تزداد تأتأته سوءاً، ولهذا السبب أصبح كلامه غير مفهوم على نحو شبه كلي.

نظرتُ إلى هيرست وفليتش. لم تكن ماري معنا في ذلك اليوم لأنها كانت مضطّرة لمساعدة أمها في بعض الأعمال المنزلية، ولهذا

السبب كنا نحن الثلاثة فقط، نقتل الوقت ونتحدَّث في أشياء تافهة. وكان ذلك أمراً جيداً في أحد جوانبه. فعلى الرغم من شدة إعجابي بماري – تلك هي المشكلة؛ كنتُ معجباً جداً بماري– إلا أنها كانت ترافقنا لتكون مع هيرست، الذي كان يضع ذراعه على نحو تملُّكي حول كتفيها.

رمى هيرست سيجارته نصف المدخَّنة على الأرض، وقفز عن هيكل التسلُّق ونظر إلى كريس في ذلك الشَفَق الضبابي.

«لا بأس يا صديقي. هدِّئ من روعك. تبدو مثل لعبة تَكلَّمْ وهجِّئْ لعينة».

قهقهَ فليتش كما لو أن شخصاً ما ملأ سيجارته بغاز الضحك.

ازدادتْ وجنتا كريس حمْرةً في وجهه الشاحب وأصبح لونهما مثل لون سيارة إطفاء. كان شعره متشابكاً مثل كومة قش عصفت بها الرياح، وكانت كنزته مجعَّدة ومغطاة بالتراب. لكن أكثر ما لفت نظري فيه هما عينيه. عيناه الزرقاوان القلقتان أبداً كانتا متَّقدتيْن في ذلك المساء. في بعض الأحيان، كان كريس يبدو نوعاً من ملاك مخبول جميل –مع أنني لم

أكن أحب الاعتراف بذلك، لأنه كان يجعلني أبدو غريباً بعض الشيء وشاذاً.

قلتُ لهيرست: «اتركه».

كنتُ الوحيد القادر على الإفلات بالتحدُّث مع هيرست بهذه الطريقة. لأنه كان يصغي إلي. أظن أن هذه هي فائدتي. كنتُ صوت العقل عنده. كان يثق بي. وحقيقة أنني كنت في الغالب أنجز فرض اللغة الإنكليزية عنه لم تكن تضرُّ أيضاً.

أطفأتُ سيجارتي. لم أكن أحب التدخين كثيراً، مثل الشراب، لأن المذاق كان يجعلني أرغب في البصاق ومسح لساني. لكنني، بالطبع، كبرتُ ونضجتُ وأصبحت أكثر حكمةً، وإدماناً، منذ ذلك الحين.

قلتُ لكريس: «تنفَّسْ. تحدَّث على مهل. أخبرنا».

أومأ كريس برأسه دلالة على الموافقة وحاول ضبط شهيقه وزفيره المهتاج. ثم أطبق يديه معاً بقوة أمامه محاولاً السيطرة على أعصابه وتأتأته.

تمتم فليتش قائلاً: «متخلِّف معتوه». ثم بصق كرة ضخمة من البلغم على الأرض.

رمقني هيرست بنظرة مفهومة، فمددتُ يدي إلى جيبي وأخرجتُ لوحِ علكة «وام» ذائبة قليلاً وقدَّمتها لكريس، مثل إعطاء شيء محبَّب لجرو.

«خُذْ».

بخلاف المعتقَد السائد في هذه الأيام، كانت السكّريات الشيء الوحيد تقريباً القادر على تهدئة كريس. لهذا السبب ربما كان يحتفظ بشيء منها معه على نحو شبه دائم.

أخذ كريس لوحِ وام ولاكها قليلاً، ثم قال: «كنت فوق... عند المنجم القديم».

«تمام».

جميع الأولاد كانوا يذهبون إلى هناك أحياناً ويمرحون لبعض الوقت. قبل شروعهم بتدمير المباني القديمة، كنا نتسلَّل إلى الداخل ونسرق بعض الأشياء. أشياء لا قيمة لها؛ قطع معدنية وأجزاء من آليات قديمة، فقط لنثبت أننا كنا هناك. غير أن كريس كان يقصد ذلك المكان كثيراً لوحده، وكان هذا غريباً. ولكن، في الحقيقة، كل شيء يتعلق بكريس كان غريباً لدرجة أن ذلك أصبح طبيعياً بعد فترة. عندما سألته ذات مرة حول سبب تردُّده كثيراً إلى هناك، قال:

«يجب أن أبحث».

«عن ماذا؟»

«لا أدري بعد».

كان من الممكن أن تكون الحوارات مع كريس مثيرة للإحباط. كظمْتُ انزعاجي بينما كان يكافح لإيجاد كلماته دون أن تتقطَّع على لسانه إلى أجزاء.

وأخيراً، قال: «وجدتُ شيئاً. في ال–ل–لأرض. ي–ي–يمكن أن يكون طريقاً للدخول».

«الدخول إلى ماذا؟»

«المنجم؟»

حدَّقتُ فيه. كان ذلك غريباً. كأنني سمعتُ هذه الكلمات من قبل، أو كنتُ أتوقعها. اجتاحت رعشةٌ جسدي كله. المنجم.

خطا هيرست بضع خطوات واسعة رشيقة وقال: «وجدتَ طريقاً للدخول إلى أنفاق المنجم القديمة؟»

قال فليتش: «رائع».

هززتُ رأسي نافياً وقلت: «مستحيل. لقد سُدَّتْ جميعها، وفي كل الأحوال، يبلغ عمق تلك المداخل، تقريباً، مئات الأقدام».

نظر هيرست إلي ثم هز برأسه مؤكّداً وقال: «ثورني على حق. هل أنت متأكد يا فطيرة العجين؟»

فطيرة العجين هو اللقب الذي أطلقه هيرست على كريس لأنه كان «طرياً كالعجين».

نَقَّلَ كريس نظراته بيننا بعجز مثل أرنب عملاق علقَ بأضوائنا الكاشفة. ثم بلع ريقه وقال: «ل–لا–لا أعرف على نحو أكيد. سأريكم».

لم أدرك إلا لاحقاً، بعد تفكير مليّ –وقد تسنّى لي متّسع من الوقت للتفكير فيه– بأن كريس لم يُجبْ أبداً على سؤال هيرست.

«طريق للدخول إلى أنفاق المنجم القديم؟»

هذا ما افترضنا أنه قصده. لكنني لا أعتقد أن ذلك ما عَناه، حتى في ذلك الحين. بل كان يقصد «الحفرة». كأنه كان يعرف مسبقاً ماذا كانت. و«الحفرة» كانت شيئاً مختلفاً أشد الاختلاف بالفعل.

كان الضوء قد بدأ يفلت قبضته عن النهار عند وصولنا إلى هناك. كنا في أواخر آب، الأيام الأخيرة من عطلة الصيف، حيث تظلم الليالي في وقت أبكر، كما كانت تقول أمي (الأمر الذي كان يجعلني أفكر في

شخص يتناول قطعة فحم كبيرة ويشخبط على النهار « *sthgin eht*
ni gniward erew »)).

أعتقد أننا كنا جميعاً نحسُّ بذلك الشعور بنهايات الأشياء، كما يشعر جميع طلاب المدارس عندما توشك عطلة الصيف على الانقضاء. وأظن أننا كنا نعرف أيضاً أنه كان صيفنا الأخير كـ «أولاد»، ففي العام التالي كنا سنخضع لامتحانات، وسيغادر الكثير من زملائنا المدرسة إلى العمل مباشرةً –حتى في التسعينيات– ولكن ليس إلى المنجم كما اعتادوا أن يفعلوا سابقاً.

في ذلك الوقت، كان موقع المنجم القديم مجرد جرح موحل ضخم على سطح الأرض. وكانت الأعشاب والأجمات القصيرة قد بدأت تُحكم سيطرتها على المكان. لكن المنطقة كانت ما تزال مغطّاة، في معظمها، بالسواد بسبب غبار الفحم، وتتناثر فوقها الصخور، وآليات صدئة، وأجزاء معدنية حادة، وكتل إسمنتية.

أدخلنا أنفسنا عبر ثغرة في السياج الأمني غير الفعَّال المحيط بالموقع حيث تنتشر لافتات، مثل «خطر»، «ممنوع»، و«التجاوز محظور»، ولكن يمكن قراءتها أيضاً كأنها تقول: «أهلاً بك»، و«تفضَّلْ بالدخول»، و«أتحدَّاك».

قاد كريس طريقنا نحو المكان. أو بالأحرى، تسلَّق وانزلق وتعثَّر ثم توقَّف ونظر حوله، ومن ثم تسلَّق وانزلق وتعثَّر مرة أخرى.

قال هيرست له لاهثاً: «اللعنة يا فطيرة العجين، هل أنت واثق بأنك تسير في الطريق الصحيح؟ المداخل القديمة تقع خلفنا في ذاك الاتجاه».

هزَّ كريس برأسه وقال: «في هذا الاتجاه».

نظر هيرست إلي فرفعتُ كتفيَّ وقلت: «امنحه فرصة».

واصلنا طريقنا المرتبك إلى أن وصلنا إلى قمة إحدى التلال الموحلة المنحدرة، حيث توقَّف كريس وتلفَّتَ حوله مطوَّلاً مثل كلب

ضخم يشمُّ الهواء. وبعد ذلك انزلق على المنحدر الحاد فوق الحصى والأنقاض.

قال فليتش بانزعاج: «لن أنزل إلى هناك».

أعترف أنني كنت أرغب في الرجوع، لكنني شعرتُ في الوقت عينه بإثارة غريبة مشوبة بالغبطة. مثلما تشعر عندما ترى أفعوانية في مدينة ألعاب ولا ترغب في الركوب فيها لأنها تبدو مخيفة للغاية لكن جزءاً آخر منك، في الوقت عينه يرغب في ذلك بشدة.

نظرتُ إلى فليتش ولم أستطع مقاومة السخرية منه: «خائف؟»

فحملق فيَّ بغضب وقال: «اللعنة عليك!»

ارتسمتْ ابتسامة عريضة على وجه هيرست، الذي يكون في أسعد حالاته عندما يحدث خلاف بين جنوده.

ثم صاح: «جبناء!» وانزلق على المنحدر مع صرخة إثارةٍ مدوّية. وتبعته أنا، ولكن بحذر أكبر. أما فليتش فشتم مجدداً قبل أن يفعل الشيء ذاته.

وفي الأسفل قال فليتش متذمِّراً: «لن نستطيع رؤية أي شيء الآن».

سأل هيرست كريس: «كم بقي لنا؟»

صاح كريس من الأمام: «وصلنا». ثم اختفى عن الأنظار.

رمشتُ بعينيَّ ونظرت حولي ثم لمحت شيئاً رمادي اللون. كان مقرفصاً في بقعة منخفضة قليلاً. لم تكن لتراه لو نظرتَ بشكل عابر. لحقنا به نحن الثلاثة. كان هناك بقع متفرقة من الأعشاب والأجمات توفِّر مزيداً من التمويه مع عدة صخور كبيرة متناثرة في المكان. حرَّك كريس جانباً اثنتين منها فأدركتُ أنه وضعهما بنفسه عن قصد كعلامة.

أزال التراب والأحجار الصغيرة بيديه ثم جلس على كعبيه وحدَّق فينا بنظرة انتصار.

قال فليتش: «ماذا؟» بصق باشمئزاز. «لا يمكنني رؤية أي شيء».

حدَّقنا جميعنا بأعين نصف مغمضة في تلك البقعة المكشوفة من الأرض. صحيح أنها كانت غير مستوية بعض الشيء ومختلفة اللون على نحو طفيف عن الأرض المحيطة بها، ولكن ليس أكثر من ذلك.

قال هيرست بغضب: «هل تسخر مني يا فطيرة العجين؟» ثم أمسكه من ياقة بلوزته. «لأنه إذا كانت هذه حيلة ما—»

اتّسعتْ عينا كريس وقال: «ليس هناك أي حيلة».

فكَّرتُ لاحقاً في حقيقة أنه لم يتأتئ حينئذ، رغم أن هيرست كان يقبض على ياقته بقوة.

قلت لهيرست: «انتظرْ». انحنيت مقترباً من الأرض أكثر، وأزلت بيدي مزيداً من التراب فأحسست بشيء أشد برودة يلامس أطراف أصابعي. معدن. ثم جلستُ، وفجأةً رأيتها.

كان هناك شيء دائري الشكل صدئ اللون يشبه تقريباً لون الأرض المحيطة به، ولكن ليس تماماً. كان يبدو مثل غطاء عجلة سيارة قديم، لكنك إن نظرتَ بتمعُّن فسترى أنه أكبر بكثير من غطاء عجلة وأكثر سماكة أيضاً. كانت هناك نتوءات دائرية صغيرة حول الأطراف، تشبه البراغي، وفي الوسط دائرة أخرى مرتفعة على نحو طفيف فيها أخاديد.

قلتُ: «هناك. هل يمكنك رؤيتها الآن؟»

أشرتُ إلى الأرض ونظرتُ إلى الآخرين.

أفلتَ هيرست كريس ثم قال: «ما هذه بحق العاهرات؟»

قال فليتش، مكرِّراً أفكاري الأولية: «إنها غطاء عجلة قديم».

لكن هيرست قال على الفور، مكرراً فكرتي الثانية: «كبيرة جداً». ثم نظر إلى كريس وأضاف قائلاً: «وماذا بعد؟»

حدَّق كريس فيه كما لو أن الإجابة واضحة ثم قال: «إنها فتحة مغطّاة».

«ماذا؟»

قلتُ: «إنها مثل فتحة للنزول إلى ما تحت سطح الأرض».

ارتسمتْ ابتسامة عريضة على وجه هيرست ثم قال: «رائع». ثم نظر ثانيةً إلى الشكل الدائري في الأرض. «وماذا يعني ذلك؟ نوع من فتحة طوارئ للمناجم أو شيء من هذا القبيل. أظن أنني سمعت بها من قبل».

أما أنا فلم أسمع بها مطلقاً. لقد عمل أبي في المناجم طوال حياته، وأعرف أن للمناجم منافذ من أجل تهويتها. لكنني لم أفهم كيف

كان هذا سيساعدنا، فتلك المنافذ كانت تشبه مداخن المواقد، ويبلغ عمقها نحو ثلاثمائة قدم. لم يكن هذا مدخلاً، بل انتحاراً.

كنتُ على وشك إيضاح ذلك حين قال هيرست لكريس: «تابعْ إذن. افتحها».

فقال كريس باستغراب: «لا أستطيع».

«لا تستطيع؟» هزَّ هيرست رأسه باشمئزاز. «تبّاً لك يا فطيرة العجين».

ثم انحنى وحاول الإمساك بحواف الشيء المعدني، غارزاً أصابعه تحته. لكنه كان كبيراً وثقيلاً جداً لدرجة أنه لم يفلح في تحريكه قيد أنملة.

عَنَّ وهو يحاول تحريكه مجدداً ثم صرخ بنا: «ماذا؟ هيا، ساعدوني يا مجموعة المخنثين».

امتثلتُ رغم خوفي، وكذلك فعل فليتش. غرزنا جميعنا أصابعنا في التراب وحاولنا الإمساك بحواف ذلك الغطاء المعدني، لكنه لم يتحرَّك.

كان سميكاً جداً ومغروزاً عميقاً في الأرض. ولعله لم يُلمَس لسنوات. شددنا وجذبنا وفتلنا بكل ما أوتينا من قوة، لكنه لم يتزحزح أبداً.

قال هيرست وهو يلهث: «اللعنة على هذا». وسقطنا جميعاً على مؤخراتنا لاهثين، منهكين، وممتنّين.

نظرتُ مجدداً إلى الدائرة المعدنية الغريبة. صحيح أنها كانت عالقة بثبات في الأرض، ولكن إذا كانت نوعاً ما من فتحات الطوارئ أو منافذ للدخان، فلابد من وجود مقبض أو ذراع من أجل رفعها بسرعة عند الضرورة، فهذه هي الغاية من وجودها أساساً. غير أنه لم يكن هناك أي شيء سوى تلك الدائرة الثانية الغريبة التي بدت وكأنها وُضعتْ كيلا تُفتَح أبداً؛ كيلا تسمح بدخول أو خروج أحد.

قال هيرست: «صحيح. نحن بحاجة لجلب بعض الأدوات المناسبة ورفعها».

فقلت باستغراب: «الآن؟» كان الضوء حينئذ قد خفت لدرجة أنني بالكاد كنت أستطيع رؤية الدوائر الضبابية لوجوههم.

«ما الأمر؟ هل جبنتَ يا ثورني؟»

قلت باستياء: «لا. ما أريد قوله هو أن الظلام بدأ يصبح دامساً. لم يعد لدينا متسع من الوقت. إذا كنا سندخل، فيجب أن نكون مستعدين».

لم أكن أقصد بذلك أنني كنت أريد الدخول –إذا كانت هناك إمكانية للدخول أساساً– لكنها بدت لي الحجة الأمثل في حينه.

ظننتُ بأنه سيردُّ علي بحجة أخرى، غير أنه قال: «أنت محق. سوف نعود غداً». نظر إلينا جميعاً. «سنحتاج إلى مصابيح كشّافة» –ابتسم ابتسامة عريضة– «وعتلة».

غطّينا الدائرة المعدنية بالتراب والصخور، وترك هيرست ربطة عنقه المدرسية معقودة بشكل رخو على الأرض كعلامة. لم تكن لتلفت نظر أي عابر في ذلك المكان، لأن ربطات العنق والأحذية الرياضية والجوارب غالباً ما كانت تُرى مبعثرةً في أماكن متفرقة من موقع المنجم القديم.

مع زوال الأثر الأخير للضوء من السماء، رجعنا أدراجنا بخطىً منهكة نحو القرية. لستُ واثقاً، ولكن أعتقد أنني نظرت إلى الوراء مرة أخرى، وانتابني إحساس مبهم بالقلق. لم يكن ممكناً رؤية أي شيء من ذلك البُعد، لكنني مع ذلك تمكّنتُ، ذهنياً، من رؤية ذلك الغطاء المعدني الصدئ الغريب.

لم يعجبني الأمر.

عتلة؟ لم تعجبني هذه أيضاً.

لم أعد قادراً على الجلوس بارتياح بعد مغادرة ماري. عاد الألم إلى ساقي مجدداً، ورغم إضافة كأس كبير من شراب الشراب وقرصيْن من الكوديين، إلا أن كل ذلك لم يستطع تهدئة أعصابي الواخزة.

الجلوس يؤلم ساقي، والمشي يجعلها تنبض. أشتمُ وأبدأ بتمسيدها بعنف. أحاول تلهية نفسي بقراءة كتاب، والاستماع لبعض الموسيقا. وبعد ذلك أقف وأدخِّن عند الباب الخلفي؛ مجدداً.

وعقلي أيضاً يعمل في دوام إضافي. اخنقِ الأطفال الصغار. اعتدِ عليهم. وليتعفَّنوا في رقادهم. إنه يحدث مجدداً. لابد أن مُرسل الرسالة هو نفس الشخص الذي أرسل الإيميل لي. وإذا كان يعلم بشأن الملاك، فلابد أنه يعرفني طوال تلك السنين. ليس هيرست، ولا ماري. فليتش؟ لستُ واثقاً من قدرة فليتش على إرسال رسالة نصية مُحكَمة. فمن يكون إذن؟ والأهم من ذلك، لماذا، لماذا، لماذا؟

لم تساعد زيارة ماري غير المتوقّعة حالة الحيرة المشوَّشة التي أمرُّ فيها. لستُ متأكداً من أنني فعلتُ الصواب. من أنني أظهرتُ أوراقي بتعجُّل. المقامر الجيد لا يفعل ذلك أبداً؛ ليس دون أن يكون متأكداً من الأوراق التي يحملها اللاعب الآخر.

لكنني لا أملك الكثير من الوقت. ليس كما كنتُ أتوقع. لأن غلوريا هنا. تنتظر. بصبر نافذ. تنقر بأظافرها الحمراء اللامعة. وإن لم ألبِّي مطالبها سريعاً، فإن اللعبة ستنتهي. لأنني سأكون ميتاً، على الأرجح بلا يدين، أو قدمين، أو أي شيء يمكن أن يُستخدَم للتعرُّف على هويَّتي.

أرمى سيجارتي في الظلام وأراقب النهاية الحمراء المتوهجة تخفت ثم تخمد. ثم أستدير وأتوجه إلى المطبخ وأتناول الملف من تحت حوض المجلى. من أخدع هنا؟ أعرف بأنني سأقرؤها. أصبُّ لنفسي كأساً آخر وأعود إلى غرفة الجلوس وأضعه على طاولة القهوة أمامي.

الأعصاب الواخزة في ساقي ليست الوحيدة المتوترة في هذه الليلة. أحسُّ بالمنزل يتحرَّك حولي. يبدو لي كأن الأضواء تضعف وتخفت

بين الحين والآخر –ليس أمراً جديداً بالنسبة لتزويد الكهرباء في قرية– ولكن يمكنني سماع شيء ما أيضاً. ضجيج. مألوف. مثير للقلق. صوت السقسقة الخافتة نفسها. إنه يجعل حشوات أسنانيَ تطنُّ وجلديَ يقشعرُّ. طنين خارجي مزعج.

أتساءل إن كانت جوليا تجلس هنا محاولةً تجاهل الضجيج الخافت المدمِّر نفسه، ليلة بعد ليلة. أم هل جاء لاحقاً؟ الدجاجة والبيضة. هل ما حدث لبنجامين غيَّر المنزل بطريقة ما؟ أم هل ساهم المنزل في ما حدث؟ هل كان البرد المتغلغل والحركة السريعة في الجدران يغذِّيان مخاوف ووساوس جوليا؟

أمرِّر يديَّ في شعري ثم أفرك عينيّ. يبدو أن السقسقة أصبحت أعلى. أحاول تجاهلها. أقلِّب صفحات الملف إلى أن يُشعَّ وجه آني في وجهي مجدداً.

تواصل البحث عن طفلة مفقودة في الثامنة من العمر. العنوان، ولكن ليس القصة كلها. بل يكاد لا يمتُّ إليها بصلة.

وضعها أبي في السرير في الثامنة مساء من تلك الليلة. أو هذا ما كان يعتقده، لأنه كان ثملاً، كحاله في معظم الليالي في ذلك الحين. كانت أمي في منزل جديَّ لأن جدتي وقعت قبل بضعة أيام وكسرت معصمها. وأنا كنتُ مع هيرست وزمرته. لم تكتشف أمي حتى صباح اليوم التالي أن آني لم تكن في سريرها، أو في غرفتها، أو في أي مكان في المنزل.

اتّصلا بالشرطة. وبعد طرح الأسئلة اللازمة، أُجريتْ عمليات تفتيش، حيث انتشر عناصر شرطة ببذاتهم الرسمية ورجال محليون في صفوف غير مستقيمة فوق موقع المنجم القديم وما خلفه من حقول، محنيِّي الأكتاف في وجه المطر الشديد، بمعاطفهم الطويلة المضادة للماء، التي جعلتهم يبدون مثل نسور عملاقة، وراحوا يمشون ببطء، كما لو أنهم كانوا يتبعون إيقاعاً داخلياً حزيناً، ويمشّطون الأرض بعصيّ وفروع أغصان.

طلبتُ، بل توسّلت، الذهاب معهم لكن شرطياً مُلْتَحٍ سمح الوجه وضع يده على كتفي وقال بلطف: «لا أعتقد أنها فكرة جيدة يا بني. من الأفضل لك البقاء هنا ومساعدة أمك».

غضبتُ في ذلك الحين لأنني ظننت أنه كان يعاملني كطفل، كمصدر إزعاج. لكنني أدركتُ لاحقاً بأنه كان يحاول حمايتي، من إيجاد جثة أختي.

كان بوسعي إخباره بأن الوقت فات على حمايتي. كان بوسعي إخبار الشرطة بالكثير من الأشياء لكن أحداً لم يشأ الإصغاء. حاولت. أخبرتهم أن آني كان تتبعني أحياناً عندما كنت أخرج مع رفاقي، وتتسلّل من البيت خلسةً، وأنني أعدتها إلى البيت من قبل. هزّوا برؤوسهم ودوّنوا بعض الملاحظات، لكن ذلك لم يغيِّر أي شيء في الواقع. لقد علموا أن آني تسلَّلت وخرجت من المنزل لكنهم لم يكونوا يعلمون إلى أين ذهبت.

الشيء الوحيد الذي لم يكن باستطاعتي إخبارهم إياه هو الحقيقة –ليس الحقيقة كلها، لأنه ما كان سيصدِّقني أحد. ولم أكن أنا نفسي واثقاً بأنني كنت أصدِّقها.

مع مرور كل ثانية، ودقيقة، وساعة، كان الرعب والشعور بالذنب ينموان في داخلي. لم أدرك في حياتي أيَّ جبان كنت مثلما أدركت في الساعات الثماني والأربعين التي كانت أختي مفقودة خلالها. كان الخوف يصارع ضميري ويمزقني داخلياً. ولا أعرف أيهما كان سيفوز في النهاية لو لم يحدث المستحيل. أقلب الصفحة:

العثور على الفتاة المفقودة ذات الأعوام الثمانية –سعادة الوالديْن!!

كنت في المطبخ أعدُّ خبزاً محمّصاً لأمي وأبي عندما عادت آني. كان الخبز قديماً وعفناً بعض الشيء لأن أحداً مناً لم يتسوَّق منذ الأسبوع السابق. أزلتُ العفن ووضعت الخبز في الشوّاية، لكن ذلك كان بلا فائدة

لأنهما لم يكونا سيأكلان على أي حال، وسأرمي الخبز في صندوق القمامة مع وجبات اليوم السابق غير المأكولة.

سمعنا طرقاً على الباب فنظرنا ثلاثتنا نحوه لكننا لم نتحرك. ثلاث دقات. هل هذا يعني خبراً؟ أصغينا للدقات كما لو كانت شيفرة مورس. طق، طق، طق. جيد أم سيئ؟

أمي هي التي نهضت أولاً. ربما لأنها كانت الأشجع فينا، أو ربما لأنها تعبت من الانتظار فحسب. كانت بحاجة للخلاص بطريقة أو بأخرى. دفعت الكرسي إلى الخلف ومشت مترنِّحةً صوب الباب. لم يتحرك أبي قيد أنملة، أما أنا فبقيت في الممر. كنت أشم رائحة احتراق الخبز، لكننا لم نتحرَّك لسحبه من الشوّاية.

فتحت أمي الباب فرأت شرطياً واقفاً خلفه. لم يكن باستطاعتي سماع ما كان يقول، لكنني رأيت أمي ترتخي وتمسك بإطار الباب. توقّفَ قلبي عن الخفقان ولم أعد قادراً حتى على بلع ريقي والتنفس. وبعد ذلك التفتتْ وصرختْ.

«إنها حيّة! لقد وجدوها! لقد وجدواْ طفلتنا!»

ذهبنا إلى مركز الشرطة معاً (كانت آرنهيل تملك مركزاً خاصاً بها حينئذ) محشورين في المقعد الخلفي لسيارة شرطة زرقاء وبيضاء –أمي وأبي دامعا العينين فرحاً وارتياحاً وأنا كتلة متعرِّقة من الأعصاب المتوترة. أثناء ترجُّلنا من السيارة ارتخت ساقاي فأمسكني أبي من ذراعي وقال: «هدِّئ من روعك يا بني. سيكون كل شيء على ما يرام الآن».

كنت أريد تصديقه حقاً. ولطالما اعتقدتُ أن أبي كان محقاً في كل شيء. كنتُ أثق دائماً في كلمته. ولكن، حتى في ذلك الحين، كنت أعرف أن الأمور لم تكن على ما يرام، وأنها لن تكون كذلك أبداً من جديد.

قال لنا الشرطي بينما كنا نمشي عبر الممر الأزرق الباهت الطويل: «لم تخبرنا الكثير. اسمها فقط. وطلبتْ مشروباً».

هززنا برؤوسنا نحن الثلاثة.

ثم قالت أمي فجأة: «هل أخذها شخص ما؟ هل آذاها أحد؟»

«لا ندري. وجدها شخص كان ينزِّه كلبه تائهةً فوق موقع المنجم القديم. ليست هناك أية إصابات جسدية فيما يبدو. إنها تشعر بالبرد فقط وتعاني من نقص طفيف في السوائل».

سأله أبي: «هل يمكننا أخذها إلى البيت؟»

فهزَّ الشرطي برأسه قائلاً: «أجل، أعتقد أن هذا سيكون الشيء الأفضل».

فتح باب غرفة الاستجواب.

وكزتني أمي برقة قائلةً: «جو». وقبل أن تتسنّى لي الفرصة لاستجماع نفسي أو استيعاب أي شيء، دخلنا إلى الغرفة.

كانت آني جالسةً على كرسي بلاستيكي، بجانب شرطية كان واضحاً أنها لم تكن تعرف كيف تتعامل مع الأطفال، إذ كان الارتباك وعدم الارتياح ظاهريْن على وجهها.

كان هناك كأس صغيرة من العصير على الطاولة وبعض البسكويت غير المأكول. وكانت آني تحدِّق من فوق البسكويت في الجدار المكشوط القذر وتلوِّح بساقيها إلى الأمام والخلف. كانت بيجامتها ملوثة بالطين وممزقة في بعض الأماكن. لقد لفَّتها الشرطة ببطانية زرقاء كبيرة جداً، وكان واضحاً أنها مخصصة للسجناء البالغين الذين يرتادون الزنازين على نحو متكرر. وكانت قدماها حافيتين وسوداوين من غبار الفحم.

كانت تمسك بشيء ما وتشده إلى صدرها، نصف مخفي بالبطانية. لم أستطع رؤية إلا جدائل شقراء قذرة، وبلاستيك وردي، وعيناً زرقاء واحدة. إنها آبي–آيز. لقد أعادتها.

«أوه آني».

ركضت أمي وأبي نحوها وطوَّقاها بذراعيهما وانهالا عليها بالقُبَل دون اكتراث لاتساخهما بالتراب وغبار الفحم. لقد عادت ابنتهما سالمةً معافاة.

ظلَّت آني ساكنة ولم تُبدِ أي تفاعل، سوى ساقيها المتأرجحتين إلى الأمام والخلف. رفعت أمي رأسها على مهل، ومسَّدتْ وجنة آني برقَّة.

ثم سألتها بوجه مبلّل بالدموع: «ماذا حدث يا حبيبتي؟ ماذا حدث لك؟»

كنت ما أزال واقفاً بجانب الباب، آملاً بأن يعزو عناصر الشرطة تحفُّظي إلى ارتباك المراهقين. لعلي كنتُ أقنع نفسي بأن ذلك كان حقاً سبب امتناعي عن الاقتراب.

التفتت آني ورأتني.

«جُوي».

وابتسمتْ... وفي تلك اللحظة أدركتُ أي خطب وقع. أي خطب فظيع ومريع وقع...

قُرْبُ الذكرى يخنقني. أشعر بمذاق العصارة الصفراوية خلف حلقي. أنهض وأصعد السلّم مترنّحاً وأنجح في الوصول إلى الحمام في

الوقت المناسب. أتقيّأ سائلاً بنّياً حامضاً في المغسلة المبقّعة. أتوقّف، متنفِّساً بشكل غير منتظَم، ثم تتقلَّب معدتي ثانيةً فيشقُّ مزيد من القيء طريقه عبر حنجرتي وأنفي. أتمسَّك بالبورسلين البارد، محاولاً التقاط أنفاسي ومنع نفسي من الارتجاف. أبقى منحنياً فوق المغسلة لبعض الوقت، منتظراً استعادة ساقيَّ لصلابتهما، ومحدِّقاً في الحوض المطرطَش بالقيء.

أخيراً، أفتح الصنبور وأغسل المحتويات البنية المتكتلة لمعدتي. أبصق عدة مرات وأتنفّس ببطء وعمق. يغرغر الماء بصخب وهو يعبر أنابيب التصريف.

ولكن، ليس هذا فقط ما أستطيع سماعه. لقد انتهيت من التقيؤ الآن وأصبحتُ واعياً من جديد لذلك الصوت؛ صوت السقسقة والحركة السريعة. إنه أقرب، ومستمر، ويحيط بي من كل الجوانب. أرتعش. لقد عاد البرد من جديد. البرد المتغلغل.

أنظر إلى المرحاض. ما تزال الطابوقة فوقه. أرفعها بحذر ثم أتناول فرشاة التواليت البلاستيكية وأستخدم طرفها الرفيع لرفع الغطاء. أتقدَّم قليلاً وأنظر إلى الداخل. فارغ. أنظر حولي فأرى أن ستارة الدوش مغلقة. أمسك بطرفها المتعفن وأسحبه بسرعة جانباً. لا يوجد خلفها سوى رغوة سائل استحمام وإسفنجة وسخة.

أخرج من الحمام. أشعر بأن صوت السقسقة والحركة السريعة تتحرّك معي. في الأنابيب؟ الجدران؟ أمشي عبر الممر ملوِّحاً بفرشاة التواليت نحو غرفة نومي. ألقي نظرة إليها فلا أرى شيئاً. يختفي الصوت فجأة. أتابع سيري نحو غرفة بن.

هناك رائحة. ليست رائحة فرشاة التواليت. هذه الرائحة أقوى وأشد لذعاً. لقد شممتها من قبل. منزل آخر. باب آخر. لكنها الرائحة الكريهة نفسها، والبرد المتغلغل نفسه، يتلوّى داخل أحشائي مثل طفيليٍّ جليدي.

أمسك بالقبضة ثم أفتح الباب وأضغط على مفتاح الإنارة بسرعة فيقذف المصباح العاري ضوءاً أصفر يرقاني اللون. إنها ليست غرفة كبيرة –مساحة تكفي لسرير واحد وخزانة ثياب وخزانة أدراج صغيرة. أتصوَّر أن الغرفة طُليت عدة أوجه.

أرى كل ذلك لكنني لا أراه حقاً، لأن كل ما أراه هو لون أحمر يصبغ الفراش الجديد ويسيل على الجدار. جداول حمراء قانية زلقة تنساب بشكل متعرِّج من الكلمات المطليّة.

كتابتها. دمه.

إنه ليس ابني.

متى قررتْ فعل ذلك؟ هل كان ذلك تراكماً بطيئاً؟ هل تنامي الرعب والفزع في كل دقيقة وساعة ويوم، إلى أن لم يعد بوسعها التحمُّل؟ الرائحة، والبرد المتغلغل، والضجيج. كانت تملك بندقية مسبقاً. لكنها لم تقتل بن بها، بل قتلته بيديها العاريتيْن. هل استبدَّ بها الخوف والغضب؟ أم حدث شيء ما لم يترك لها أي خيار آخر؟

أرغم نفسي على إغماض عينيّ. وحين أفتحهما ثانيةً أجد أن الدماء والكلمات اختفت. الجدران عارية ونظيفة، ومطليّة بنفس الدرجة من اللون الأبيض المائل إلى الرمادي مثل بقية المنزل. لون ماغنوليا مؤذٍ. ألقي نظرة أخيرة على الغرفة ثم أخرج وأغلق الباب. أريح جبيني على الخشب، وأتنفّس بعمق.

إنه المنزل فقط. إنه يعبث بعقلي.

ألتفت، ويتوقف قلبي عن الخفقان.

«يا الله!»

آبي–آيز جالسة على السجادة، في منتصف الممر.

ساقاها البلاستيكيتان السمينتان ممدودتان أمامها، ولفائف شعرها الشقراء ناتئة على نحو فوضوي، وعينها السائبة تنظر إلى شبكة عنكبوت في الزاوية. أما العين الزرقاء السليمة، فتحدِّق فيّ بسخرية.

هِيي، جُوي. لقد عدت. مجدداً.

أحدِّق حولي كما لو أنني أتوقّع رؤية مقتحم منازل ظريف يودع دمىً في المنازل التي يقتحمها أثناء نزوله خلسةً على السلّم، ضاحكاً من طرفته الصغيرة. ولكن، ليس هناك أحد.

أمشي بخطوات عرجاء نحو آبي–آيز وألتقطها فتخشخش العين السائبة ويصدر ثوبها الرخيص المصنوعِ من البوليستر حفيفاً خشناً. وزنها وملمس جلدها البلاستيكي البارد القاسي يجعل جلدي يقشعرّ.

أشعر برغبة جارفة برميها من النافذة إلى الحديقة الخلفية المعشوشبة، لكن تصوُّراً أشد بشاعة يمنعني من فعل ذلك. أتخيَّلها تزحف عائدةً إلى المنزل ثم تضغط بوجهها البلاستيكي أحمر الوجنتين على الزجاج، وتحدِّق في الداخل من ظلمة الخارج.

أمسكها مادّاً ذراعي أمامي، كأنها قنبلة غير منفجرة، ثم أنزل على السلّم وأتوجه نحو المطبخ. أفتح الخزانة أسفل المجلى وأضعها في الداخل، مع فرشاة التواليت، ثم أغلق الباب بقوة.

اللعنة. جسدي بأكمله يرتعش. لا أعرف إن كنت سأفقد وعيي أم سأُصاب بنوبة قلبية. أصبُّ كأساً من الماء وأشربه بنهم.

أحاول تحليل الأمر بعقلانية. لعلي نقلتُ دمية آني بنفسي ونسيتها –نوعِ من النسيانالمتعلق بالشراب. أذكر أن بريندان أخبرني كيف أنه –في الفترة التي كان يشرب فيها– كان يعاني من هلوسات وفقدان ذاكرة. ذات مرة، استيقظ ليجد أنه دفع خزانة من أعلى السلَّم إلى الأسفل ولم يكن يتذكّر مطلقاً أنه فعل ذلك أو لماذا.

«بالطبع، كنتُ أضخم بكثير في ذلك الحين» –غمز بعينه– «وزن الكحول».

بريندان. أنا بحاجة للتحدث مع بريندان. أجرّب الاتصال به فيوصلني ببريد صوتي. هذا لا يدعو للارتياح رغم تأكيد غلوريا بأنه بخير. لا أظن أن غلوريا كاذبة. ولكن، من المريح أن أسمع صوته، حتى لو ليقول لي فقط «اغربْ عن وجهي». يخطر لي أنني أصبحت معتاداً على الاعتماد على وجود بريندان عندما أكون بحاجة إليه. وجوده مريح

ومألوف، مثل بنطال جينز قديم وحذائي العتيق. يزداد القلق نخراً في أعماقي.

أعود إلى غرفة الجلوس. ما يزال الملف مفتوحاً على طاولة القهوة. لم أنهه بعد. لقد تجاوزت بعض الصفحات، لكنني اكتفيت لهذه الليلة. وصلتني الرسالة –آرنهيل قرية صغيرة كئيبة وقع فيها الكثير من الأشياء السيئة. مشؤومة. ملعونة. ليفقد الأمل جميع من يدخل إلى هنا.

أشرع في إعادة الصفحات إلى الملف فتلْفُتُ واحدة منها نظري. إنها قصاصة أخرى من إحدى الصحف:

موت مأساوي لطالبة واعدة

تُظهر الصورة فتاة مراهقة باسمة. إنها جميلة ذات شعر غامق طويل وتضع حلقة فضية برّاقة في أنفها. يوجد شيء فيها يذكّرني بآني. أقرأ القصة رغماً عني. إميلي رايان، ثلاثة عشر عاماً، طالبة في آرنهيل أكاديمي قتلت نفسها بجرعة زائدة من الشراب والباراسيتامول. وُصفت بأنها «سريعة البديهة، ومرحة، وتضج بالحياة».

«هل فقدتَ أحدهم يوماً؟»

ينبثق صوت بث في رأسي فجأة. لابد أنها الطالبة التي أخبرتني عنها. ولكن ثمة شيء خاطئ بخصوص هذا الأمر. أجلس. يستغرق عقلي المشوَّش وهلة كي ينشِّط نفسه.

قد لا أستطيع إخبارك في أي يوم نحن في معظم الأوقات، ولكن يمكنني أن أتلو عليك مقاطع بأكملها من شيكسبير (إذا كنتَ سيئ الحظ إلى حد كبير، ولم تكن تعجبني أبداً). بوسعي حفظ رزمة من النصوص وكلمات عشوائية. هكذا يعمل عقلي. أجمع معلومات عديمة الفائدة مثل الغبار.

«سنة، ويوم، وحوالي اثنتي عشرة ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة».

هذا ما قالته بث بشأن المدة التي أمضتها في العمل في آرنهيل أكاديمي، الأمر الذي يجعل تاريخ شروعها بالعمل في أيلول 2016. ووفقاً لهذه القصة، توفيت إميلي رايان في 16 آذار 2016.

بالطبع، قد تكون بث مخطئة. لعلها خلطت بين تواريخها. لكنني لا أظن ذلك.

«بل أنا أحصي حقاً».

هذا يعني أن بث لم تكن معلّمة هنا عندما قتلت إميلي رايان نفسها. من المؤكد أن إميلي رايان لم تكن واحدة من طلابها. لماذا كذبت علي إذن؟

أستيقظ باكراً، بلا أي داعٍ، في الصباح التالي. أفتح أحد جفنيَّ قليلاً وأئنُّ ثم أقلب نفسي على الفراش. يرفض عقلي بانزعاج العودة إلى الغفو وغياب الوعي، رغم أن بقية جسمي يشعر كأنه قولَب نفسه مع الفراش خلال الليل.

أبقى مستلقياً عدة دقائق محاولاً إرغام نفسي على العودة إلى النوم. وفي النهاية، أستسلم، وأنتزع نفسي من الفراش وأُنزل ساقيَّ إلى الأرض الباردة. يرشدني عقلي إلى القهوة. والنيكوتين.

الجو عاصف وملبَّد بالغيوم، والريح تسوق الغيوم عبر السماء مثل أب يقود أطفالاً مشاكسين مطالباً إياهم بالإسراع. أرتعش وأنهي السيجارة بسرعة متلهفاً للدخول مجدداً إلى الدفء النسبي للمنزل.

أصبحتْ أحداث الليلة الماضية مشوّشة في ذهني سلفاً. أتناول آبي–آيز من الخزانة. إنها تبدو مسالمة في ضوء النهار. مجرد دمية قديمة خَرِبة. غير مكروهة بعض الشيء، مثلي أنا.

أشعر بالأسى لأنني حشرتها تحت المجلى، لذا آخذها إلى غرفة الجلوس وأضعها على ذراع أحد المقاعد وأجلس على الأريكة لأنهي قهوتي. آبي–آيز وأنا نستمتع بفترة استرخاء صباحية قصيرة.

أتصل برقم بريندان مرتين أخريين، دون أي رد. أعيد قراءة مقالة الصحيفة حول إميلي رايان فأجدها غير منطقية هذا الصباح كما وجدتها في ليلة أمس. أحاول إلهاء نفسي بإخراج رزمة من الأوراق التي تحتاج لتقييم، وأنجز نصفها تقريباً حين أدرك أنني كتبتُ للتو، «اللعنة، لا!!!»، بجانب فقرة ركيكة جداً وأستسلم.

أنظر إلى ساعتي فأجدها تشير إلى 9:30 صباحاً. ليس لدي رغبة في البقاء في المنزل طوال النهار، وليس هناك أي شيء آخر يشغل ذهني.

فأقرِّر الخروج للتنزُّه.

أُجريَتْ أولى أعمال التنقيب الأولية في آرنهيل في وقت ما من القرن التاسع عشر. كبُر المنجم وتوسَّع، ودُمِّر، وأُعيد بناؤه، وحُدِّث على مدار قرنين من الزمن.

بنى آلاف الرجال والعائلات مصادر رزقهم حول المنجم، ما جعله طريقة حياة أكثر منه موقعاً للعمل. لو كانت آرنهيل كائناً حياً، لكان المنجم قلبه النابض النافث للدخان.

عندما أُغلق المنجم، تطلَّب المجلس نحو سنتين لانتزاع القلب، رغم أنه بحلول ذلك الوقت كان قد توقّف عن الخفقان منذ فترة طويلة، ولم يعد الشحّار والدخان يدوران في شرايينه الفولاذية. انهارت الأبنية وخُرِّبت، وسرق لصوص الكثير من الأشياء المعدنية والتجهيزات الثابتة، إلى أن جاءت يد الرحمة مع دخول البلدوزرات إلى الموقع.

وأخيراً، لم يبقَ شيئاً في المكان، باستثناء جرح عميق في الأرض، كمذكِّر دائم بما فُقد. غادر بعض الرجال وعائلاتهم القرية للبحث عن عمل في مكان آخر، في حين تأقلم آخرون، مثل أبي، مع الوضع الجديد.

ومضت القرية عَرِجةً في طريقها نحو الشفاء، بيد أن بعض الجروحِ لا تُشفَى أبداً بصورة تامة.

تظهر أمامي التضاريس الوعرة المكسوَّة بطبقة كثيفة من الأعشاب والأزهار البرية. من الصعب التصديق أن أبنية صناعية ضخمة كانت موجودة ذات يوم في هذا المكان، وأن أنفاقاً وماكينات ما تزال موجودة تحت سطح الأرض، لأن نقلها كان يكلِّف أموالاً طائلة.

ولكن، ليس هذا فقط كل ما يرقد تحت الأرض، فقبل المناجم، وقبل الماكينات التي حفرت الأرض، كانت هناك حفريات أخرى. تقاليد أخرى بُنيتْ عليها هذه القرية.

بدأتُ الصعود بسرور لأنني جلبت معي عصاي لمساعدتي في المشي على الأرض غير المستوية. وجدتُ طريقاً للدخول عبر ثغرة في السياج المحيط بالموقع. أعتقد أنه مدخل مستخدَم بكثرة من العشب المداس والأرض العارية في الجانب الآخر من السياج.

كنت أعرف هذا المكان جيداً في طفولتي، لكنه غريب تماماً علي الآن. لا يمكنني تحديد موقعي بالضبط أو حتى موقع مداخل المنجم القديمة. ولم تعد الفتحة موجودة. كنت أعتقد بأنها ضاعت –ومعها طريق دخولنا، بفضل كريس– إلى الأبد، لكنني كنت مخطئاً. هنالك أشياء لا تبقى مدفونة، لأن الأولاد سيجدون دوماً طريقة لإيجادها.

أقف على قمة تلة منحدرة لألتقط أنفاسي. لستُ رجلاً معتاداً على المشي الطويل وتسلُّق التلال، حتى لو كنتُ بلا ساق معاقة. أنا مخلوق لأجلس بجانب طاولات ولأجثم على كراسي البارات. حتى إنني لم أركض يوماً للحاق بحافلة. أحاول إرغام رئتيَّ على شفط المزيد من الأوكسجين الضروري، ثم أستسلم وٍأسحب علبة سجائري وأشعل واحدة. ظننت بأنني حين أصل إلى هنا سأشعر بتذكُّر غريزي، بوخزة، مثل عود استكشاف ماء في باطن الأرض. لكنني لا أشعر بأي شيء. الوخز الوحيد الذي أشعر به يصدر من أضلاعي المرضوضة. لعلي بذلتُ جهداً مضنياً كي أنسى. ولست واثقاً إن كان ذلك يجعلني أشعر بالاستياء أم الراحة.

أحدِّق حولي في الخطوط المتموِّجة من اللونين البني والأخضر. أعشاب ناتئة وأجمات شوكية قاسية، ومنحدرات زلقة من الحصى، تجاويف عميقة مملوءة بمياه موحلة وأعشاب مائية متمايلة.

بوسعي تقريباً سماعها تهمس لي: أكنتَ تظن بأنك تستطيع ببساطة المشي إلى هنا وإيجاد طريق العودة؟ لا يسير الأمر بهذه الطريقة أيها الولد جُوي. ألم تتعلَّم أي شيء حتى الآن؟ أنت لا تجدني. أنا أجدك. وإياك أن تنسى ذلك.

أرتعش قليلاً. لعل هذا الصعود إلى هضبة الذاكرة –مثل الكثير من أفعالي– ما هو إلا جهد عديم الجدوى. لعل الإيميل، وكذلك الرسالة، غير مهمَّيْن أيضاً. فما حدث هنا، حدث منذ زمن بعيد، وقد عشت خمسة وعشرين عاماً دون أن أضطر إلى التفكير فيه، فما الداعي لتجشُّم هذا العناء الآن؟

لأنه يحدث مجدداً.

ومن يبالي؟ ليست مشكلتي. ليست معركتي. ومع القليل من الحظ، ستتسبَّب الحفّارات بهبوط القرية العفنة بأكملها إلى باطن الأرض، وستكون هذه حقاً هي النهاية.

أهمُّ بالاستدارة لكن شيئاً يلفت نظري. شيء يرفرف على الأرض. أحدِّق فيه لوهلة، ثم أقرفص وألتقطه. إنه غلاف علكة وام. أعرف هذا الغلاف الملوَّن بالأزرق والأحمر اللامعيْن أينما رأيته. كان كريس يملأ جيوبه بها عادةً. لو أنه تمكَّن من بلوغ سن النضج، فإنني أشك في أن أسنانه ستتمكَّن من فعل الشيء ذاته.

أنهض وأنظر إلى الأسفل من فوق التلة. أنا متأكد بأنها ليست منحدرة جداً. أضع الغلاف في جيبي وأبدأ نزول المنحدر. إنه في الواقع أشد انحداراً من تقييمي له من القمة، ولهذا السبب تضعف ساقي المعطوبة في منتصف الطريق وتنزلق قدميّ من تحتي وأكمل الأمتار الباقية منزلقاً على ظهري.

أبقى مستلقياً على ظهري في الأسفل لبضع ثوان، لاهثاً ومرتجفاً. يبدو لي أن النهوض مجدداً يتطلّب جهداً، لذا أغمض عينيَّ وأسحب بضعة أنفاس عميقة.

«لم تتصل بأمي».

أنتفض وأجلس فأرى شابة ذات وجه شاحب مغطى بقلنسوة معطف تحدِّق فيَّ وهي تمسك بكلب أسود أشعث الفرو بواسطة حبل. وجهها مألوف لدي. آه تذكَّرت. إنها الساقية اللطيفة في البار. لورين.

لا يبدو عليها التأثر لرؤيتي في هذا الوضع.

أقول لها: «أنا بخير. شكراً لسؤالك».

«لقد سقط رجل مسنٌّ هنا السنة الماضية. مات من انخفاض درجة حرارة جسده».

«أشكر الله لأن شخصاً صالحاً مثلك وجدني».

أمسك بعصاي وبصعوبة كبيرة أرفع نفسي وأقف على قدميّ. يشمُّ الكلب حذائي. أحب الكلاب، لأنها كائنات غير معقدة، وعفوية، بعكس البشر، والقطط. أمد يدي لأداعب ذقنه فيسحب شفتيه ويزمجر.

تقول لورين: «لا يحب المداعبة».

«لا بأس».

أرى رقعة من الفرو المفقود تكاد تطوِّق رقبته مثل حلقة –جرح قديم.

فأسألها: «ماذا حدث له؟»

«علق في سلك شائق شق رقبته».

«من المذهل أنه نجا».

ترفع كتفيها وتنزلهما.

«هل هو كلبك؟»

«لا. كلب أمي. تملكه منذ سنوات».

«هل تنزّهينه هنا كثيراً؟»

«أعتقد ذلك».

«هل يتنزَّه الكثير من الأشخاص الآخرين هنا؟»

«قلّة».

تخطر في ذهني كلمتيْ «دم» و«حجر».

«سمعتُ أن بعض الأولاد من المدرسة يتسكّعون هنا أيضاً».

«بعضهم».

«عندما كنتُ شاباً، اعتدت فعل ذلك أيضاً. كنا نبحث عن طرق للدخول إلى مداخل المنجم القديم».

«لابد أن ذلك كان منذ زمن بعيد».

«أجل. شكراً لذكر ذلك».

تقول دون أن تبتسم: «لماذا لم تتصل بأمي؟»

«لا أحتاج إلى عاملة تنظيف الآن. المعذرة».

«لا بأس».

تستدير لتمضي في طريقها فأدرك أنني أضيِّع فرصة.

«انتظري».

تلتفت.

«أمك. هل كانت تنظِّف المنزل لصالح السيدة مورتون؟»

«أجل».

«إذن كانت تعرفها؟»

«ليس تماماً».

«ولكن، لابد أنها كانت تتحدث معها؟»

«كانت السيدة مورتون انطوائية».

«ألم تذكر أمك أبداً أن السيدة مورتون كانت تتصرّف بغرابة، تبدو غاضبة، مضطربة؟»

ترفع كتفيها ثم تنزلهما.

«سمعتُ أن بن فُقد. هل تعتقدين أنه هرب؟»

ترفع كتفيها للمرة الثانية. فأحاول معها للمرة الأخيرة.

«هل كان بن واحداً من الأولاد الذين كانوا يأتون إلى هنا؟ هل وجدوا شيئاً ما؟ ربما نفقاً، كهفاً؟»

«يجب عليك الاتصال بأمي».

«أخبرتك، لا-» ثم أمسك نفسي- «إذا اتصلت بأمك، هل ستتحدث معي؟»

تحدِّق فيّ وتقول: «تأخذ عشرة جنيهات في الساعة. خمسون جنيهاً لتنظيف منزلٍ كاملٍ».

فهمتُ المغزى. «حسناً. سأضع ذلك في ذهني».

يتقدّم الكلب نحو قدميّ مجدداً فتشدّ لورين الحبل قليلاً فيغضِّن أنفه الرمادي في وجهها.

أقول لها: «لابد أنه مسنّ جداً».

«تقول أمي إنه يجب أن يكون ميتاً».

«أنا متأكد بأنها لا تعني ذلك».

«بل تعنيه». تستدير. «يجب علي الذهاب».

فأصيح من ورائها: «أراكِ إذن!»

لا تردُّ تحية الوداع، ولكن، بينما هي تمضي في طريقها أسمعها تتمتم كما لو أنها تحدِّث نفسها: «أنتَ في المكان الخطأ».

كلمة «غريب» لا تكفي تماماً لوصف الأمر.

عند وصولي إلى المنزل أجد سيارة فان بيضاء مركونة أمامه، ملصَق على مؤخرتها صورة صنبور ضخم، فأخمِّن أنها تخص سبّاكاً. ومع الأخذ بعين الاعتبار مشكلاتي الحالية مع الحمّام، فإنها قد تكون صدفة سعيدة.

ولكن، مع اقترابي منها تتأكَّد أسوأ مخاوفي. الاسم المكتوب على جانبها هو «فليتشر وأبناؤه للسباكة والتدفئة». يُفتَح الباب ويترجَّل من جهة الراكب صاحب الشعر الغبي ومن جهة السائق شخص آخر يبصق بلغماً أصفر على الأرض.

«ثورني. اللعنة عليّ. لم أظن بأنني سأراك هنا مجدداً».

لا أستطيع قول الشيء ذاته، إذ لطالما عرفت أن فليتش لن يغادر أبداً. أنت تعلم ذلك وحسب. ولا يعني هذا أنه لا يريد الانتقال إلى مكان آخر، لكن فكرة وجود مكان آخر، ببساطة، لا تخطر في بال أمثاله أبداً.

«ماذا عساي أقول؟» أمدُّ ذراعيّ. «لقد افتقدتُ الترحيب الدافئ».

ينظر فليتش إلي من الأعلى إلى الأسفل ثم يقول: «أنت لم تتغيَّر».

مرة أخرى، لا يمكنني قول الشيء ذاته. إن لم تكن السنين رقيقة مع أي منا، فمن الجليّ أنها كانت قاسية على نحو خاص مع نيك فليتشر. لقد فَقَدَ كتلته العضلية الخالية من الدهون، التي جعلته ذات يوم حارساً مرهوب الجانب لهيرست، وأصبح نحيلاً لدرجة أنه يبدو مثل هيكل عظمي متحرك. شعره القصير أصفر كلون النيكوتين، ووجهه مليء بتجاعيد عميقة لا تقدر على حفرها إلا حياة بطولها من التدخين وشرب الكحول.

يتقدَّم نحوي في حين يبقى صاحب الشعر الغبي واقفاً في مكانه بطريقة أفترض أن المقصود بها أن تكون مهدِّدة لكنها تجعله يبدو كأنه مُكبَّل إلى حد ما. ألاحظ أنفه المتورِّم والكدمات أسفل عينيه. غلوريا.

أتساءل إن كان شقيقه ما يزال يعالج كتفه المخلوعة. أشعر بقليل من الرضا.

توحي مشية فليتش بأنه يعاني –مثلي– من نوع ما من الألم أو من تصلُّب في مفاصله. التهاب مفاصل؟ ربما. ومفاصل يده المشوّهة إشارة إضافية. أعتقد أن لَكْمَ الرؤوس يترك أثراً على صاحبه بعد فترة من الزمن.

مع اقترابه مني أتمكَّن من شم رائحته. فاكهة قابلة للعصر وسجائر. نفس الرائحة التي كانت تفوح منه حين كان شاباً يافعاً. لعله لم يتغير إلى هذه الدرجة.

«لستَ مرغوباً هنا يا ثورني. لماذا لا تُسدِ صنيعاً للجميع وتعود إلى حفرة البراز التي خرجت منها زاحفاً».

«واو. هذه جملة طويلة بالنسبة إليك. مبتذلة بعض الشيء. خليط طفيف من الصفات والأفعال، ولكن ليست سيئة».

يمتقع وجهه. ويتقدَّم صاحب الشعر الغبي. أشعر بعنف وشيك مكظوم. إنه ليس مستعداً تماماً لضربي الآن، مع أنه متلهِّف لفعل ذلك. يسيل لعابه مثل كلب يحدِّق في عظمة شهيّة.

الابن سر أبيه. لطالما كان فليتش يفضِّل اللكم أولاً ومن ثم طرح الأسئلة. لم يكن بحاجة لأي مبرر لإيذاء شخص ما، لكن هيرست كان يمنحه مبرراً ما. كان يستمتع بتحطيم الأسنان وتشويه ما حول العيون. كان فليتش مقاتلاً صغيراً لئيماً وقذراً، ولا يستسلم أبداً. لقد رأيته يهجم على فتيان أضخم منه ويوسعهم ضرباً بوحشيته الصرفة وإصراره. لو لم يكن هيرست يمسك برسَنه، أعتقد أنه كان قادراً –حتى في ذلك الحين– على ضرب أحدهم حتى الموت.

يرفع يده المشوّهة لابنه فيتوقف في مكانه.

«ماذا تريد؟»

«السلْم العالمي، أجور عادلة للجميع، مستقبل أفضل لأولادنا».

«ما تزال تظن نفسك ظريفاً؟»

«يجب على شخص ما أن يكون كذلك».

ترتجف يداه، فأقول بسرعة: «أريد أن أرى هيرست. أعتقد أننا نستطيع التوصل إلى تسوية تناسب كلينا».

«حقاً؟»

«لدي شيء يريده. وأنا سعيد لإعطائه إياه. مقابل ثمن».

«هه. أتعلم؟ طلبَ هيرست أن نعاملك بلطف في تلك الليلة. لعله لن يكون كريماً جداً وأنت تهدده الآن».

«أنا مستعد للمقامرة».

«إذن فأنت أغبى بكثير مما تبدو».

«حقاً؟ لأنه يبدو لي كأن ابنك نال قدراً جيداً جداً من الضرب في الليلة الماضية أيضاً». أبتسم لصاحب الشعر الغبي. «كيف حال كتف أخيك؟»

يحمرُّ وجهه.

«حالفك الحظ أيها المعاق».

يقول فليتش: «أجل. ليس هناك رجال ضخام لمساعدتك الآن».

رجال ضخام؟ لم يستطع ابناه إذن الاعتراف بأنهما ضُربا بواسطة امرأة.

يزمجر فليتش: «ولا أحد يعبث مع أولادي». ويُنزل يده.

يندفع صاحب الشعر الغبي على الفور، لكنني مستعد هذه المرة. بالكاد يتمكّن من رفع قبضته قبل أن أباغته بضربة قاسية بالعصا فوق أذنه فيخرُّ على الأرض. ومن ثم أنخزه بها بقوة على بطنه وبعد ذلك أهوي بها

على ظهره فيتكوَّر على نفسه مثل شكل ورقي قبيح مصنوعٍ بواسطة فن الأوريغامي.

يهجم فليتش عليّ لكنه أكبر سناً وأبطأ من ابنه. أخطو خطوة جانبية وأدفع العصا بين ساقيه فيصدر صرخة مكتومة ويسقط على ركبتيه. لقد تعلَّمتُ أنا أيضاً بضعَ حركات تسبِّب الألم على مر السنين.

أنحني فوقه وأقول مع قليل من اللهاث: «كنتَ مخطئاً. لأنني تغيّرت».

يرمقني بعينين دامعتين نصف مغمضتين ثم يقول: «أنتَ ميت».

«هذا ما يقوله الرجل الممسك بخصيتيه. والآن أخبرْ هيرست بأنني أريد لقاءً. يمكنه اختيار الليلة التي يشاء، ولكن يجب أن تكون في هذا الأسبوعِ».

«ليست لديك فكرة عما تقحم نفسك فيه».

يهمُّ صاحب الشعر الغبي بالنهوض. يبدو دائخاً وأصغر عمراً مما كنت أعتقد. أشعر بشيء من الشعور بالذنب –ولكن، على نحو طفيف فقط. ألوِّح بالعصا وأهوي بها على أنفه المتورِّم فينبثق الدم ويُمسك بوجهه وهو يصرخ من الألم.

«لا. ليست لديك أنت فكرة عما أُخرج نفسي منه. لديكما خمس دقائق لكي تغربا عن هنا وإلا فسأتصل بالشرطة».

أستدير وأتجه صوب المنزل بخطوات مترنِّحة. مع تلاشي الأدرينالين الآن، يبدأ جسدي المتكدِّم بالصراخ شاكياً على ما بذلته من جهد شاق.

ويصرخ فليتش من ورائي: «أختك ميتة. لا يمكنك إعادتها...»

الجملة مقطوعة. إنه لا يكملها. لكنه ليس بحاجة لذلك.

19

1992

اتفقنا على الالتقاء عند موقع المنجم في الساعة التاسعة مساء، لأن أحداً لم يكن يذهب إلى هناك في ذلك الوقت المتأخر ولأننا لم نكن نريد أن يرانا أحد ويسألنا عما كنا نفعل.

خطَّطتُ للتسلل بعد العشاء بقليل. كانت أمي منهمكة في كيِّ كومة من الثياب وكان أبي في المشرب. لكنني كنتُ بحاجة لفعل شيء واحد فقط أولاً. تسللتُ من باب المطبخ نحو الغرفة في الحديقة الخلفية حيث كان أبي يحتفظ بأدواته القديمة الخاصة بالعمل في المنجم.

اضطُّررت للبحث قليلاً بين الأدوات –بعد إبعاد عناكب ميتة وشبكات بيوتها– حتى وجدت ما أريد. معطف عمل قديم، وجزمة صلبة، وحبل، ومصباح كاشف، و... أجل... خوذة منجم. التقطتُها ومسحت

بعض الغبار وعبثتُ بالمصباح في مقدمتها. كنت شبه متوقع بأنه لن يعمل، لكن ما أثار دهشتي هو انبثاق شعاع أصفر ساطع منها.

«ماذا تفعل؟»

قفزتُ في مكاني واستدرت بسرعة بحيث كدت أُسقط الخوذة.

«خراء! ماذا تفعلين أنتِ هنا؟ أتحاولين التلصُّص عليّ؟»

كانت آني واقفة في الباب؛ جسدٌ مظلَّلٌ نحيلٌ يؤطِّره ضوء المساء الآفل. كانت ترتدي بيجامتها الوردية التي تحمل صورة أحد الدببة الطيبين (raeB eraC)، وكان شعرها الداكن الطويل ممشطاً إلى الخلف ومعقوداً على شكل ذيل فرس.

أختي الصغيرة. في الثامنة من العمر ومع ذلك تبدو كأنها مقبلة على الثامنة عشرة. مرحة، مشاكسة عنيدة، وسخيفة. ذكية بغباء، ولطيفة على نحو مزعج. أنحف جسد صغير لكنه في الوقت عينه أنعم جسد صغير يطوِّقني بشبكة ذراعيه وساقيه النحيلة. ابتسامة عريضة تفطر أقسى

القلوب. فتاة صغيرة قاسية شبيهة بالصبْية الذكور ما تزال تؤمن ببابا نويل وبالسحر. ولكن، من لا يؤمن بهما؟

قالت: «يجب عليك ألا تشتُم».

«حسناً، حسناً، أعلم. ولكن، يجب عليك ألا تسلّلين وتخيفي الناس».

«لم أفعل. أنت لم تكن تصغي جيداً».

واحد من أكثر الأشياء العبثية في الحياة هو مجادلة طفل في الثامنة من العمر. أياً تكن درجة ذكائك، فسيغلبك منطق ابن الثمانية أعوام دائماً.

«حسناً، كنتُ منهكاً».

«في فعل ماذا؟ هل هذه أغراض بابا؟»

أعدتُ الخوذة إلى مكانها بعجلة، ثم قلت: «أجل. وماذا في ذلك؟»

«إذن، ماذا تفعل بها؟» لاحظتْ فجأة حقيبة الظهر في يدي الأخرى. «هل ستأخذ أغراض بابا؟»

كنت أحب أختي. حقاً. لكنها، في بعض الأوقات، كانت مزعجة إلى درجة لا تُطاق. كانت مثل كلب من فصيلة تيريير (*reirret*). إذا أمسكتْ بشيء ما، فإنها لا تتركه أبداً.

«اسمعي، أنا سأستعيرها فقط، اتفقنا؟ وهو لم يعد يستخدمها على أي حال».

«لماذا ستستعيرها؟»

«لا شأن لك بذلك».

طوتْ ذراعيها على صدرها وضيَّقتْ عينيها –نظرة تعني مشكلة– ثم قالت: «أخبرني».

«لا».

«أخبرني وإلا فسأخبر ماما».

تنهَّدتُ. كنتُ متوتراً وقلقاً إلى أبعد الحدود، لأنني لم أكن أرغب بالعودة إلى تلك الفتحة الغريبة في الأرض. ولم أكن أعلم لماذا كنا سنفعل ذلك، لكنني كنت مضطراً للمضي حتى النهاية في هذا الأمر كي لا أبدو جباناً أمام الآخرين.

«انظري، إنه مجرد خرا– ... شيء ممل، اتفقنا؟ سنذهب فقط إلى المنجم القديم لبعض الوقت».

اقتربتْ بحذر وقالت: «إذن لماذا تحتاج أغراض بابا؟»

تنهَّدتُ مرة أخرى ثم قلت: «طيب، إذا أخبرتكِ، عليكِ أن تعديني ألا تخبري أي شخص آخر، اتفقنا؟»

«اتفقنا».

«لقد وجدنا حفرة تفضي إلى مركز الأرض وسننزل إلى أعماقها لأننا نعتقد أن هناك عالماً مفقوداً مليئاً بالديناصورات في الأسفل».

«حملقتْ فيَّ وقالت: «هذا كله هراء».

هذا أكثر من أن يمرَّ دون شتم: «كما تريدين. لا تصدقيني إذن».

«لا أصدقك».

«كما تريدين».

نصمت قليلاً وفي هذه اللحظات أحشو حقيبتي بالقبعة والثياب والحبل والجزمة وأرفع السحّاب وأضعها على ظهري.

«جُوي؟»

أكره أن يناديني أي شخص آخر غير أختي «جُوي».

«ماذا؟»

«انتبه لنفسك».

وراحت تركض عائدةً إلى المنزل، بقدمين حافيتين وقذرتين، وذيل الفرس يتنطّط خلفها.

راقبتها وهي تغادر، وأودُّ القول إن حدْساً ما انتابني فجأة، أو إن سحابة عبرت السماء مدفوعة بريح شريرة، أو إن طيوراً زعقت من بين الأشجار، أو إن دويَّ رعد شقَّ صمت المساء فجأة.

بيد أن أياً من هذا لم يحدث.

هذه هي مشكلة الحياة. إنها لا تعطينا أي تنبيه مسبق. لا تمنحنا حتى إشارة صغيرة إلى أن لحظة ما يمكن أن تكون هامة. لعلنا سنرغب في أخذ بعض الوقت والتفكير في الأمر قليلاً. إنها لا تتيح لنا معرفة أن شيئاً ما يتطلب منا أن نصبر عليه إلى أن ينقضي.

راقبتُ آني وهي تغادر –سعيدة، بريئة، خالية من الهموم– دون أن أعلم بأنها ستكون المرة الأخيرة التي سأراها فيها على هذا النحو.

ولم أدرك أنها أخذت المصباح الكاشف.

وقفنا حول الغطاء المعدني؛ أنا وفليتش وكريس. لم يكن هيرست قد جاء بعد، وجزء مني –جزء كبير– كان يأمل بأن لا يأتي أبداً.

كنا أنا وفليتش ننتعل جزمتين، وملابس غامقة، وسترتين ثقيلتين، في حين كان كريس يبدو كما لو أنه جاء إلى هناك من أجل قضاء يوم في الحديقة، حيث كان يرتدي بنطالاً وسترةً من الجينز وحذاءً رياضياً. وأنا كنت الوحيد الذي جلب معه خوذة عامل منجم (وحقيبة الظهر وبداخلها الحبل) لكننا نحن الثلاثة كنا نحمل مصابيح كشّافة. كنا مستعدين، ولكن بدون أدوات لفتح الغطاء، كان استعدادنا من أجل لا شيء.

قال فليتش باستياء وهو يُخرج علبة سجائره: «أين هو بحق العاهرات؟»

رفعتُ كتفيَّ وقلت: «لعله لن يأتي».

وعندئذ كنا سنتمكّن جميعاً من العودة إلى منازلنا ونسيان أمر تلك الخطة الغبية دون أن نشعر بسوء أو نبدو جبناء.

دخَّن فليتش سيجارته حتى عقبها المتوهج في الوقت الذي كان فيه كريس يُنقِّل وقفته من قدم إلى أخرى. أما أنا فقد تظاهرت بأنني منزعج، متفقِّداً ساعتي بين الحين والآخر، رغم أن شعوري بالارتياح كان

يتنامى مع كل ثانية تمر. وكنتُ على وشك اقتراح أن نغادر حين سمعتُ صوتاً مألوفاً ينادي: «هل أنتم بخير يا أولاد؟»

التفتنا جميعاً فرأينا هيرست ينزل بخطوات شريعة سريعة على المنحدر. لكنه لم يكن لوحده. كانت ماري تنزل خلفه مستعينة بيديها وقدميها.

سأله كريس: «ماذا تفعل هنا؟»

«إنها حبيبتي، هذا ما تفعله».

أحسستُ بقلبي يهوي على الأرض ويستقر عند قدميّ. لم تكن ماري ترتدي ملابس مناسبة على الإطلاق لنزول الحفر –جينز باهت اللون وحذاء عالي الكعبيْن. وفوق ذلك، كانت تحمل كيساً تبرز منه زجاجة دياموند وايت.

رسم هيرست ابتسامة عريضة على وجهه ثم قال وهو يلوِّح بالعتلة: «إذن، كلنا جاهزون؟» بدا لسانه ثقيلاً بعض الشيء.

قال فليتش: «جاهزون». ورمى عقب سيجارته جانباً على الأرض حيث تَوهّجَ مثل عين حمراء غاضبة.

تململ كريس في وقفته مجدداً كما لو أنه كان بحاجة للذهاب إلى المرحاض أو كان ينتعل حذاءً صغيراً جداً. صحيح أنني كنت قلقاً، ولكن ليس مثل كريس، الذي كان يبدو منزعجاً وقلِقاً في آن واحد.

تمتم بصوت خافت كأنه كان يحدِّث نفسه: «لا ينبغي لها أن تكون هنا».

حملقتْ ماري فيه وقالت: «هل تتحدَّث عني؟»

رغم الظرف الذي كنا فيه آنذاك –وتأييدي لما قاله كريس– إلا أنني لم أستطع إلا أن ألاحظ أنها بدت جذّابة حقاً في تلك الليلة. لقد أضفى المسير الطويل –وربما شراب السايدر أيضاً– على وجنتيها توهُّجاً وردياً زادها جمالاً. بلعتُ ريقي وبدوري تململتُ في وقفتي قليلاً.

تقدَّمَتْ نحو كريس وقالت: «هل تقول إنني لا يجب أن أكون هنا لأنني فتاة؟ لأنني أضعف من أن أقوم بالأشياء التي تفعلونها؟»

قد تكون ماري صدامية ولكن كان فيها شيء في تلك الليلة –لعله السايدر مجدداً– جعلها تبدو أكثر عدوانية.

تراجعَ كريس إلى الخلف وقال: «لا. كل ما في الأمر–»

«ماذا؟»

تدخّلتُ بسرعة قائلاً: «لا شيء. كريس يشعر بالقلق عليكِ فقط. لا نعلم ماذا يوجد في الأسفل. قد يكون الأمر خطراً».

بدتْ كأنها على وشك المجادلة ثانيةً، غير أن وجهها رقَّ فجأةً وقالت: «في الحقيقة، هذا لطف منك، ولكن لا تقلق. يمكنني الاعتناء بنفسي». أخرجتْ زجاجة الدياموند وايت من الكيس وحلَّت الغطاء وشربت جرعة كبيرة.

قال هيرست وهو يمسك بمؤخرتها: «وإذا لم تستطع ذلك، أنا سأعتني بها». ثم أخذ الزجاجة منها وشرب عدة جرعات كبيرة بدوره.

تمتم فليتش ببرود: «لنبدأ إذن». لم يكن فليتش مسروراً لوجود ماري هناك أيضاً، ولكن لسبب مختلف، فهو كان يعتبر نفسه دائماً صديق هيرست المفضَّل، ووجودها كان ينزله درجةً على سلَّم تسلسل المقرَّبين من هيرست.

قال هيرست وهو يعيد زجاجة السايدر إلى ماري: «صحيح».

اقترب بخيلاء من الغطاء وغرز العتلة تحت إطاره المعدني. حاول رفعه فانزلقت العتلة من قبضته.

«هراء!»

نزع العتلة ثم علَّقها تحت الغطاء ثانيةً، لكنها انزلقت مرة أخرى.

قلتُ له: «لعله عالق».

فرمقني بنظرة عابسة وقال: «أتعتقد ذلك، أيها العبقري؟» ثم نقَّل نظراته بيني وبين فليتش وقال: «ساعداني إذن؟»

اقتربنا منه على مضض –من جهتي على نحو أكيد. وصل فليتش قبلي وأمسك بالعتلة تحت قبضتيّ هيرست وضغطا بقوة معاً.

حدَّقتُ في الغطاء المعدني آملاً بأن لا يتزحزح، لكنني سمعتُ صريراً هذه المرة. صرير معدن صَدِئ يتحرَّك بعد سنوات من عدم الاستعمال.

قال هيرست من بين أسنانه المطبقة: «مرة أخرى».

وضغطا مجدداً. هذه المرة ارتفع الغطاء قليلاً وظهرت عدة سنتمرات من الظلام بين المعدن والأرض. وارتفع شعوري بالقلق معه.

زمجر هيرست قائلاً: «مرة أخرى». وزأر فليتش، فعلياً، وضغطا مجدداً.

ارتفع الغطاء أكثر.

صاح هيرست: «أمسكه!»

انحنينا أنا وكريس وأمسكنا بحواف المعدن. ثم انضمتْ ماري إلينا. وجذبنا بأقصى قوتنا. كان ثقيلاً، ولكن ليس كما توقعت.

«واحد، اثنان، ثلاثة».

هذه المرة استسلم الغطاء بشكل مفاجئ وغير متوقَّع فتراجعنا مترنّحين إلى الخلف بينما كان يصطدم بالأرض مثيراً غيمة من الرمال والغبار، مع خبطة قوية ترددتْ ذبذباتها عبر كعبي جزمتي.

أطلق هيرست صرخة انتصار ورمى العتلة على الأرض ثم رفع كفّه وضرب كفّ فليتش في سعادة غامرة. وارتسمتْ ابتسامة عريضة غبية على وجه ماري. حتى أنا أحسستُ بدفقة وجيزة من الأدرينالين. أما كريس فهو الوحيد الذي ظل واقفاً بصمت، وبوجه خالٍ من التعابير.

تقدَّمنا جميعاً وحدّقنا في الحفرة. ضغط فليتش على زر تشغيل مصباحه الكشّاف، وعدَّلتُ أنا المصباح على خوذتي. كنت أتوقع التحديق في ظلمة دامسة بالكاد تخترقها أضواؤنا؛ هوَّة عميقة بلا قرار.

غير أن ما رأيته كان أشد سوءاً. درجات معدنية مثبَّتة في الصخر، مثل سلَّم. لم أتمكَّن حتى من رؤية نهايتها. انزلقتْ قشعريرة باردة فوق ظهري.

قال هيرست: «اللعنة. كنتَ محقاً يا فطيرة العجين. إنه طريق للدخول».

قلتُ في داخلي: ولكن، إلى ماذا؟

رفع هيرست نظره وومضت عيناه. كنت أعرف تلك النظرة. باردة وخطرة ومجنونة.

ثم قال: «إذن، من سينزل أولاً؟»

سؤال لا فائدة منه. لأنه–

التفت نحوي وقال: «ثورني، لديك كل المعدات اللازمة».

بالتأكيد. نظرتُ مجدداً إلى الفتحة وانقلبت أحشائي. لم أكن أريد النزول فيها. لم يكن من الممكن إيجاد أي شيء جيد في قعر تلك الفتحة المظلمة العميقة.

قلتُ: «لا نعلم إلى أين تقودنا. هذه الدرجات تبدو قديمة وصدئة. قد تنكسر. يمكن أن يكون العمق كبيراً جداً».

قلَّد فليتش صوت دجاجة بطيء وطويل ثم قال: «ما الأمر يا ثورني؟ دجاجة؟»

نعم. كنتُ دجاجة. دجاجة ذات ريش، وتبيض أيضاً.

هنالك أوقات في الحياة تحتاج فيها لاتخاذ خيار؛ لفعل الصواب أو للانصياع لضغط الأقران. لو أنني استدرتُ وغادرت ذلك المكان، لكنتُ فعلت الأمر العاقل والحكيم –ولربما لحق بي الآخرون أيضاً– ولكن كان بوسعي نسيان أمر أن أكون جزءاً من عصبة هيرست بعد ذلك.

وبالطبع كنتُ سأتوقّع إمضاء ما بقي من أيامي في المدرسة وأنا أتناول طعام غدائي في موقف باص.

ولكن، على الأقل كنتُ سأكون حياً لتناول غدائي.

قالت ماري: «جو؟» وضعتْ يدها على ذراعي ورسمتْ ابتسامة ثملة كسولة. «لستَ مضطراً لفعل ذلك. ليست هناك مشكلة».

هنا اتَّخذتُ قراري. رفعتُ يديّ وشددت حزام خوذة أبي ثم قلت: «سأذهب».

ضرب هيرست بكفّه على ظهري قائلاً: «رائع». ثم نظر إلى البقية وأضاف: «الكل جاهز؟»

هزَّ الجميع برؤوسهم متمتمين بكلمات الموافقة. ولكن، كان بوسعي رؤية ملامح التوتر على وجه فليتش. وحده هيرست بدا واثقاً – بفعل الخمر والإثارة المجنونة. أما كريس، فقد بدا هادئاً كما لو كان في طريقه للقيام بجولة على المحلات التجارية.

«عظيم. لنفعل هذه الخراء». التقط هيرست ربطة عنقه من الأرض ثم عقدها حول رأسه وابتسم ابتسامة عريضة وقال: «الدم الأول (اسم فيلم أميركي شهير)». وبعد ذلك انحنى والتقط العتلة.

حدَّقتُ فيها وأحسست بانقباض في معدتي ثم قلت له: «لماذا تأخذ هذه؟»

ابتسم نفس الابتسامة العريضة مجدداً وضرب العتلة بكفِّ يده الأخرى، ثم قال: «على سبيل الاحتياط، يا ثورني. على سبيل الاحتياط».

كانت الدرجات صدئة بالفعل، وضيِّقة بحيث لم يكن بوسعي الاستناد سوى على أصابع قدمي فقط. كانت تئنُّ وتنثني عند وضع ثقلي عليها. تشبَّثتُ بها راجياً أن أتمكَّن من الصمود إلى أن أصل إلى القاع.

كنت أسمع أصوات الآخرين بينما كانوا ينزلون من بعدي، متسبِّبين بانهمار قطع من المعدن والتراب على خوذتي. رغم أنني كنت أشعر بشيء من الغباء لارتدائها، إلا أنني كنت سعيداً آنذاك لتوفيرها

الحماية لي، إضافة إلى تحرير كلتا يديَّ ما سمح لي استخدامهما للتشبُّث.

أحصيْتُ الدرجات مع نزولي. عشر، إحدى عشرة، اثنتا عشرة. وعند الرقم تسعة عشر، لم تجد قدمي درَجة وراحت تتأرجح في الهواء إلى أن وجدتْ ارتكازاً على أرض صلبة. لقد نجحت.

صرخت من الأسفل: «أنا في القاع!»

صاح هيرست: «ماذا يمكنك أن ترى؟»

نظرتُ حولي، مستعيناً بالضوء الأصفر الباهت المنبثق من الخوذة، فوجدت أنني كنت واقفاً في كهف صغير يتسع بالكاد لأكثر من ستة أشخاص. وكان فارغاً، باستثناء بضع عظام حيوانية. لم أكن واثقاً إن أشعرني ذلك بالارتياح أم بخيبة الأمل.

قلت: «ليس كثيراً».

هبط هيرست بجانبي مصدراً خبطة عالية. ثم تبعه فليتش وكريس وماري. لقد نزلت بكعبها العالي وكانت ما تزال تمسك بكيس السايدر.

قالت: «هل هذه هي؟»

أدار فليتش كشّافه في أرجاء المكان ثم بصق على الأرض وقال: «مجرد حفرة خراء».

قلت محاولاً ألا أبدو مسروراً: «أعتقد أنه هذا كان مضْيَعة للوقت».

قال هيرست باستياء: «تبّاً لهذا الأمر. أنا بحاجة للتبوُّل».

استدار نحو الحائط. سمعنا صوت فتح سحّاب بنطاله وارتطام دفق البول بالأرض. وامتلأ المكان بالرائحة اللاذعة الكريهة، المشبعة بالسايدر.

كان كريس ما يزال ينظر حوله عابساً.

فقلت له: «ما الأمر؟»

«كنت أظن بأنه سيكون هناك أكثر من ذلك».

«في الواقع، ليس هناك إلا هذا، لذا–»

بيد أنه لم يكن يصغي، حيث بدأ بالدوران حول الكهف، مثل كلب اكتشف وجود عظمة. ثم توقّف فجأةً، عند نقطة بدت كما لو أن الظلال كانت تتجمَّع فيها. وبعد ذلك انحنى.

ثم اختفى. رمشتُ بعينيَّ مندهشاً.

قالت ماري: «أين ذهب؟»

رفع هيرست سحّاب بنطاله ثم التفت وقال: «أين فطيرة العجين؟»

سمعنا صوته من مكان ما في الداخل: «هنا».

سلَّطتُ ضوئي في اتجاه الصوت، فرأيت ثغرة ضيّقة في الصخر ترتفع نحو متر وثلاثين سنتمتراً عن الأرض. كان من السهل ألا تلاحظها، ما لم تبحث دقة، أو ما لم تكن تعلم بوجودها.

صاح كريس من الداخل: «إنها تزداد عمقاً. يوجد المزيد من الدرجات».

فهلَّل هيرست فرحاً: «لقد أعجبني ذلك!»

دفعني جانباً وأقحم نفسه عبر الفجوة وراء كريس. وبعد لحظة من التردد، وجرعة كبيرة أخرى من السايدر، تبعته ماري، ثم فليتش.

تنهَّدتُ لاعناً كريس في داخلي ثم انحنيت لألحق بهم فاصطدمت الخوذة بالصخر. كانت عريضة جداً. تذبذبَ ضوء مصباحها ثم انطفأ. تبّاً. لابد أنني ضربت البطارية. رجعتُ إلى الوراء ونزعت الخوذة. كان يتوجّب علي حملها بشكل جانبي. ترددتُ قليلاً وفي تلك اللحظة ظننتُ أنني سمعت شيئاً ما. صوت كشط وخشخشة حجارة آت من ورائي، من الدرجات الصدئة التي نزلنا عليها.

نظرتُ حولي، ولكن بدون الضوء لم يكن بوسعي رؤية شيء سوى ظلال ونقاط تتراقص أمام عينيّ.

صحتُ قائلاً: «هِيي؟ هل هناك أحد؟»

صمت.

يا لك من غبي يا جو. لم يكن هناك أحد. لعل الريح هي سبب ما سمعته من أصوات. وكيف يمكن أن يكون هناك أحد؟ لا أحد يعلم بشأن الفتحة. ولا أحد يعلم بأننا هنا. لا أحد على الإطلاق.

تذكَّرتُ أغنية قديمة كان أبي يردِّدها –لا أحد هنا على الإطلاق– فقلتُ في داخلي بشيء من الجنون: لا أحد هنا سوانا نحن الأولاد.

ألقيتُ نظرة متفحصة أخيرة على الظلام ثم التفتُّ وحشرتُ نفسي داخل الثغرة ولحقتُ بالآخرين.

20

«عطلة نهاية أسبوعٍ سعيدة؟»

تظهر بِثْ إلى جانبي من وسط حشد من الطلاب.

تبدو نضرة الوجه ومفعمة بالنشاط، وكل الأشياء التي أكره أن أراها عادةً في شخص ما قبل التاسعة من صباح يوم اثنين.

أنظر إليها من تحت جفنيْن مثقليْن بالرصاص: «تبدين متألقة».

تحدِّق فيَّ بصورة أكثر تمعُّناً ثم تقول: «حقاً؟ لأنك تبدو بحالة مزرية».

أقول وأنا أمشي بتثاقل عبر الممر: «هذا ما تفعله عطلة نهاية أسبوعٍ جيدة بك».

«أجل. أعتقد أن آثار الثمالة تستغرق فترة أطول لتنقضي عندما يبلغ المرء سنّك».

«سنّي».

«كما تعلم، أواسط العمر. أمور تتعلق بأزمة، فحوص انتشار سرطان وبروستات».

«إنكِ بحق شعاع شمس صغير في صباح اثنين كئيب، أليس كذلك؟»

«أوه، لم أصل إلى أدائي الأمثل بعد».

«لندَّعِ أنك بلغت ذروتك».

تغمزني وتقول: «أوه، سوف تعرف حين أبلغ الذروة».

«أشك في ذلك. في سنّي».

تضحك بصوت منخفض، ولكن من أعماقها، وهذا في الحقيقة، يُحسِّن قليلاً من مزاجي الكئيب الحالي.

إذن لماذا كذبَتْ؟

بينما أحاول البحث عن طريقة لسؤالها، فإذا بفتىً في الصف التاسع، ذي تسريحة شعر شبيهة بتسريحات شعر فرق الشبّان الموسيقية وزيٍّ مدرسي يكاد يكون مقبولاً، يأتي راكضاً حول الزاوية ويوشك على الاصطدام بنا قبل أن ينجح في التوقف.

أقول له بوجه عابس: «ألم يذكر لك أحد أن الركض ممنوعِ في الممرات؟»

«آسف سيدي، آنستي، ولكن يجب عليكما الذهاب إلى المراحيض».

«لقد سبق أن ذهبت، شكراً».

ترمقني بث بنظرة استغراب، ثم تسأل الفتى: «ما الأمر؟»

يقول وهو يتململ في مكانه بعصبية: «أعتقد أنه يتوجب عليكما أن تذهبا وتريا يا آنسة».

أقول له: «نحن بحاجة إلى أكثر من ذلك».

«إنه هيرست. يحتجز فتى هناك و–» يصمت فجأة. لا يوجد تلميذ يحب أن يكون واشياً.

«حسناً. سنهتم بالأمر». أومئ له برأسي بأن باستطاعته الذهاب. «ولا تقلق. أنت لم ترَ شيئاً».

بامتنان ينطلق مسرعاً عبر الممر.

أنظر إلى بث فتتنهّد ثم تقول: «ها قد جاءت قهوتي».

أسمع صرخات مكتومة وضحكات مع اقترابنا من المراحيض. أدفع الباب لكن شخصاً من الطرف الآخر يضع ثقله عليه ليبقيه مغلقاً.

«أغربْ عن هنا. إنه مشغول».

«ليس بعد الآن».

أدفع الباب بكتفي ونقتحم المكان. يتراجع الفتى الذي كان يسند الباب مترنِّحاً إلى حائط المبْوَلات. أتمعّن في المشهد أمامي. ثلاثة من أصدقاء هيرست يقفون على شكل قوس غير منتظَم حول هيرست الراكع

فوق فتى مستلق على الأرض، وبجانبه علبة بلاستيكية لحفظ المأكولات. أمسك بذراعه وأرفعه، قائلاً: «أنت. قف هناك».

ثم أتحوَّل إلى الفتى الممدّد على الأرض. يا إلهي، إنه ماركوس. بالطبع إنه ماركوس.

«هل أنت بخير؟»

يومئ برأسه دلالة على التأكيد. يحاول الجلوس لكنه يعاني في ذلك. أمدُّ يدي لمساعدته فلا يأخذها. ثمة شيء غريب بشأن فمه.

«ماركوس. تحدَّث إلي. هل أنت على ما يرام؟»

فجأةً يمسك ببطنه ويميل جانباً ويتقيأ. ينبثق خبز محمّص نصف مأكول على البلاط المشقق والمبقّع، إضافة إلى شيء آخر –كتلة مسحوق من الأجساد السوداء والأرجل الخيطية. ترفع إحداها نفسها وتحاول الزحف للنجاة بحياتها. أشعر باضطراب قوي في معدتي أيضاً – عنكبوت طويل القوائم.

ألتقط العلبة البلاستيكية وأرى أن نصفها ما يزال مليئاً بالحشرات الطويلة الرفيعة. كانوا يرغمون ماركوس على أكلها. تطوف نقاط بيضاء أمام ناظريَّ فأفقد القدرة على النظر لوهلة.

«فكرة مَنْ؟» كأنني لا أعرف.

لا أحد يجيب.

«قلتُ –فكرة من؟»

يتردَّد صدى صوتي من الجدران المبلَّطة بالبورسلين.

يتقدَّم هيرست مع ابتسامة هازئة فأشعر برغبة جارفة في اقتلاعها من وجهه.

«كانت فكرتي، يا سيدي. لكنني استُفززْت».

«حقا؟»

«أجل. كان ماركوس ينعت أمي بأوصاف مسيئة. حول السرطان. اسأل أي واحد منهم».

ينظر إلى زمرة أغبيائه فيومئون برؤوسهم جميعاً مؤكِّدين.

أقول له: «أنت كذاب».

يتقدَّم نحوي إلى أن يكاد أنفانا يتلامسان.

ثم يقول: «أثبتْ ذلك، سيدي».

قبل أن أتمكَّن من منع نفسي أدفعه بقوة نحو المغسلة ثم أمسك بشعره وأخبطه بالحنفيات الصدئة، مرة تلو مرة. يصيب رذاذ الدم الجدران المبلّطة ويرسم أشكالاً تجريدية من اللون الأحمر. أشعر بجمجمته تتكسّر وتتشقَّق. وتنبثق عدة أسنان من فمه وترتطم بالأرض. ولا أستطيع التوقف، لا أستطيع التوقف إلى أن–

تضع بِثْ يدها على ذراعي، وتقول: «دعني أتولّى هذا الأمر، سيد ثورن».

أرمش عينيَّ. ما يزال هيرست واقفاً أمامي، وما تزال الابتسامة الوقحة مرتسمةً على وجهه. لقد شكَّلتْ يدي قبضة بجانب جسدي، لكنني لم ألمسه.

تتناول بث العلبة البلاستيكية من يدي الأخرى ثم تقول: «هيرست، أنا على بُعد أنملة من إيقافك عن المدرسة في الحال. كلمة أخرى وسأفعل. جميعكم، مكتب المدير. الآن».

أقول لها: «يجب أن أذهب معك».

تقول بصرامة: «لا. يجب عليك البقاء هنا والاهتمام بماركوس».

تفتح الباب بقوة فيخرج الجميع، بمن فيهم هيرست، ثم تلتفت وترمقني بنظرة غريبة، وتقول: «سنناقش هذا الأمر لاحقاً، سيد ثورن».

«كنت مسيطراً على الوضع».

ردَّتْ بصفق الباب خلفها. أحدِّق فيه لوهلة ثم ألتفت إلى ماركوس الذي ما يزال نصف متكوِّر على الأرض، ويتنفّس بصعوبة.

«هل يمكنك الوقوف؟»

يؤكِّد ذلك بإيماءة ضعيفة من رأسه. أمدُّ يدي إليه فيتلقفها هذه المرة، ثم أرفعه وأشير له نحو المغسلة قائلاً: «لم لا تغسل وجهك وتمضمض فمك؟»

إيماءة موافِقة دائخة أخرى. أنظر مجدداً إلى القيء المكوّن من الخبز المحمّص والعناكب ذات القوائم الطويلة. لقد استسلمت الحشرة نصف الميتة وفَرَدَتْ قوائمها على الأرض.

أتنهّد –عمل المعلِّم. أدخل إلى إحدى المقصورات وأمسك بإحدى لفافات ورق التواليت (أنت بحاجة لعدة لفّات منها لتشكيل طبقة آمنة لا تتفتَّت عند اتصالها بأي شيء رطب أو صلب –إنها قاعدة مدرسية). ألاحظ وجود شيء ما في المرحاض، إضافة إلى كمية هائلة من البول كريه الرائحة. شيء أسود ملقى وسط الحوض؛ هاتف خلوي. أضغط على زر دفق الماء، مراهناً على أنه كبير بما يكفي لعدم دخوله في أنبوب

التصريف. ثم ألتقطه بحذر وأجففه على ورق التواليت. أنظر إلى النوكيا القديم وأخرج من المقصورة.

يغلق ماركوس الحنفية ويمسح وجهه بكمٍّ سترته ثم ينظر إلي رامشاً بعينيه المحمرَّتين على الحواف.

أرفع الهاتف قائلاً: «أهذا لك؟»

يجيب مع هزة مؤكدة من رأسه: «أجل».

«ماذا حلَّ بهاتفك الآيفون؟»

يحدِّق في حذائه ثم يقول: «ماذا تعتقد؟»

يشتعل الغضب في صدري. لا يمكنك حمايتهم طوال الوقت. أعلم ذلك. تبذل قصارى جهدك أثناء وجودهم في المدرسة. لكنك لن تكون متواجداً معهم أثناء عودتهم إلى المنزل، أو وجودهم في الحديقة، أو الملعب، أو بجوار المحلات التجارية. المتنمِّرون لا يكفّون عن كونهم متنمّرين بعد رنين جرس المدرسة.

«ماركوس–»

«لن أذهب إلى المدير».

«ولن أجبرك على ذلك. أنا وبث رأينا ما حدث. مع القليل من الحظ، سيُوقَف هيرست عن المدرسة».

«أجل. صحيح».

أود معارضته لكنني لا أجد الإرادة لفعل ذلك.

بدلاً من ذلك أقول: «أنت لا تعرف».

«أجل، أنا لا أعرف. وأنت أيضاً».

لا أجيب.

«هل يمكنني الذهاب سيدي؟»

أوافق بإيماءة متعبة فيزلق حقيبته على كتفيه ويخرج مجرجراً قدميه. أحدِّق في القيء على الأرض وأقول لنفسي إن ماركوس ليس

مشكلتي. وفي كل الأحوال لن أبقى لفترة طويلة هنا. لكن جانبي الطيِّب المزعج يريد مساعدته رغم ذلك. أحاول تجاهل جانبي الطيب هذا وآخذ مزيداً من ورق التواليت. وبينما أفعل ذلك، أدرك أنني ما أزال ممسكاً بهاتفه. أضعه في جيبي. سأجده لاحقاً وأعيده له. أنظف القيء وأشعر بمعدتي تنقلب، ثم أخرج من المراحيض.

يمكنني الذهاب إلى مكتب هاري، لكن حدسي ينبئني بأن وجودي لن يفعل شيئاً سوى عرقلة المسألة. إضافة إلى ذلك، فأنا أعرف مسبقاً ما سيحدث. صفعة على المعصم، واحتجاز، وتنهيدة عميقة من هاري قبل أن يشرح أن يديه مقيدتان، وأن إيقاف هيرست الآن سيكون عملاً غير لائق بالنظر إلى وضع أمه الصحي، بدون ذكر الامتحانات الوشيكة. وفي نهاية المطاف، الأولاد سيبقون أولاداً.

المشكلة هي أنك إذا تركتَ الأولاد يكونون أولاداً، فقبل أن تعيَ شيئاً ستجدهم يمرغّون وجوههم بدماء الخنازير، ويدفعون بعضهم بعضاً عن حافة الجروف الصخرية، ويحطمون رؤوس رفاقهم بالصخور. تتمثَّل

مهمتنا، كمعلِّمين وبالغين وآباء، في منع الأولاد -في كل مرحلة- من أن يكونوا أولاداً، وإلا فإنهم سيدمرون العالم اللعين من حولنا.

أمشي مجرجراً قدمي عبر الممر، الفارغ الآن، مع أن ممرات المدارس لا تُشعرك أبداً بأنها فارغة، لأن صدى ضحكات وصياح وصرخات الطلاب يظل مجلجلاً فيها بعد فترة طويلة من رحيلهم. ما تزال أشباحهم تدور حولي بسرعة، مع صرخات «هِيي، ثورني!» و«سوف ننال منك يا فطيرة العجين!» مرة أو مرتين يُخيَّل إلي أنني أرى انعكاساً لصورة أخرى غير صورتي في زجاج النوافذ. شعر أشقر، ولد نحيل صغير تعلو رقبته كتلة مدماة بدلاً من وجهه. ومن ثم يختفيا مجدداً، في طيات سجلات الذاكرة.

«سيد ثورن؟»

أنتفض من المفاجأة. الآنسة غريسون تقف أمامي مع كدسة من الملفات الزرقاء تمسك بها بقوة إلى صدرها، وتحدِّق فيّ ببرود عبر نظارتها.

«ألا يجب عليك أن تكون في الصف؟»

نبرة صوتها تجعلني أشعر بأنني يجب أن أكون مرتدياً سروالاً قصيراً.

«أممم، أجل، أنا في طريقي».

«هل كل شيء على ما يرام؟»

«مجرد واحد من تلك الصباحات. كما تعلمين، تلك التي تجعلكِ تتساءلين لماذا أصبحتِ معلِّمة».

تهز برأسها وتقول: «أنت تقوم بعمل جيد يا سيد ثورن».

«حقاً؟»

«أجل». تضع يدها على ذراعي فأشعر ببرودة أصابعها من خلال كمِّ قميصي. «نحن بحاجة إليك هنا. لا تستسلم».

«شكراً».

شيء يبدو مثل ابتسامة عجائبية ترتسم لوهلة على وجهها، قبل أن تمضي في طريقها بخطوات خفيفة في حذائها المطاطي العملي، وكنزتها الصوفية، وتنورتها البيج. مثل شبح ماضي الأيام المدرسية.

عند وصولي إلى الصف أخيراً، أجد طلاب الصف العاشر في انتظاري. وأعني بقولي «في انتظاري» أنهم جالسون ملتصقين بهواتفهم الذكية، وواضعين أقدامهم على المناضد. يقوم بعضهم بمحاولة فاترة لإعادة هواتفهم إلى جيوبهم أو الجلوس عند دخولي، لكن معظمهم لا يكبِّدون أنفسهم هذا العناء، مكتفين بالنظر إليّ بينما أضع حقيبتي على ظهر كرسيِّي.

أحدِّق فيهم.

رغم كلمات الآنسة غريسون، أشعر فجأةً بالاكتئاب بسبب عبثية عملي وحياتي وعودتي إلى هنا. أتجوَّل في الغرفة وأوزِّع نسخاً باليةً من «روميو وجولييت».

«أخفوا الهواتف قبل أن أصادرها. ويجب أن أحذِّركم، غالبا ما أخلط بين خزنة المدرسة والمايكرووف».

أنتظر إلى أن ينتهوا من إخفاء هواتفهم.

حال عودتي إلى مقدمة الصف، أقول: «حسناً. درس اليوم –كيف يمكنكم جميعاً الحصول على ما لا يقل عن علامة B على المقالات الضعيفة التي سلَّمتموها الأسبوع الماضي».

يضجُّ الصف بالهمهمات ويرفع طالب متشكِّك جريء يده قائلاً: «كيف ذلك يا سيدي؟»

أجلس وأُخرج كدسة الفروض المنزلية التي كان يتوجَّب علي تقييمها خلال عطلة نهاية الأسبوع.

«يمكنكم الجلوس بهدوء والتظاهر بأنكم تراجعون، في حين أتظاهر أنا بأنني أقرؤها حقاً».

أُخرج قلمي الأحمر وأنظر إلى الجميع نظرةً ذات مغزى فيفتحون كتبهم جميعاً.

انتهى الدرس، وخرج الطلاب، وأُنجز التقييم –بخلاف ما قلتُ، لقد قرأتُ معظم المقالات واستحق بعضها بالفعل علامة **B**. أوضّب حقيبتي وأشغِّل هاتفي ثم أتفقَّد الرسائل. لا شيء. ليس هناك رد من مراسلي الغامض. لا يعني هذا أنني كنتُ حقاً أتوقَّع رداً. لكننا جميعاً نسعى أحيانا وراء الأشياء العبثية. أُجرِّب الرقم مرة أخرى.

إنه يرنّ. أعبس. هناك هاتف آخر يرن. في تناغم مثالي. في هذه الغرفة. في جيبي. أُدخل يدي وأُخرج النوكيا القديم، هاتف ماركوس. أحدِّق في الشاشة فأرى رقمي يومض فيها. يتوقف الرنين ليُعْلمني صوت آلي أنني أُوصلْتُ ببريد فودافون الصوتي، إلخ.

ما أزال أحدِّق في الهاتف محاولاً فهم ما يجري فإذا بشخص ما ينقر بقوة على باب الصف. أعيد النوكيا إلى جيبي.

تدخل بث إلى الغرفة وتجلس على أحد المقاعد، ثم تقول: «مرحباً».

«ادخلي، اجلسي».

«شكراً. سأفعل».

«ماذا حدث بشأن هيرست؟»

«احتجاز لمدة أسبوع».

«فقط؟»

«أكثر مما توقعتُ. لقد قابلتُ وحيدات خلية تملك شجاعة أكبر من هاري».

«إذن، جميع رفاق هيرست دعموا قصته؟»

«أوه، لقد ردّدوا لازمته مثل أبشع فرقة فتيان في العالم».

«أكيد».

تصمت قليلاً قبل أن تقول: «انظرْ، بشأن ما حدث–»

«كنتِ على حق. كدتُ أفقد أعصابي».

«هذا اعتقدتُه».

«أحياناً، مع هيرست، يبدو الأمر كما لو أن التاريخ يتكرر».

«أعلم أن هذا ربما ليس من شأني–»

«ربما».

«ولكن، هل هناك شيء أكبر يجري بينك وبين هيرست الأب؟ يتعلق بعودتك إلى هنا؟»

«لماذا تسألين؟»

«أنا لستُ الوحيدة التي تسأل».

«المعنى؟»

«لقد بلغ هاري أن هناك تاريخاً يربط بينكما. أعتقد أنه قلق من أن يُسبِّب هذا له مشاكل. وبالمشاكل أعني العمل».

«لا حاجة به للقلق. ذلك التاريخ قديم جداً».

«لا يوجد شيء كهذا في هذا المكان».

إنها محقة. ما تملكه آرنهيل من الأسرار أكبر مما تملكه من جينات مشتركة.

تقول بث: «على أي حال، إن شئت، يمكننا تبادل الحديث مع كأس من البيرة، مساء غد؟»

أفكِّر في الأمر. لا أريد حقاً التحدث بشأن هيرست، لكنني أحب التحدث مع بث.

أقول لها: «حسناً».

«جيد. أنت ستدفع».

«أوه. جيد».

ترسم ابتسامة عريضة وتنهض عن المقعد. هناك شيء آخر أنا بحاجة لأسألها إياه.

«بث، هل تعرفين الكثير بشأن ماركوس وعائلته؟»

«لماذا؟»

«فضول فقط».

«حسناً، أمه عاملة تنظيف. لقد أعطتك لورين بطاقتها في المشرب في ذلك اليوم».

صحيح. أُخرج محفظتي وأبحث عن البطاقة.

«داوسون لنفض الغبار؟»

تقول بث: «أحسنت».

وهذا يعني أن لورين –الساقية المتجهمة– شقيقة ماركوس. والآن يمكنني رؤية الشبه. لقد جاءت الرسالة النصية من هاتف ماركوس. وكان في المقبرة في ذلك اليوم. لم تكن تلك مصادفة. ولكن، كيف حصل على رقم هاتفي؟ وكيف علم بشأن الكتابة، وبشأن أختي؟ لا. هنالك أكثر من ذلك. ثمة شيء ينقصني.

«والدة ماركوس –هل عاشت هنا طوال حياتها؟»

«أليس هذا هو حال معظم الناس في آرنهيل؟»

«ما هو اسمها الأول؟»

«روث».

وهنا يتحرك شيء ما في مؤخرة دماغي، كما حصل تماماً في يومي الأول عند بوابة المدرسة. ذكريات قديمة توقَظ من جديد.

«هل داوسون هو اسم عائلتها؟»

ترفع بث عينيها إلى الأعلى وتقول: «يا الله! ماذا تظنني؟ مسجِّلة الزواج لكل شخص في آرنهيل؟ لدي حياة خارج هذه القرية المريعة، كما تعلم».

«صحيح. آسف».

تطوي ذراعيها على صدرها وتحدِّق فيّ ثم تقول: «لماذا أنت بحاجة لمعرفة ذلك في أي حال».

لأنني بحاجة لأجوبة.

«أظن أنني ارتدتُ المدرسة معها».

بعد تنهيدة عميقة، تقول: «في الحقيقة، لا، ليس اسم عائلتها. لقد مات زوجها منذ عدة سنوات. ليس خسارة، لأنه كان شخصاً بغيضاً، بكل المقاييس. حتى أن لورين لا تستخدم كنيته».

«وكيف تعلمين بذلك؟»

«لقد ساعدتُ لورين على ملء بعض طلبات التوظيف. لاحظتُ أن الكنية مختلفة. أخبرتني أنها تستخدم اسم عائلة أمها».

«وهو؟»

«موور».

أوشك على صفع جبيني.

روث موور، تعيش في فقر شديد... تنال وجبات مجانية وتتوسّل للمزيد. روث موور، القبيحة والفقيرة... تلعق من أرض المرحاض القذارة.

ولد آخر منبوذ ومعاق اجتماعياً. ضحية أخرى. مع ذلك، فهؤلاء الأولاد يرون في بعض الأحيان أكثر مما يراه الآخرون. إنهم يمتصّون كل ما يجري أمامهم من قصص وثرثرات وإشاعات. ولا أحد يدرك حجم ما يعرفونه؛ لأن أحداً لا يخطر في باله أن يسألهم.

تقول بث عابسةً: «هل أنت بخير؟»

«أجل. كنتُ أفكر. لعلي سأتحدث معها... بشأن ماركوس».

من بين أشياء أخرى.

«يمكنك المحاولة. لكنني أعتقد أنها غريبة بعض الشيء». تنظر إليّ وتبدو بأنها تعيد التفكير في ما قالته. «بعد التفكير ثانيةً، على الأرجح ستتوافقان أنتما الاثنان بشكل ممتاز».

«شكراً».

«لا عليك». تتجه نحو الباب. «سأراك لاحقاً».

أنتظر إلى أن يختفي صوت احتكاك حذائها الرياضي بالأرض ثم أُخرج بطاقة روث. يوجد في الخلف رقم هاتف وعنوان فرعي: «لا عمل صغير جداً، ولا فوضى كبيرة جداً».

يا ليت هذا صحيحاً. لسوء الحظ ثمة أشياء لا يمكنك إزالتها ببساطة بواسطة ممسحة ودلو يحوي مادة منظِّفة. إنها تبقى، مثل الدماء. تتعفَّن تحت السطح.

أعرف ما حدث لشقيقتك.

وفي بعض الأحيان، إنهم يعودون ثانيةً.

المرج الأمامي صغير، ولكن مُعتَنَى به جيداً. لا يبدو المنزل فقيراً على الإطلاق؛ نوافذ UPVC جديدة، وباب خشبي أنيق، وسلة معلَّقة زاهية في الخارج. وهناك سيارة فييستا زرقاء مركونة بجانب الرصيف كُتب على جانبها «داوسون لنفض الغبار» بأحرف فضية لامعة.

أمشي على الممر القصير. هناك قطة سمينة جالسة باسترخاء على عتبة النافذة تنظر إلي بازدراءٍ كسول. عند الباب، أتوقف. رغم أنني فكَّرتُ في الأمر طوال النهار، إلا أنني ما زلت غير متأكد بالضبط من كيفية مقاربته. تلك الرسائل كانت مجهولة المصدر لسبب ما. إذا كانت روث هي التي أرسلتها، فإنها لا تريد التحدث. لكن السؤال هو، لماذا أرسلتها؟

لا أعرف روث. لم أكن أعرفها طوال تلك السنين الماضية. في الواقع، لم يكن أحد يعرفها، لأنها لم تكن جزءاً من أية مجموعة في المدرسة، ولم تتصادق مع أي شخص. ولم تكن أول من يُنتقَى إلا إذا كانت رياضة الفريق الإذلالَ والتعذيب.

أذكر ذات يوم أن الفتيات الأخريات سرقن ملابسها الداخلية في حصة التربية الرياضية، ثم لحقت بها مجموعة من الطلاب والطالبات إلى خارج المدرسة، مسلّحين بعصي ومساطر. وبينما كانت تحاول الهرب نحو منزلها، أحاطوا بها وراحوا يسخرون منها وينعتونها بأوصاف مسيئة ويرفعون تنورتها لكشف عُريِّها. كان ذلك فعلاً وحشياً وفظيعاً ومهيناً إلى أبعد الحدود، ولم يكن حتى مثيراً. ولست متأكداً تماماً من الحد الذي كان يمكن أن يبلغه لو لم ترَ الآنسة غريسون ما كان يجري من إحدى النوافذ وتتدخَّل وتأخذها إلى منزلها.

ولم يكن الوضع في منزلها أفضل بكثير فأمها كانت سكّيرة وأبوها حاد الطباع –ليست توليفة حسنة. لهذا السبب، كان بوسعك سماع صراخهما على بعضهما على امتداد الشارع كله. والرفيق الوحيد الذي كان لديها هو كلب قذر اعتادت أن تنزّهه عند موقع المنجم القديم.

لم أكن واحداً من أولئك الذين تنمَّروا عليها –ليس في ذلك اليوم. لكن ذلك لا يدعو للفخر، فأنا لم أساعدها أيضاً. لقد اكتفيتُ

بالوقوف جانباً ومشاهدتها تتعذب. ومن ثم مضيتُ في سبيلي. ولم تكن تلك هي المرة الأولى، ولا الأخيرة.

كانت روث واحدة من أولئك الطلاب الذين تحاول جاهداً ألا تفكر فيهم بعد مغادرتك المدرسة، لأن ذلك يجعلك تشعر بالخزي من نفسك، وقدكان لدي أشياء أكبر بكثير لأشعر بالخزي حيالها.

أرفعِ يدي لأطرق على الباب فإذا به ينفتح.

تقف امرأة قصيرة ممتلئة الجسم أمامي، مرتديةً مئزرَ عاملة تنظيف طُرِّز على صدره اسم الشركة بشكل أنيق. شعرها الكثيف الداكن قصير التسريحة لأسباب عملية لا جمالية، حسب ظني. يُظهر وجهها المربّع الملامحِ الباردة لشخص اعتاد على الخيبات. وجهٌ عانى من ضربات الحياة المتكررة.

ترمقني بنظرة مرتابة، مع طي ذراعيها فوق صدرها، ثم تقول:

«نعم؟»

«أمم، سيدة داوسون؟ لقد تركتُ رسالة في وقت سابق. أنا جو ثورن. أنا معلِّم في–»

«أعرف من تكون».

«صحيح».

«ماذا تريد؟»

من الواضح أن غياب المجاملات الاجتماعية سمة في العائلة.

«في الواقع، كما قلتُ في الرسالة، أردتُ إعادة هاتف ماركوس. لقد فقَدَه في المدرسة اليوم. هل هو هنا؟»

«لا». تمدُّ يدها نحوي. «سأعطيه له».

أتردد، لأنني إن أعطيتها الهاتف الآن، فأنا واثق بأن هذا الحوار سينتهي بصفق الباب في وجهي.

«هل يمكنني الدخول؟»

«لماذا؟»

«هناك شيء آخر أود التحدث معك بشأنه».

«ماذا؟»

أحيانا تكون بحاجة لإظهار أوراقك، وفي أحيان أخرى، أنت بحاجة للعب وفق الأسلوب الطويل.

«عمل تنظيف».

لوهلة، أظن بأنها مع ذلك ستصفق الباب وجهي، لكنها تتنحّى جانباً وتقول: «الغلّاية على النار».

البيت نظيف في الداخل كحاله في الخارِج، على نحو مزعج بعض الشيء. تفوِح منه رائحة مادة مطهِّرة ومعطِّرات جو. أشعر بجيوبي الأنفية تنتفخ وبنبض خفيف يبدأ بالتحرُّك في صدغي.

«من هنا». تقودني روث إلى مطبخ صغير. هناك قطة أخرى تجلس على سطح المجلى –رمادية اللون، منفوشة الوبر، وذات ملامح عدوانية. أتساءل أين هو الكلب. لعل لورين خرجت لتنزيهه.

أُخرج هاتف ماركوس من جيبي وأضعه على طاولة المطبخ.

«لقد تبلَّل قليلاً لكنني أعتقد بأنه ما يزال يعمل».

تنظر روث إليه ولا تُبدي ملامحها أي تفاعل.

«ماركوس لديه آيفون».

«ليس بعد الآن، للأسف. لقد انكسر».

ترمقني بنظرة أكثر حدّة، ثم تقول: «انكسر أم تحطَّم».

«لا أعلم».

«بالتأكيد. لا أحد يعرف».

«إن أراد ماركوس تقديم شكوى بشأن التنمُّر–»

«ماذا؟ ماذا ستفعل؟ ماذا ستفعل المدرسة؟»

أفتح فمي لأقول شيئاً لكنه يتحرّك بلا صوت مثل سمكة أُخرجت من الماء.

تستدير روث نحو الخزائن وتُخرج كوبيْن، رُسم على أحدهما صورة قطة، وكُتب على الآخر: «ابقَ هادئاً. أنا مُنظِّفة».

«لقد ذهبتُ إلى المدرسة مرات كثيرة، وتحدَّثت مع مديركم».

«أجل».

«لم ينتج عن ذلك أي شيء جيد».

«يؤسفني هذا».

«ظننتُ أن الأشياء ربما تغيَّرت. أن المدارس لم تعد تتحمَّل مثل هذا النوع من الأمور. ظننت أنهم يقمعون التنمُّر».

«هذه هي الفكرة».

«أجل، فكرة جيدة. لكنها هراء». تستدير نحو الغلاية. «شاي؟»

«أمم. أفضِّل قهوة».

أود أن أخبرها بأنها مخطئة، وبأن المدارس تقمع التنمُّر فعلاً الآن. وبأنها لا تكنسه تحت بُسُط الصالة الرياضية من أجل تقرير جيد من مكتب معايير التعليم. هذا ما أريد أن أخبرها به.

«ليس لدينا قهوة».

لكننا لا نستطيع الحصول على ما نريده دائماً.

«الشاي جيد».

تملأ الكوبين بماء ساخن، ثم تضيف حليباً.

«أنا أتذكّرك من أيام المدرسة. كنتَ جزءاً من زمرة هيرست».

«لبعض الوقت».

«لم أعتقد يوماً بأنك مثل البقية».

«شكراً».

«لم أقل إنه كان إطراءً».

أتساءل كيف أرد، ثم أقرر التزام الصمت؛ في الوقت الحالي.

تُنهي إعداد الشاي وتجلب الكوبيْن: «هل ستجلس أم ماذا؟»

أجلس بتثاقل على كرسي فتأخذ الكرسي المقابل.

«سمعتُ أنك تستأجر المنزل».

«الأخبار تنتشر بسرعة في آرنهيل».

«كحالها دوماً».

تتناول كوب شايها وترتشف منه. أنظر إلى السائل البني الساخن العكر في كوبي وأقرر عدم فعل الشيء ذاته.

«هل كنتِ تنظّفين المنزل لصالح جوليا مورتون؟»

«صحيح. مع أنني أشك في أنها ستعطيك أي شهادة تنويه بي».

«لابد أنك عرفتها وعرفتِ بن؟»

تلفُّ كوبها بيديها وتنظر إليّ بمكر ثم تقول: «ألهذا السبب أنت هنا حقاً؟ تريد أن تعرف ما حدث؟»

«لديّ بضعة أسئلة».

«إنها ستكلِّفك».

«كم؟»

«تنظيف منزل كامل».

ما زلت أذكر لائحة أسعار لورين: «خمسون جنيهاً».

«نقداً».

أفكِّر في الأمر قليلاً ثم أقول: «نصف منزل –ويجب أن يكون شيكاً».

تسند ظهرها على كرسيها وتطوي ذراعيها، ثم تقول: «تابع».

«كيف كانت جوليا؟»

«جيدة، مثل المعلّمين. لم تكن متفاخرة كثيراً، لكنها كانت تعتقد بأنها أفضل من هذا المكان. معظمهم يعتقدون ذلك».

ولعل معظمهم أفضل منه بالفعل.

«لكنها لم تكن مكتئبة؟»

«ليس هذا ما رأيته».

«وبن؟»

«ولد طيب. على الأفل هكذا كان، قبل أن يختفي».

«ماذا حدث؟»

«لم يرجع إلى المنزل ذات يوم بعد المدرسة. خرج الجميع للبحث عنه». تسكت قليلاً. «ومن ثم عاد».

للمرة الأولى، أحس بأنها غير مرتاحة؛ بوجود صدع في الواجهة القاسية.

«ثم؟»

«أصبح مختلفاً».

«كيف؟»

«لطالما كان ولداً مهذباً ومرتّباً. لكنه بعد ذلك أصبح يترك المرحاض دون أن يجرفه بالماء. وأصبح سريره دائماً مبقّعاً بالعرَق، وأشياء أخرى. كانت تفوح من غرفة نومه رائحة نتنة، كأن شيئاً ما تسلّل إليها ومات فيها».

«لعله كان يمرُّ بمرحلة عابرة. قد يتحوَّل الأولاد من صغار لطفاء إلى مراهقين قذرين بغمضة عين».

تنظر إلي، وتشرب من شايها، ثم تقول: «اعتدتُ التنظيف هناك في آخر جولاتي. أحياناً كان يرجع من المدرسة فنتبادل الحديث وأعدُّ

الشاي لكلينا. وبعد عودته، كنت ألتفت فأجده واقفاً يحدِّق فيَّ فقط. كان ذلك يجعل جسدي يقشعرّ. الطريقة التي كانت ينظر بها إلي. الرائحة التي كانت تفوحِ منه. أحياناً، كان بوسعي سماعه يتمتم بصوت خافت. كلمات بذيئة. لم يكن ذلك حتى يشبهه. كان ذلك غريباً جداً».

«هل قلتِ شيئاً لجوليا؟»

«حاولت. كان ذلك عندما قالت إنها لم تعد تحتاجني. سرّحتني من العمل».

«متى كان هذا؟»

«قبل أن تُخرجه من المدرسة نهائياً بفترة وجيزة».

أنظر إلى كوبي وأتمنى لو أنه كان قهوة مكثَّفة. دعك من ذلك. أتمنى لو كان أمامي كأساً من الشراب مع سيجارة.

تقول روث: «افتحِ الباب الخلفي».

«ماذا؟»

«تريد أن تدخّن. لن أمانع واحدةً لي أيضاً. افتح الباب الخلفي».

أقف وأتجه نحو الباب وأفتحه. إنه يُفضي إلى حديقة خلفية صغيرة. يبدو أن أحداً ما حاول تزيينها ببضع نباتات ذابلة في أصائص. وفي نهايتها يوجد بيت لكلب. أعود وأجلس على كرسيي، ثم أُخرج سيجارتين من علبتي وأقدّم واحدة لروث، وأشعلهما.

ثم أسألها: «ماذا حدث لبن برأيك؟»

تجيبني بعد لحظة من التفكير: «عندما كنتُ صغيرة، كنا نملك كلباً. اعتدتُ تنزيهه عند موقع المنجم القديم».

«أتذكّر ذلك». أتساءل إلى أين سيفضي هذا الكلام.

«وذات يوم هرب. انزعجت كثيراً. كنت أحب ذلك الكلب. وبعد يومين عاد. كان شعره ملبّداً بالتراب والغبار، وكان هناك جرح كبير دامٍ حول رقبته. انحنيت لأداعبه فهزَّ ذيله وعضّ يدي. انغرزت أسنانه حتى

وصلت إلى العظام. أراد أبي قتله في الحال، قائلاً، »عندما يصبح الكلب سيئاً، فإنها النهاية. ليست هناك رجعة«.

أحدِّق فيها وأقول: «أتقارنين بن مورتون بكلب؟»

«أقول إن شيئاً ما حدث لذلك الصبي وإنه كان سيئاً لدرجة أن أمه لم تستطع العيش مع ذلك لحال أكثر». تسحب نَفَساً عميقاً من سيجارتها وتنفخ غيمة كثيفة من الدخان.

«هل قلتِ أياً من هذا الكلام للشرطة؟»

«هه. وأجعلهم يسمُّونني مجنونة؟»

«لكنكِ تخبرينني الآن».

«أنت ستدفع لي».

«وهل هذا كل شيء؟»

تُسقط السيجارة في كوبها ثم تقول: «كما قلت، أنت لم تكن مثل البقية».

«ألهذا السبب أرسلتِ الإيميل إلي؟»

تعبس وتقول: «أي إيميل؟»

«الذي يتعلق بأختي – إنه يحدث ثانيةً».

«لم أرسل لك أي إيميل. اليوم هو المرة الأولى التي أراك فيها منذ أن كنا صغاراً».

«أعرف أنكِ أرسلتِ الرسالة النصية». أتناول النوكيا من الطاولة. «لقد جاءت من هذا الهاتف. أظن أنه هاتف قديم لديك استعاره ماركوس».

«لم أرسل لك أية رسالة نصية لعينة. وهذا ليس هاتفي».

تبدو ملامح الحيرة على وجهها صادقة. ينبض رأسي بشكل أقوى. وفي الوقت المناسب، يُصفَق الباب ويدخل ماركوس إلى المطبخ.

«مرحبا ماما». ثم يراني. «ماذا يفعل هنا؟»

أرفعِ الهاتف وأقول: «لقد أعدتُ هاتفك».

يمتقع وجهه.

فأسأله: «من أين حصلتَ عليه؟»

«إنه ملكي منذ وقت طويل».

«حقاً؟ إذن، هل هذا يعني شيئاً لك –اخنقِ الأطفال الصغار. اعتدِ عليهم. وليتعفَّنوا في رقادهم؟»

ملامحه كلها تشي بذنبه.

تقول روث: «ماركوس؟»

«كانت مجرد مزحة. لعبة».

«كل ذلك فكرتك إذن؟»

«أجل».

«لا أصدّقك».

«هذا حقيقي».

«هل أجبرك شخص ما على إرسال الرسالة النصية؟»

«لم يكن الأمر بهذه الطريقة. لم يجبرني أحد على فعل أي شيء». يرفع ذقنه بتحدٍّ.

«لا بأس». أضع الهاتف في جيبي. «أعتقد أنه يتوجب علي أن أدع الشرطة تتولّى هذا الأمر».

أخطو خطوة نحو الباب.

«انتظرْ!»

ألتفت ثم أقول: «ماذا، يا ماركوس؟»

ينظر إليّ بيأس ثم يقول: «لن تفقد عملها، أليس كذلك؟»

22

1992

مزيد من الدرجات، لكنها كانت مختلفة عن الأولى، فهذه محفورة في الصخر، وذات مسارٍ منحنٍ تدريجياً، مثل سلّم. ولكن، سلَّم زلق وخطر. كانت بعض الدرجات تتفتّت قليلاً عند الوقوف عليها، مسقطةً ذرّات من فتات الصخر إلى الأسفل –بدا السقوط عميقاً جداً.

كانت الجدران على كلا الجانبين مدبَّبة، وكان السقف فوقي منخفضاً بحيث كنت مضطراً لثني ركبتيَّ قليلاً. كنتُ قد عدَّلت موضع البطارية على خوذتي، ولكن بسبب الانحناءة كان الضوء يُنير فقط درجةً أو درجتين في كل مرةً، ولهذا السبب كانت الدرجة الثالثة تبدو كأنها غارقة في الظلام. كان بوسعي رؤية المصباحيْن الآخريْن يهتزّان إلى الأعلى والأسفل، لكنهما كانا يقدِّمان بُقَعاً غريبة وغير منتظمة من الضوء. مع ذلك كانا، على الأقل، يثبتان أن أحداً لم يسقط عن حافة إحدى الدرجات الخطرة وكسر رقبته. حتى ذلك الحين.

بين الحين والآخر، كنتُ أسمع أحدهم يشتم –في الغالب، ماري. لم أكن أعرف كيف كانت تتدبَّر أمرها بالكعب العالي. كان العرَق يغطي جسدي تحت أوفيرول عامل المنجم الذي كنت أرتديه. وكان ينساب على جبيني ويقطر حوالي حاجبي. وكان قلبي ينفض بعنف ونَفَسي يزداد اضطراباً، ليس بسبب التوتر والجهد، فقد أخبرني أبي ذات مرة أن الأوكسجين يقلُّ في الهواء كلما ازداد نزولك عمقاً.

قال فليتش متذمِّراً: «كم بقي لدينا لننزل؟» إذا كنتُ أجد ذلك صعباً فلابد أن فليتش –الذي كان يدخِّن علبة سجائر في اليوم– كان يعاني حقاً.

توقّعتُ من هيرست أن يرد، لكن كريس هو من أجاب: «نحن قريبون». وقد قال ذلك بهدوء، وكان بوسعي أن أقسم بأنه لم يكن يلهث مطلقاً، بل بدا من صوته أنه لم يكن يتعرَّق.

واصلنا تقدُّمنا المتعثر والمترنِّح. وبعد بضع دقائق أخرى أدركتُ أنني لم أعد أنحني كثيراً. كان السقف يزداد ارتفاعاً، وبات بوسعي

الوقوف منتصباً. وبدا بأن نوعية الضوء تتغيّر أيضاً، إذ لم تعد الظلمة شديدة. وحتى الهواء بدا بأنه قابل أكثر بقليل للتنفس.

قلت في داخلي: أصبحا أقرب. ولكن إلى ماذا؟

عندئذ صاح كريس: «انتبهوا. توجد هوّة».

كان محقاً فما أن انعطفنا حول الزاوية التالية حتى انفتح الممر على كهف أكبر بكثير. كان السقف على شكل قبة عالية غير متقنة الصنع مدعَّمة بعوارض خشبية ثخينة متقاطعة ومنحنية بطريقة ذكَّرتني بالأسقف المقبّبة للحظائر أو الكنائس، ولكن بشكل أكثر بدائية. كان هناك مزيد من الدرجات، ولكن لم يعد هناك حائط على جهتنا اليسرى، وإنما مجرد هوَّة مجهولة العمق.

صاحت ماري فجأة: اللعنة! السايدر». ودوَّى صوت تكسُّر الزجاج في الظلام.

تشتَّت تركيزي بفعل المفاجأة فانزلقت القدم التي كنتُ أستعد لوضعها على الدرجة التالية وانثنى كاحلي فصرخت متألماً ومددت يدي لأستند إلى الجدار، لكنه، بالطبع، لم يعد موجوداً.

خنق الرعب الصرخة في حنجرتي. حاولت الإمساك بشيء ما – أي شيء– ولكن كان الأوان قد فات. كنتُ أسقط. أغمضتُ عينيَّ استعداداً للسقطة الطويلة...

... واصطدمتُ بالأرض على الفور تقريباً، في خبطة مفاجئة مؤذية للعمود الفقري.

«آووووو. اللعنة».يس

صاح كريس: «جو؟ هل أنت بخير؟»

حاولتُ الجلوس فشعرت بألم خفيف في ظهري. كان مرضوضاً، ولكن كان من الممكن أن تكون الإصابة أشد سوءاً بكثير. نظرتُ إلى

الأعلى فرأيت أضواء المصابيح وظلالاً غامضة على بُعد بضعة أقدام فقط فوقي.

أدركت أننا وجدنا المكان. لقد وصلنا.

هممتُ بالنهوض فأحسست بألم حاد في كاحلي.

«اللعنة».

تحسَّسته فوجدت أنه كان متورِّماً قليلاً. رجوتُ أن أكون لويته فقط ولم أكسر أي عظم لأنني كنتُ مضطراً لتسلُّق كل تلك الدرجات من جديد.

صرختُ قائلاً: «أنا بخير. لكنني أصبت كاحلي اللعين».

قال هيرست، بنبرته المتعاطفة المألوفة: «بوو هوو. ماذا يمكنك أن ترى؟ ماذا يوجد في الأسفل عندك؟»

كانت خوذتي مائلة على رأسي. سندتُ نفسي على جدار صخري لتخفيف الثقل على كاحلي المصاب وعدَّلتها. نظرتُ حولي فرأيت مزيداً

من الدعامات الخشبية موضوعة في الجدران على نحو شاقولي. وفيما بينها رأيتُ أشكالاً وأنماطاً بدت كأنها صُنعتْ بواسطة عصيّ بيضاء مغروزة في الصخر. كانت التصاميم معقدة –نجوم وأعين وأحرف غريبة الشكل. كبحتُ ارتعاشة صغيرة. وعلى بعض الجدران، كان هناك أكوام من العصي والصخور الصفراء مكدّسةً بإحكام ضمن تجاويف مقوَّسة كبيرة.

لم يعجبني ذلك أبداً. كله. كان مخيفاً، وغريباً، وغير قويم.

نزل كريس على مهل إلى الكهف، في حين قفز هيرست وحطّ بجانبي مع خبطة، تلته على الفور تقريباً ماري وفليتش. خيَّم الصمت لبضع لحظات بينما كان الجميع ينظرون حولهم.

قالت ماري: «واووو. هذا رائع جداً. يبدو كأنه مأخوذ من فيلم الأولاد الضائعون».

قال فليتش مُظهراً سعة مخيلته الاعتيادية: «هل هذا شيء متعلق بالمنجم؟»

«لا». جاءت الكلمة من كريس، لكنه خطفها من رأس لساني.

لم يكن لعمال المنجم علاقة بذلك المكان، لأن المناجم خشنة، لا تهتم بحسن المنظر، وصناعية، تُحفَر بأدوات وآليات ثقيلة.

أما ذلك المكان، فكان مختلفاً. إنه لم يُشكَّل بدافع الضرورة أو بواسطة حرَفية مثابرة وصبورة، بل -أردتُ أن أقول الشغف، لكنها لم تكن الكلمة الصحيحة تماماً. وبينما كنتُ أنظر حولي، انبثقتْ كلمة أخرى في رأسي من تلقاء نفسها. إنه الإخلاص. أجل، الإخلاص.

قال هيرست لفليتش: «دَوِّرْ ضوء مصباحك أيها الغبي». فامتثل فليتش بانصياع.

دار حول نفسه موجِّهاً ضوء مصباحه نحو أعماق الكهف، لكن الضوء بالكاد وصل إلى الجدران البعيدة، وبدلاً من إنارتها بدا كأنه كان يكثِّف الزوايا والفجوات العميقة الملأى بالسواد. لعله كان مجرد تأثير غريب للضوء، لكنك إن نظرتَ بسرعة، بطرف عينك، فإنك ستشعر وكأن الظلال تتحرّك -تتغيَّر وتنحسر بتململ.

قال هيرست بصوت منخفض: «هذا غريب حقاً. فطيرة العجين محق. هذا ليس منجماً». التفت نحوي. «بماذا تفكِّر يا ثورني؟»

كنتُ أحاول، لكن التفكير كان شاقاً في الأسفل هناك. رغم أن الكهف كان واسعاً والجو لم يكن خانقاً بالقدر الذي كان عليه في النفق الضيِّق، إلا أنني كنت أجد مشقة في التنفس. كأن الأوكسجين استُبدل بشيء آخر؛ شيء أثقل وملوث إلى حد ما. شيء لا ينبغي لأي إنسان تنفُّسه، مطلقاً.

خطرت في ذهني فجأة الغازات السامة. غالباً ما كان أبي يتحدث عن الأبخرة التي كانت تنبعث من أعماق الأرض. هل كانت هي تلك الأبخرة؟ هل كنا نتسمَّم ببطء أثناء وجودنا هناك؟ نظرتُ إلى كريس.

«كريس، ما هذا المكان؟»

كان ما يزال واقفاً بجوار الدرجات، غير متجرِّئ على التقدُّم خطوة واحدة. كان وجهه شاحباً ومتسخاً. لم يكن يبدو عليه الخوف تماماً، لكنه كان متوتراً. كان يبدو أكبر بكثير من سنواته الخمس عشر –

مثل الرجل الذي لن يكونه أبداً. ثم التقت عيناه المشرقتان بعينيَّ، ففهمت. إنه لم يجد ذلك المكان، بل المكان وجده. وكان في تلك اللحظات يرغب في أن يدعه يغادر كما جاء.

قال: «ألم تعرفوا بعد؟ ألم تفهموا؟»

نظرتُ مجدداً إلى الكهف. إلى السقف المقبَّب، والعوارض الخشبية. وعندئذ أدركت. كنتَ ستجد الأمر واضحاً من النظرة الثانية. هواء لا ينبغي استنشاقه. قاعة ضخمة تحت الأرض. مثل كنيسة، لكنها ليست بكنيسة.

قال هيرست: «نفهم ماذا؟»

وبعد تلك الفكرة مباشرة، جاءت فكرة أخرى. العصي البيضاء في الجدران والصخور المكدَّسة في الكوّات. تقدَّمتُ بخطوات عرجاء نحو أقرب جدار فأنار الضوء الصادر عن خوذتي نجمةً، ورمزاً يشبه اليد، وخطوطاً مرسومةً على هيئة إنسان. ولم تكن العصي بيضاء نقية عند النظر إليها عن قرب. ولم تكن عصيّاً. بل كانت شيئاً آخر.

شيء تتوقع إيجاده في مكان كذاك المكان.

في قبر. في غرفة دفن.

قال هيرست بغضب: «ثورني، هل ستخبرني بما يجري؟»

قلت بصوت هامس، لأن الرعب سحب القوة من صوتي: «عظام. الصخر –إنه مليء بالعظام».

في بعض الأحيان، نستغرق وقتاً لندرك أن شيئاً ما خاطئاً، أو غير طبيعي –أو نتن. كما يحدث عندما تقف على براز كلب، ولا تدرك أن الرائحة الكريهة آتية منك في الواقع، إلا عندما تجلس في السيارة، متسائلاً من أين تأتي هذه الرائحة الكريهة. لقد جلبتَها معك لتذهب معك في جولة.

عند وصولي إلى المنزل ألاحظ أن الباب الأمامي مفتوح قليلاً. أنا واثق تماماً بأنني أغلقته وقفلت الباب. مع اقتربي أكثير، أرى أن الإطار مخلوع ومكسور. أدفع الباب فأفتحه كله وأدخل.

وسائد الأريكة مرميّة وممزّقة، وأحشاؤها الشبيهة بالرغوة متناثرة على الأرض. وطاولة القهوة مقلوبة على ظهرها، وأدراج الخزانة الصغيرة مسحوبة من أمكنتها. واللابتوب محطّم.

لقد قُلب المنزل رأساً على عقب. أقف عابساً محاولاً تقييم الوضع. ومن ثم يخطر في ذهني فليتش وابنيه؛ ربما بتوجيه من هيرست. أعتقد أنه لم يرغب بالتفاوض في نهاية المطاف. هذا ليس بغريب على هيرست –إن لم يشأ أحدهم إعطاءك شيئاً ما، فخُذْها أنت، بأية طريقة.

لكنني أعلم علم اليقين بأنهم لن يجدوا ما كانوا يبحثون عنه.

أصعد السلَّم بإرهاق إلى الطابق العلوي. لقد شُقَّ فراشي ونُزعت أحشاؤه، وسُحبت جميع ملابسي من علّاقاتها في الخزانة وكُوِّمتْ على الأرض. أنحني لألتقط بعض القمصان فأعرف على الفور، من الرطوبة والرائحة النفّاذة، أنهم بالوا عليها جميعاً.

أتفقّد الحمام فأرى ستارة الدوش مخلوعة وملقاة على الأرض بدون أي سبب واضح، وخزّان المرحاض منتزَعاً من مكانه ومحطَّماً. كان بوسعي إخبارهم بأن أي شيء يمكن أن يفعلوه هنا لن يزعجني بقدر ما أزعجتني الأشياء التي صادفتُها مسبقاً.

وأخيراً، أتفقّد الغرفة الإضافية –غرفة بن. أفتح الباب، وأحدِّق في الفراش الممزَّق، والسجّادة المقطَّعة، فأشعر ببعض الغضب يثور في داخلي. أعود إلى الطابق السفلي.

أجد آبي–آيز في مدفأة الحطب إلى جانب الملف الذي وجدته أسفل الملاك. أقرفص وأُخرجهما. إنهما مغبرّان ومسودّان لكنهما لم يُحرَقا. أتساءل لماذا؟ أضع آبي–آيز على طاولة القهوة. وبعد لحظة من التفكير أضع الملف داخل إحدى الوسائد المشقوقة، على سبيل الأمان. ثمة شيء يزعجني. لماذا لم يحرقه أوغاد هيرست؟ هل سئموا من تخريبهم عند تلك اللحظة؟ يبدو ذلك غير محتمل. هل نفد منهم الوقت؟

أم هل كان هناك شيء آخر؟ هل أعاقهم أحد؟

ينتابني إحساس مفاجئ بالسوء. أسمع صريراً آتياً من المطبخ.

أنهض وأستدير.

«مساء الخير جو».

أجلس على الأريكة منزوعة الوسائد وتجلس غلوريا برقّة على المقعد. يطقطق اللهب بصخب في مدفأة الحطب. ليس هذا وضعاً مريحاً كما يبدو، فغلوريا ترتدي قفازاً جلدياً أسود وتمسك بمنخس الحطب بيدها.

«ماذا تفعلين هنا؟»

«أتفقَّد وضعك؟»

«أجد ذلك صعب التصديق».

تضحك. مثانتي تكاد تنفجر.

«أرى أنه كان لديك ضيوف اليوم».

«قابلتِهم؟»

«كانوا يغادرون عند وصولي. لم تسنح لنا فرصة تبادل الحديث».

تتلفَّت حولها قائلاً: «أرى أنهم كانوا يبحثون عن شيء ما. لعله الشيء ذاته الذي كنتَ تأمل بأن يدفع صديقك القديم من أجله مبلغاً كبيراً من المال».

«لم يجدوا ما كانوا يبحثون عنه».

«أنت متأكد».

«أجل».

«لماذا؟»

«لأنني لا أملك ما يبحثون عنه. ليس هنا».

تفكِّر في الأمر لوهلة ثم تقول: «لقد وجدتُ، من خلال عملي، أنه من المفيد أن تمتلك جميع الوقائع».

«لقد أخبرتُك–»

«أخبرتَني هراء!»

تهوي بمنخس الحطب على طاولة القهوة فتطير آبي–آيز في الهواء وتحطُّ بجوار قدميّ. هنالك شق في وجهها البلاستيكي، وعينها السائبة خرجت من محجرها وهي تحدِّق فيَّ الآن من الأرض. تتجمَّع قطرات من العرَق أسفل ظهري.

تتابع غلوريا قائلةً: «لحسن الحظ، لقد أجريت بعض البحث بنفسي. كان مثيراً للاهتمام».

تقف وتذهب إلى المدفأة ثم تنحني وتفتحها.

«دعني أعيدك خمساً وعشرين سنة إلى الوراء. خمسة أصدقاء من المدرسة. أنت، وستيفين هيرست، وكريستوفر مانينغ، وماري غيبسون، ونيك فليتشر. أوه، وشقيقتك الصغيرة، آني. لم تخبرني عنها أبداً».

تضع نهاية المنخس في المدفأة وتغرزه عميقاً داخل الحطب فيرتفع صوت طقطقة اللهب.

«ذات ليلة، عندما كنتَ خارجِ المنزل مع أصدقائك، اختفت من سريرها. جرت عمليات بحث ومناشدات. وظنّ الجميع بالأسوأ. ومن ثم، وبصورة عجائبية، بعد ثمان وأربعين ساعة، رجعتْ. ولكن، لم يكن بمقدورها، أو لم تشأ، التحدث عما حدث لها...»

«لا أرى–»

«دعني أكمل. نهاية سعيدة، لولا أن الوالد، بعد شهرين، يصدم سيارته بشجرة ويقتل نفسه وآني الصغيرة، ويتركك مصاباً بجروحٍ بليغة. كيف أُبلي حتى الآن؟»

أحدِّق في المنخس داخل المدفأة وأقول: «كما قلتِ، لقد أجريتِ بحثك الخاص».

تقف غلوريا وتبدأ المشي في الغرفة: «أوه، نسيتُ شيئاً –بعد بضع أسابيع من عودة شقيقتك، يسقط صديقك كريستوفر مانينغ من المبنى الإنكليزي في المدرسة. مصادفة مأساوية، ألا تظن ذلك؟»

«الحياة ملأى بالمصادفات المأساوية».

«نتقدَّم بسرعة إلى الوقت الحالي، وأنت تعود إلى القرية التي نشأتَ فيها. وتخطط لابتزاز صديق مدرستك القديم ستيفين هيرست مقابل مبلغ كبير من المال. ماذا لديك ضده؟ ماذا يُخفي؟»

«يملك شخص مثل هيرست الكثير من الأسرار».

«لقد بدأتُ أعتقد بأنك أنت أيضاً تملك الكثير من الأسرار، يا جو».

«لماذا تبالين؟»

«لأنني أحبك».

«لديكِ طريقة شديدة الغرابة في إظهار ذلك».

«انظرْ إلى الأمر من زاوية أخرى إذن. أنتَ تثير اهتمامي، وهذا ما لا يفعله الكثير من الناس. أولاً، أنت من أقل المعلّمين الذين قابلتهم

ملاءمةً لمهنتك. أنت سكّير، ومقامر. لكنك تملك رسالة. اخترتَ إعطاء المعرفة للطلاب. لماذا؟»

«تحصلين على الكثير من العطل».

«أعتقد بسبب ما حدث هنا، قبل خمسة وعشرين عاماً. أعتقد أنك تحاول التكفير عن شيء ما».

«أو أحاول فقط إعالة نفسي».

«تناوُلُ الأمور بطريقة هزلية آلية دفاع ضعيفة. ثق بي، فأنا أعلم. إنها من أوائل الأشياء التي تسقط عندما يخاف الناس على حياتهم».

«أهذا تهديد؟»

«في الواقع، ما سأمنحك إياه هو شريان حياة».

تقترب مني فأنكمش على نفسي. تنحني وتُخرج شيئاً ما. إنها بطاقة فارغة إلا من رقم هاتف.

تمدُّ يدها وتدسُّ البطاقة في جيب بنطالي الجينز، وتربِّت بنعومة على....

«يمكنك الاتصال بي على هذا خلال الساعات الثماني والأربعين التالية إن احتجتَ مساعدتي».

«لماذا؟»

«لأن لدي، في أعماقي، نقطة ضعف تجاهك».

«من المريح سماع هذا».

«لا تسئ فهمي».

تعود عيناي إلى المنخس. النار تتَّقد.

«البدين ينفد صبراً».

«أخبرتك–»

«اخرسْ».

العرَق يقطر الآن بين شق مؤخرتي. وأشعر بمغص شديد في معدتي. أريد أن أتقيأ وأتغوّط وأتبوّل في وقت واحد.

«لقد منحك وقتاً إضافياً. والآن، إنه يريد ماله».

«سوف يحصل عليه. لهذا السبب أنا هنا».

«أعرف يا جو. لو كان الأمر بيدي». ترفع كتفيها قليلاً. «ولكن، يبدو له بأنك هربت. وهذا لا يوحي بالثقة. يريد البدين أن يكون واثقاً من أنك تفهم مقدار جدّيّته».

«أنا أفهم، حقاً».

تُخرج المنخس من المدفأة. رأسه أحمر متوهج. أنظر إلى الباب، لكنني أعرف بأن ذراعيها ستطوِّقان رقبتي حتى قبل أن أتمكَّن من رفع ظهري عن الأريكة.

«رجاءً—»

«كما قلتُ يا جو، لدي نقطة ضعف تجاهك».

تتجه نحوي وتقرفص بجواري ثم ترفع المنخس. أشعر بحرارته من مكاني.

تبتسم غلوريا وتقول: «لذا سوف أعفي وجهك الجميل».

أستلقي على الأريكة. لقد ابتلعتُ أربعة أقراص من الكودايين وأنهيت زجاجة الشراب. يدي اليسرى ملفوفة بمنشفة شاي قديمة ومستريحة على أصابع سمك مجمَّدة. إنها تؤلمني بشكل طفيف الآن. لكنني لا أتوقع عزف كونشيرتو على آلة الكمان في أي وقت قريب، على أي حال.

جلدي محموم. أدخل وأخرج بشكل متناوب من دائرة الوعي. ليس نوماً، وإنما مجرد منطقة سوداء ورمادية تتخلَّلها رؤىً غريبة.

في واحدة منها، أكون موجوداً في موقع المنجم القديم. لست وحيداً. كريس وآني يقفان فوق إحدى التلال. السماء معلَّقة فوقهما مثل كيس من الزئبق، يتخلَّلها ضوء فضي ويتساقط منها مطر أسود. يستبدُّ الغضب بالريح فجأةً وتهجم بمخالب غير مرئية.

رأس كريس مشوّه بشكل غريب، ومجوَّف من الخلف، والدماء تسيل من أنفه وعينيه. وآني تمسك بيده. وآني هذه، هي آني التي أعرفها. الجرح الغائر البشع واضح على رأسها، ومتقيِّح. وبينما أراقبهما، تفتح فمها وتقول بعذوبة:

أعرف إلى أين ذهب رجال الثلج يا جو. أعرف إلى أين ذهبوا الآن.

تبتسم فأشعر بالسعادة، والهدوء، والسكينة. ولكن، بعد ذلك، تنخفض الغيوم فوقهما وتنتفخ، وأراقب صديقي وشقيقتي وهما يسقطان إلى الأرض، مغمورَيْن بشلّال من الخنافس السوداء اللامعة المتحرِّكة إلى أن لا يعود بوسعي رؤية سوى كتلة من السواد تبتلعهما كلياً.

يرنُّ هاتفي فينقذني.

أقلب نفسي وألتقطه باليد السليمة، ثم أنظر بعينين نصف مغمضتين إلى الشاشة. بريندان. أضغط على زر قبول بإصبع مرتجف.

أقول بصوت متحشرج: «أنت على قيد الحياة؟»

«في آخر مرة تفقَّدتك فيها بدوتَ مثل الهراء».

«شكراً».

«أحب صدقي».

«لا تنسَ مؤخرتك الصغيرة الجميلة».

«أكل صحي، وبلا شراب. يجب أن تجربّ ذلك».

أقول: «إنني أتصل بك منذ أيام».

«فقدتُ شاحن هاتفي. ما الأمر المستعجل جداً؟»

«أردتُ فقط... الاطمئنان عليك».

«باستثناء الحنين لحانتي المفضّلة، أنا في أحسن حال. متى يمكنني العودة؟»

أنظر إلى يدي المحروقة المضمّدة وأقول: «ليس بعد».

«اللعنة».

«وقد تكون فكرة حسنة الانتقال من الشقة لبعض الوقت أيضاً».

«يا الله! هل لهذا علاقة بعادتك المتعلقة بأن تكون مديناً بالمال لأشخاص سفلة؟»

أشعر بوخز الضمير. كان بريندان طيباً معي، بل أكثر من طيب. لقد سمح لي بمشاركته شقته بدوم مقابل. ولم يلقِ علي أبداً محاضرات بشأن مقامرتي. معظم الناس كانوا سيفقدون الأمل مني، ولكن ليس بريندان. والآن، ها أنا أرد له الجميل بتعريضه للخطر.

«هل تملك مكاناً لتمكث فيه الليلة؟»

«الليلة؟ في الواقع، هناك أختي. أنا واثق بأن زوجها سيطير من الفرح من أجل ذلك».

«لا يجب أن يطول هذا الأمر».

«يجب أن أرجو ذلك». يتنهّد. «هل تعلم ماذا كانت ستقول أمي العزيزة العجوز؟»

«(أنا أفقد صوتي)، كما آمل؟»

«متى سيتوقف الأرنب عن الجري من الثعلب؟»

أئن وأقول: «متى؟»

«عندما يسمع صوت بوق الصيّاد».

«المعنى؟»

«أحياناً تكون بحاجة لشخص أكبر –مثل الشرطة– لحل مشكلتك».

«أنا أقوم بحلها. اتفقنا؟»

«كما حلّيتَها من قبل –بسرقة مال التبرُّعات من خزنة المدرسة؟»

«لم آخذ بنساً».

هذا صحيح، ولكن فقط لأن ديبي –أمينة السر المدمنة على حقائب اليد– وصلت إلى هناك قبلي. وعندما اكتشفتُ الأمر توصَّلنا إلى اتفاق بأن لا أقول شيئاً إن أعادت النقود. وبأن أغادر بهدوء (على أي حال، كان قد صدر بحقي في ذلك الحين الإنذار التحريري الأخير المتصل بعدم الالتزام بالدوام الرسمي، واللا مبالاة في العمل، وسلوكي العام). آه، وستكون مدينة لي أيضاً.

أقول: «كان ذلك مختلفاً».

«أذكر. أنا الذي كان يجلب لك العنب كل يوم إلى المستشفى عندما لم تستطع دفع ديونك وقام شخص ما بصنع مجسّم ورقي من ركبتك».

«زرتني مرتين في المستشفى ولم تجلب لي عنباً قط».

«أرسلتُ لك رسائل نصية».

«أرسلتَ إلي صوراً إباحية».

«حسناً، من يحتاج إلى عنب لعين؟»

«اسمعْ، سأحلُّ هذا الأمر حقاً».

«هل ذكرتُ بأنني سأضطر لمشاركة غرفة أختي الإضافية مع فئران هامستر لعينة تصرصر طوال الليل؟»

«أنا آسف».

«أو أن لديها ولدان يعتقدان أن الخامسة صباحاً وقت مقبول على نحو مثالي للعب الترامبولين على بطن خالهما؟»

«أنا آسف».

«الأسف لن يساعد فتقي».

«أحتاج فقط إلى بضعة أيام أخرى».

بعد تنهيدة عميقة جداً، يقول بريندان: «لا بأس. ولكن، إن لم تستطع حل الأمر، أو إن واجهتَ أي شيء لا يمكنك معالجته–»

«سأتصل بك».

«يا الله، لا. اتصل بالشرطة، أيها الأحمق. أو بفريق النخبة».

«وهكذا عندئذ قلتُ لهذه الطالبة إنني، رغم احترامي حقها بالتعبير عن نفسها من خلال رمي الحذاء...»

يواصل سايمون كلامه البطيء. هذا يعطي فكرة عن حالتي الذهنية الحالية وهي أن الطبيعة المنوِّمة لصوته محمولة على نحو غامض في فترة الغداء هذه. أو لعلي نجحتُ في اعتبارها ضوضاء بيضاء فحسب؛ مزعجة ولكن يمكن تجاهلها.

أنا وسايمون وبث فقط في الكافتيريا اليوم. لستُ جائعاً على الإطلاق، لكنني أجبر نفسي على أكل بضع شرائح بطاطا مقلية على أمل أن تساعدني ولو قليلاً في التخلُّص من آثار الكحول. وأمامي أيضاً العلبة الثانية من الكوكا كاملة الدسم.

يتابع سايمون «نكاته» اليومية المتوقَّعة والإلزامية وأنا أبتسم مانعاً نفسي بمشقة من لكمه في الوجه –لأن ذلك سيؤلم يدي على الأقل. لقد

نجحتُ في صنع ضمادة احترافية نسبياً من قطع مقصوصة من غطاء وسادة وأخبرت الآخرين بأنني أحرقت نفسي بالفرن. طهو ثمل، إلخ. ترمقني بث بنظرات عارفة بين الحين والآخر. إنها لا تصدقني، لكنني لا أبالي في الوقت الحالي، فأنا أكثر انشغالاً بما حدث في الليلة الماضية. بما أخبرني به ماركوس. بلقائي مع غلوريا. بالمأزق الفظيع العالق فيه الآن وبصعوبة وجود قعر أكثر عمقاً من القعر الذي بلغته.

«سيد ثورن؟»

أرفع نظري فأرى هاري واقفاً متجهّم الوجه بجوار طاولة الغداء.

«هل يمكننا التحدث في مكتبي؟»

صعب ولكن ليس مستحيلاً.

«بالتأكيد».

أنتظر نوعاً ما من التعليق الساخر من سايمون لكنه لا يتفوّه بأية كلمة. يبدو أنه مركّز على غدائه. مركّز جداً في الواقع. أدفع كرسيّي إلى الخلف.

ترفع بث حاجبيها وتقول: «أراك لاحقاً».

«أجل».

أتبع هاري عبر الممر.

«هل يمكنني أن أسأل عن الموضوع؟»

«أفضّل الانتظار إلى حين الوصول إلى مكتبي».

نبرته قاسية وغامضة. وهذا لا يعجبني. ينتابني إحساس سيئ جداً بخصوص هذا الأمر.

يدفع هاري الباب ويدخل، وألحق به ثم أقف متسمّراً في مكاني.

يوجد ضيف جالس أمام طاولة مكتب هاري.

عند دخولنا يقف ويلتفت.

أود القول بأن قلبي هبط، لكنني لست واثقاً بأن بإمكانه الغوص أعمق من ذلك بدون قناع وأوكسجين. في الحقيقة، إنني أوشك على أن أضحك. حقاً، كان يجب علي توقُّع ذلك، فأنا مقامر. يُفترَض بي التفكير في جميع النتائج الإيجابية قبل التصرّف ووضع استراتيجيتي– لكنني أشعر فجأةً مثل سمكة تونا شهيَّة تتقلَّب على مائدة أسماك قرش.

يغلق هاري الباب وينقِّل نظراته بيننا ثم يقول: «أعتقد أنكما تعرفان بعضكما».

يقول ستيفين هيرست: «نشأنا كلانا في آرنهيل. فيما عدا ذلك، لا يمكنني على الإطلاق القول إنني (أعرف) السيد ثورن».

«في الحقيقة، كنتُ انتقائياً بشأن أصدقائي حتى في ذلك الحين».

تتغيَّر ملامح هيرست المتعالية لوهلة قبل أن يلاحظ يدي المضمّدة، فيقول: «كنتَ تنتقي الشجارات مجدداً؟»

«فقط مع الفرن. ولكن، إن كنتَ تعرض ذلك؟»

يقاطعنا هاري بحزم، قائلاً: «سيد ثورن، سيد هيرست. هل يمكننا الجلوس كلنا؟»

يجلس هيرست على مقعده، وبتردد أمشي نحو المقعد المقابل وأفعل الشيء ذاته. يبدو الوضع شديد الشبه بطريقة جلوسنا أمام المدير منذ خمسة وعشرين عاماً.

يقول هاري: «إذاً» –يقلِّب بعض الأوراق أمامه– «لقد بلغتني بعض الأمور وأعتقد بأننا بحاجة لمناقشتها».

أحاول التحدُّث بنبرة لطيفة: «ألهذا علاقة بجيريمي هيرست والمشكلة مع ماركوس داوسون في المراحيض البارحة، لأنني–»

يقاطعني هاري قائلاً: «لا. لا علاقة له بذلك».

«أوه».

أنا في وضع دفاعي. ألقي نظرة إلى هيرست فأرى أن وجهه استعاد تعبيره المتعالي السابق. أود أن أمسحه عن وجنتيه بلطمة قوية على وجهه. أود أن أقفز من فوق كرسيي وأقبض على رقبته وأخنقه إلى أن تنتأ عيناه ويصبح لسانه أزرق.

بيد أنني أقول: «إذن أظن أنه من المستحسَن أن تنوِّرني».

«قبل أن تأخذ موقعك معنا هنا في آرنهيل عملتَ في ستوكفورد أكاديمي».

«صحيح».

«قدَّمتَ شهادة تعريف بك من مديرتك السابقة –الآنسة كوومبس؟»

«أجل». أشعر بالعرق يبدأ بترطيب إبطيّ.

«غير أنها ليست صحيحة تماماً، أليس كذلك؟»

«أخشى أنني لا أفهم».

«لم تقدِّم الآنسة كوومبس شهادة التعريف تلك».

«حقاً؟»

«إنها تنكر أية معرفة بها».

«في الحقيقة، أعتقد أنه قد يكون هناك سوء فهم».

«أشك في ذلك. كانت الآنسة كوومبس واضحة تماماً. لقد غادرتَ ستوكفورد أكاديمي بشكل مفاجئ، بعد فترة ليست بطويلة من فقدان كمية كبيرة من المال من خزنة المدرسة».

«ذلك المال استُعيد».

لم يعد بوسع هيرست ضبط نفسه لفترة أطول: «يبدو بوضوح أنك تحب لعب الورق يا جو؟»

أردُّ عليه: «لماذا، هل تود أن تلعب لعبة الكذاب؟ وما علاقتك بأي من هذا؟»

«في حال نسيت، أنا في مجلس المحافظين. عندما يبلغ مسامعي أن أحد المعلّمين هنا ليس مناسباً للوظيفة–»

«عفواً –بلغ مسامعك– بواسطة من؟»

يزمُّ شفتيه. فجأةً يخطر في ذهني سايمون سوندرز. كان موجوداً في مشرب فوكس في تلك الليلة التي اصطدمتُ فيها مع هيرست. وهو يعرفه (ومن لا يعرفه في آرنهيل؟) لماذا يذهب إلى هاري عندما يكون باستطاعته تجاوزه وقول كل شيء لشخص في مجلس المحافظين؟ شخص يكرهني مسبقاً. وبذلك ينال حظوة عند هيرست وربما يُخزِّن لنفسه بعض الخدمات.

أقول له: «يجب أن تكون حذراً ممن تصغي لهم».

«إذن فأنت لا تنكر الأمر؟»

«أقول إن النسخة المقدّمة هنا لا تحمل إلا شبهاً طفيفاً بالحقيقة. شيء أفضِّل مناقشته مع رئيسي على انفراد».

تلتمع عينا هيرست عندما يقول: «الحقيقة هي أنك قبلتَ هذا العمل تحت ادّعاء مزيّف وتركتَ عملك السابق تحت ظلال من الشك. هذا بالإضافة إلى حقيقة أنك تضمر ضغينة نحو ابني، بلا شك استناداً إلى تاريخك السابق المتخيَّل معي. إن سلوكك وأداءك كمعلِّم غير مقبولَيْن على نحو كلي. آه، وتفوح منك رائحة خمر كريهة».

يعدِّل ربطة عنقه ويسند ظهره بنشوة المنتصر. يحدِّق هاري فيَّ بإرهاق من وراء طاولة مكتبه.

ثم يقول: «أنا آسف سيد ثورن. سيُعرَض هذا الأمر على المجلس. يحق لك تمثيلاً نقابياً، ولكن في ضوء هذه المعلومات–»

«اتهامات. غير مثبتة في معظمها».

«مع ذلك، لا خيار لدي سوى تعليقك مؤقتاً من واجبات التعليم حتى نتوصل إلى قرار بشأن مستقبلك مع الأكاديمية».

«أفهم».

أقف، محاولاً احتواء ارتجاف جسدي. جزئياً بسبب آثار الثمالة، وغالباً بتأثير الغضب. لا يجب أن أظهر ذلك. لا يجب أن أدع هيرست يعرف بأنه نال مني. يجب عليك ارتداء قناع اللعبة دائماً.

«سأجمع أشيائي فقط».

أتوجه صوب الباب، ثم أقف. يجب عليك أيضاً أن تجعلهم يعرفون بأنك ما تزال تملك الورقة الرابحة. أنظر إلى هيرست.

«ربطة عنق جميلة، بالمناسبة».

النظرة التي تظهر على وجهه هي كل ما أحتاجه.

لا أرجع إلى الكافتيريا بل أتوجه إلى غرفة المدرّسين، الفارغة لحسن الحظ، وأجلب معطفي وحقيبتي وأخرج من المدرسة. لا أضمن رد

فعلي إن واجهتُ سابمون مرة ثانية. لا أريد إضافة تهمة التهجُّم إلى سيرتي الذاتية، إلى جانب تعليقي عن العمل.

عند وصولي إلى مكتب الاستقبال، لا أرى الآنسة غريسون في مكانها المعتاد في مقصورتها الزجاجية الصغيرة، وإنما نسخة أصغر عمراً منها –شعر داكن قصير، ونظارة، ولكن بدون شامة مُشْعرة– جالسةً على مقعدها وتنقر على الكمبيوتر.

«عفواً، أين الآنسة غريسون؟»

«لديها زكام».

«آه».

«هل أنت بحاجة للتحدث معها؟»

«في الواقع، أنا مغادر وكنت أرجو توديعها. هل تعرفين متى ستعود؟»

«للأسف لا».

«حسناً. شكراً على المساعدة».

وبينما أهمُّ بالاستدارة، تقول: «أوه، سيد ثورن–»

«نعم؟»

«أمرَ السيد برايس بأن تُسلِّم بطاقة عبورك الباب الأمامي عند مغادرتك».

بطاقة عبوري. البطاقة التي تسمح لي بالدخول إلى المدرسة. لا يحب هاري المجازفة أبداً.

«يخشى أن أعود خلسةً وأسرق مال غداء المدرسة؟»

لا ترد، ولا تبتسم. أتساءل إن كانت تعرف. إن كان الجميع يعرفون.

أقول لها: «حسناً». أُخرج البطاقة من جيبي وأرغم نفسي بصعوبة على عدم صفقها صفقاً على طاولتها.

«شكراً».

«عفواً. وانقلي تحياتي إلى الآنسة غريسون».

«بالتأكيد».

ترسم ابتسامة متكلِّفة ثم تلتقط مقصاً –إن كان عندي أي شك بخصوص كون إيقافي عن العمل مؤقتاً– وتقصّها نصفين وتلقيها في سلة المهملات.

عند عودتي، يرمقني المنزل بنظرةٍ ممتعضةٍ. نافذته السليمة الوحيدة تُصدر ضوءاً سقيماً. يبدو لي كأن المنزل يقول لي من بين خشب الباب الأمامي المكسور بصوت يشبه الهسيس: انظرْ. انظر ماذا فعلت. هل أنت سعيد الآن؟

لا –أقول في داخلي. لأنني لم أنتهِ بعد. أدفع الباب فيقاومني لوهلة ثم يستسلم مع أنين ممانع. لست واثقاً تماماً بأن المنزل يساندني في هذا الأمر. لأنه مرتبط على نحو وثيق بالماضي، ولأنه جزء وثيق من

القرية. إنه لا يريدني هنا. ولا ينوي جعلي مرتاحاً فيه. وأنا أيضاً لا أخطط للبقاء هنا لوقت طويل.

أدخل وأرمي حقيبتي على الأريكة. ما تزال الغرفة على الحال الذي وجدتها عليه تقريباً عندما عدت في الليلة الماضية. أفكّر في ترتيب بعض الفوضى ثم أذهب وأدخِّن سيجارة.

لعل هيرست أسدى لي معروفاً –من خلال تسريع المحتوم. على أي حال، لم أكن أنوي البقاء أساساً، أليس كذلك؟ لم أكن أنوي البقاء في مكان يحمل مثل هذه الذكريات السوداء المؤلمة. الحيوان الجريح لا ينجو من فخ الأنياب المعدنية ليرمي نفسه فيها مجدداً وينتظرها لتسحق عظامه.

إلا إذا كان لديه سبب وجيه لعين.

أود القول إن السبب هو آني، أو الرسالة، لكنه ليس بهذه البساطة. لم يكن حتى الشعور بالذنب والاتهامات كافييْن لجرِّي إلى هنا.

الحقيقة هي أنني كنت يائساً. كنت بحاجة للهرب ووجدتُ فرصة لتسوية ديوني الكبيرة وحسابات قديمة في الوقت عينه. لربما كان ذلك موجوداً دوماً في الجزء الخلفي من دماغي. كنتُ أعلم بأن بحوزتي شيئاً يمكن أن يدمِّر حياة هيرست. أما الفكرة المتعلقة بإمكانية أن يدفع مالاً مقابل ذلك، فقد جاءت لاحقاً.

لم أتوقع أنه سيكون عازماً إلى تلك الدرجة على إخراجي من القرية، لكنه –رغم كل تهديداته وألاعيبه– لعب أوراقه ولم يبقَ لديه أي شيء. ثمة طريقة وحيدة للتخلص مني الآن، ومع أنني لا أشك مطلقاً في قدرة هيرست على القتل، إلا أن المخاطر أعلى هنا. هل هو مستعد للمجازفة بعمله، وحياته المريحة، وعائلته؟

آمل أن يكون الجواب لا، لكنني بالمقابل، لا أستطيع المراهنة على ذلك.

أغلق الباب الخلفي وأدخل. يجتاحني الشعور بالبرودة مجدداً، ويمكنني سماع الجدران تسقسق. لكنني بدأت أعتاد على البرودة والطنين

الدائم للمنزل. ولست متأكداً إن كان هذا –مثل تجاهل الطنين الرتيب لصوت سايمون– أمراً جيداً. عندما تصبح معتاداً، فإنك تصبح راضياً، وبعد ذلك تصبح إما متواطئاً أو منقاداً.

أرجع إلى غرفة الجلوس وألتقط هاتفي. أنقر على رقم بريندان فيردُّ من الرنّة الثانية.

«ماذا تريد الآن؟»

«ألا يكفي سماع نبرة صوتك العذبة؟»

«من الأفضل لك أن تكون مرتدياً ثياباً داخلية».

«أحتاج إلى خدمة».

«هل أنت جاد؟ أتعلم، يوجد الآن براز جرذ على لحيتي».

«ظننت أنك قلتَ فئران هامستر».

«جرذان، فئران هامستر، من يبالي؟ لقد أمضت المخلوقات السافلة الصغيرة طوال الليلة الماضية في ركل البراز على رأسي. كم يجب علي البقاء هنا؟»

«هل ما زلت تملك حقيبة السفر الكبيرة التي طلبتُ منك البحث عنها؟»

«حقيبة السفر؟ أية حقيبة سفر؟»

«جوانبها مشققة جداً».

«أجل، هي عندي».

«هل يمكنك إرسالها إلي الليلة؟»

«جو–»

«اسمعْ، أريد فقط أن أقول إنك كنتَ صديقاً رائعاً. شكراً لك».

«لا تحاول أن تكون هشّاً معي».

«في الحقيقة، فكَّرتُ في قول هذا الكلام قبل أن أصبح كذلك بالفعل».

يصمت بريندان قليلاً ثم يقول بعاطفة صادقة: «اغرب عن وجهي الآن قبل أن أفعل ما يفعله أوزي أوزبورن في واحد من هذه الجرذان اللعينة».

وينهي المكالمة. أنظر إلى ساعتي فأجدها تشير إلى 3:30 عصراً. أتلفَّت حولي محدِّقاً في غرفة المعيشة المحطمة. ألتقط آبي–آيز من الأرض وأعيدها إلى مكانها على ذراع المقعد. تنظر إلي بعين زرقاء باردة. أنظر حولي فلا أستطيع رؤية عينها الأخرى في أي مكان. أتخيَّلها فجأة محمولة على ظهور خنافس تسير مسرعةً. أشكر مخيلتي. كنت بحاجة إلى ذلك حقاً.

يرنُّ هاتفي فأنتفض. أضغط على قبول.

«ألو؟»

بث. بالتأكيد.

«كيف حصلتِ على رقمي؟»

«من دانييلا في الاستقبال. أعرف شقيقها. إنه في فريقي في مسابقات المشرب».

«إذن أفترض أنك تعرفين ما حدث؟»

«أخبرني هاري بأنك كنتَ تأخذ إذن غياب».

«أهكذا سمّاه؟»

«ماذا تسمّيه أنت؟»

أتردد في الإجابة.

تقول بث: «ستغادر، أليس كذلك؟»

«أعتقد أنني ربما غادرت مسبقاً».

«يا الله، قد يكون هذا رقماً قياسياً عالمياً».

«أنا مسرور لأن قصَر مدتي تثير إعجابك».

«لا تخبر أحداً. هل هذا يتعلق بالبارحة، مع جيريمي هيرست؟»

«لا».

«إذن ماذا؟»

«الأمر معقد قليلاً».

«إلى أي درجة هو معقد؟»

«في الواقع–»

«معقد لدرجة عدة كؤوس من البيرة أم معقد لدرجة عدة كؤوس من الشراب؟»

أفكر قليلاً ثم أقول: «الأخيرة قطعاً».

«حسناً، سأراك في فوكس عند السابعة. املأ معدتك أولاً».

تنهي المكالمة دون كلمة وداعية. لماذا يفعل الناس هذا دائماً؟

كان يجب علي أن أقول شيئاً. لدي أسئلة. لكنني أعتقد بأنها تستطيع الانتظار. أجلس على الهيكل الصلب للأريكة وأفكر في إعداد قهوة. ثم أنظر إلى آبي–آيز، أو بالأحرى آبي–آي. تنتابني رعشة مفاجئة. اتُّخذ القرار.

أخرج من المنزل وأتجه نحو المشرب.

تبدو فوكس أشد اهتراءً وتداعياً الليلة. إنها تتفسَّخ –أقول في داخلي. كأن وجودي هنا أطلق نوعاً ما من سلسلة تفاعل كيميائي. كأن هذا المكان الذابل الصغير قد أُبقي في وضع موميائي معيّن وها قد ظهر شق فيه سمح للقليل من الأوكسجين بالدخول إلى البيئة المنقّاة، وفجأة أصبح كل شيء يتحلَّل من الداخل.

أدفع الباب المتأرجح وأدخل. أعرف من نظرة استطلاعية سريعة أن هيرست وأتباعه الأوغاد ليسوا موجودين. بعض الزبائن الكبار في السن –لعلهم نفس الأشخاص الذين كانوا هنا منذ عدة ليالي– يمضون وقتهم بجانب طاولاتهم، محدِّقين في كؤوسهم الملأى بالبيرة القوية.

لم تصل بث بعد لكنني ألمح وجهاً مألوفاً. عادت لورين للعمل خلف البار، ومع أن ذلك لا يستحضر أقواس قزح وشمساً مشرقة وطيوراً تزقزق، إلا أنه على الأقل أفضل من ملامح نوسفيراتو [دراكيولا] الفظة.

أقول لها مبتسماً: «كيف الحال؟»

تحدِّق فيّ كما لو أنها لم ترَني في حياتها من قبل.

فأقول: «جو ثورن. معلِّم. لقد التقينا صدفة في موقع المنجم القديم».

«أوه. أجل. صحيح». يتحرّك وجهها قليلاً. قد تكون ابتسامة، أو ربما رعشة انزعاج –من الصعب التمييز. «إذن، ماذا يمكن أن أقدّم لك».

«أمم، شراب، من فضلك. مزدوج».

«اجعليه اثنين».

ألتفت فأرى بث واقفة بجانبي. شعرها مفلوت هذه المرة، ويسقط على كتفيها في أشباه ضفائر. ترتدي سترة جلدية كبيرة جداً على جسدها بحيث تجعل ساقيها المغطاتين بجينز ضيِّق أشد نحولاً.

تبتسم فيلمع قرط أنفها، ثم تقول: «أنت موضوع حديث غرفة المدرِّسين يا سيد ثورن».

«حقاً؟ ربما لهذا السبب تحرقني أذناي».

«أجل، في الواقع، قد يعود ذلك أيضاً إلى الدبابيس التي يغرزها سايمون في دميته التي ترمز إليك».

«أتخيّل أن الحزن يفطر قلبه بسبب رحيلي المبكر».

«إذا كان غناء (أوه، يا له من صباح جميل) دليلاً على حزنه، فالجواب نعم».

تخبط لورا الكأسين خبطاً على البار. صحيح أن أسلوب التقديم فظ، ولكن من نظرة واحدة إليهما، أستطيع القول إنها كانت كريمة بالمقاييس.

«تسعة جنيهات، من فضلك».

«شكراً». أدفع بآخر عشرين جنيهاً أملكها، متسائلاً إلى أي حد تجاوزت حد الاقتراض المسموح ومتى سيوقف البنك جميع بطاقاتي».

ترفع بث كأسها قائلةً: «هل نذهب؟»

نتّجه نحو طاولة في زاوية بعيدة. من الأشياء المميزة في فوكس كثرة الزوايا الضبابية المعتمة التي يمكن للمرء الجلوس فيها إن كان يفضِّل الانزواء بعيداً عن الأنظار أو التحدث بحرية دون أن يُسمَع.

تجلس بث على أحد الكراسي الخشبية القاسية وبدوري أحذو حذوها. نرتشف من كأسينا معاً –كأسي أكبر بقليل من كأسها.

«إذاً، ألا تريد أن تخبرني بما حدث حقاً؟»

«ماذا قال هاري؟»

«إنك أخذت إذن غياب لأسباب شخصية».

«وماذا تقول الإشاعات؟»

«أوه، إنك أُصبت بنوعٍ من الانهيار، طردك هيرست الأب، خطفتك كائنات فضائية –أشياء من هذا القبيل».

«عظيم».

«إذن، أي منها؟»

«الكائنات الفضائية بالطبع. لقد استولوا على جسدي وذاتي الحقيقية موجودة في شرنقة في المنزل».

«أممم. قابل للتصديق إلى حد ما... لولا أن الجميع شاهد هيرست مع هاري اليوم».

أنظر إلى كأسي وأقول: «لقد كذبتُ من أجل الحصول على الوظيفة. لقد زوَّرتُ شهادة تعريف من مدرستي القديمة. لم أغادر تحت هالة من التقدير بقدر ما كانت هالة من الريبة. وهاري اكتشف ذلك».

«حسناً. ما الشيء السيئ جداً الذي فعلتَه في مدرستك القديمة؟»

«لا شيء، في الحقيقة. لكنني نويتُ سرقة أموال من خزنة المدرسة من أجل تسديد دين».

تستغرق وهلة لتستوعب ما قلتُه للتو، ثم تقول: «لكنكَ لم تفعل؟»

«لا».

تهزُّ برأسها بتفكُّرٍ، ثم تقول: «إذن كيف اكتشف هاري الأمر؟» ترفع يدها. «لا، مهلاً. سايمون. ألم يذكر سايمون أنه يعرفك من مكان ما؟»

«بلى. وأظن أن سايمون يعرف هيرست».

«لم أكن أدرك أنه يعرفه... هذا يعني أن سايمون مجرد نوعِ من قطع البراز التي يمكن أن تُعلِّق نفسها في مؤخرة أي شخص من أجل الصعود قليلاً على السلّم».

«قطع البراز؟»

ترفع رأسها وتقول: «وهذا لكوني لطيفة بحقه».

«في الواقع، من الواضح أن قطع البراز تنفع، فأنا بلا عمل حالياً، وربما بشكل دائم».

«لن أكون واثقة لو كنتُ مكانك. هاري معجب بك. ومن الواضح أن الأولاد يحبونك. لقد عانى هاري كثيراً لملء تلك الوظيفة الشاغرة بأي شخص ليس خريجاً جديداً من الجامعة».

أهز برأسي وأقول: «لن يسمح هيرست لهاري بإعادتي».

«أنت وهيرست، لستما تاريخاً قديماً حقاً، أليس كذلك؟ ماذا يوجد بينكما أنتما الاثنان؟»

أضع كأسي على الطاولة وأنظر إليها. تبدو أصغر عمراً من جديد في الضوء الخافت للمشرب. إنه يلطِّف الخطوط الدقيقة حول فمها وعلى جبهتها. وتبدو عيناها الغامقتان واسعتين جداً وبشرتها ناعمة وشاحبة. أشعر بصراع داخلي.

تعبس بث قائلاً: «في ماذا تحدِّق؟ هل هناك شيء ما على وجهي؟»

«لا... لا شيء».

تواصلُ التحديق فيّ بارتياب، ثم تقول: «إذن كنتَ على وشك أن تخبرني بشأنك أنت وهيرست».

«حقاً؟»

«أجل».

«الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة؟»

«شيء من هذا القبيل».

«لقد وقعنا، بشدة، في مراهقتنا. بغباء، بالنظر إلى الأمر الآن. بشأن فتاة، كحال مثل هذه الأشياء عادةً».

«هل كانت الفتاة ماري جيبسون؟»

«أجل».

تخرج الكذبة بسهولة ويسر.

ترتشف من كأسها ثم تقول: «لم أكن أتصوَّر أنها من النوع الذي يناسبك؟»

«لماذا؟ ما هو النوع الذي يناسبني برأيك؟»

«أعني إنها جميلة ولكن–»

«ولكن ماذا؟»

«لا تُسئ فهمي–»

«حسناً».

«أعرف أن ما سأقوله يبدو بشعاً بالنظر إلى السرطان وحالتها الآن، لكنها لطالما بدت حقيرة بعض الشيء».

يفاجئني كلامها، ولكن على نحو طفيف فقط. «في الواقع، كان بمقدورها أن تكون قاسية حين كانت تريد ذلك».

«لا أقصد أنها قاسية. أقصد حقيرة. كانت تستخدم نفوذها على من حولها بسبب هيرست. لقد رأيتها تُبكي معلِّمة في اجتماع أولياء أمور الطلاب. ذات مرة، ذهبتْ إلى منزل أم أخرى لأن ابنها اتُّهم هيرست الابن بالتنمُّر. وكانت هذه المرأة تعمل بدوام جزئي لصالح المجلس. في اليوم التالي أُنهيَ العقد».

أعبس. أعتقد أن ماري يمكن أن تكون انفعالية بعض الشيء. وكأم، لا تستطيع الأمهات دائماً رؤية أخطاء أولادهن. لكنها مع ذلك، لا تبدو مثل ماري التي أذكر.

«في الواقع، الناس يتغيّرون، كما أظن».

«ليس إلى هذه الدرجة».

«وأنا كنتُ شاباً وأحمق في ذلك الحين».

«وماذا تكون الآن؟»

«كبير في السن وساحر».

«انضمْ إلى المجموعة».

لا أظن ذلك. إنها تضع واجهة جيدة، لكنني لا أصدِّق هذا. يمكنني رؤية الضوء في عينيها. لم ينطفئ بعد. ليس تماماً. ليس بعد.

أقول لها: «هذا يذكِّرني. لم تخبريني أي نوعِ أنتِ؟»

يتغضَّن جبينها. «أي نوع من ماذا؟»

«أتريدين أن تصنعي فارقاً أم لا يمكنك إيجاد عمل في مكان آخر؟»

«في الحقيقة، هذا واضح، من لا يريد هذا؟» تفتح ذراعيها.

«إذن تريدين أن تصنعي فارقاً؟»

«هل هذا استجواب الآن؟»

«لا، كنت أتساءل فقط».

«بشأني؟»

«بشأن إميلي رايان».

تختفي النعومة من ملامحها.

«إنها الطالبة التي تحدثتِ عنها، أليس كذلك؟ الطالبة التي قتلتْ نفسها؟»

«أنت تعرف حقاً كيف تفسد المزاج».

«قلتِ إنها كانت طالبة عندك. لكنك لم تكوني تعلِّمين هنا عندما ماتت».

«أكنت تجري بحثاً؟»

«سمِّني كولومبو فقط».

«يمكنني التفكير في أسماء أخرى. ولست مضطرة لإخبارك بأي شيء».

«صحيح».

«أنا بالكاد أعرفك».

«صحيح».

«أنت مزعج جداً عندما تكون رضائياً».

«أيضاً–»

ترفع يدها وتقول: «حسناً. أنت محق. إميلي لم تكن طالبتي... كانت ابنة أختي. كانت أختي تكبرني ببضع سنوات. الأب غائب والأم لم تكن أم العام، لذا كنا مقرَّبتين من بعضنا. نشأنا في إدجفورد –أتعرفها؟»

«سمعتُ بها. ليست المنطقة الأفضل في نوتنغهام».

«على أي حال، كارلا –أختي– حملت في عمر مبكر جداً. وسيراً على إرث العائلة، لم يكن الوالد متواجداً، لكنها كانت أماً رائعة. أنجبت إميلي بينما كانت تتدرّب لتصبح ممرضة. كانت إميلي طفلة لطيفة، وكبرتْ لتصبح مراهقة مهذبة».

«هذا مثير للإعجاب».

«كنت أعلِّم في مدرسة في ديربي، لذا لم يكن باستطاعتي المجيء ورؤيتهما كثيراً. لكنني وإميلي كنا نتراسل عبر الرسائل النصية القصيرة أو الفيستايم. وجاءت للمكوث عندي بضع مرات. كنا نذهب للتسوُّق، وإلى السينما، وأشياء من هذا القبيل. كنتُ خالة حبُّوبة، باعتقادي».

«في الحقيقة، هكذا يجب أن تكون الخالات الحبّوبات».

ترسم ابتسامة صغيرة ثم تقول: «لا تُسئ فهمي. كانت في الثالثة عشرة، وكان من الممكن أن تكون مزاجية في بعض الأحيان، لكنها بصورة عامة كانت حلوة المعشر –ذكية ومرحة وفضولية».

أتساءل أي نوعٍ من المراهقين كانت آني ستصبح. عدائية، اجتماعية، مرحة، رياضية؟ أم كانت ستنطوي على ذاتها كما يفعل الكثيرون؟

«بعد ذلك، حصلتْ كارلا على عمل. عمل جيد. فانتقلتا. واضطُّرَّتْ إميلي لتغيير مدرستها».

«دعيني أخمِّن. لقد انتقلتا إلى آرنهيل؟»

تهز برأسها مؤكِّدة ثم تقول: كان العمل في مستشفى في مانسفيلد. لم تكن آرنهيل بعيدة، وكانت المنازل رخيصة ويمكن الذهاب إلى المدرسة مشياً على الأقدام. بدا ذلك منطقياً».

معظم القرارات السيئة تبدو منطقية في وقتها.

أقول لها: «الانتقال من مدرسة لأخرى –أية مدرسة– شيء قاسٍ عندما تكونين في الثالثة عشرة».

«في البداية، بدت على ما يُرام–»

«ولكن؟»

«كان الوضع رائعاً. كما تعلم، عندما يكون كل شيء رائعاً، هذا ببساطة غير معقول».

«ماذا قالت أختك؟»

تتنهَّد ثم تقول: «لم تدرك. أعني، لا تُسئ فهمي. كانت تحب عظام تلك الفتاة، ولكن ببساطة بدا كأنها لم ترَ المشكلة. أو لم تردْ رؤيتها».

أهز برأسي مؤيِّداً. جميعنا مشغولون وملهيُّون بمحاولة تجاوز كل يوم بيومه –بالعمل ودفع الفواتير والرهن والتسوُّق– لدرجة أننا لا نريد النظر بشكل أعمق. لا نجرؤ على النظر بشكل أعمق. نريد أن تكون الأمور على ما يرام. أن تكون رائعة. لأننا ببساطة لا نملك الطاقة الذهنية للتعامل معها إن لم تكن كذلك. ولا نرى الأمور بشكل صحيح إلا عند حدوث شيء سيئ، شيء لا يمكن إصلاحه. وعندئذ يكون الأوان قد فات.

«هل حاولتِ التحدث مع إميلي؟»

«حاولت. حتى إنني ذهبتُ بسيارتي لرؤيتها. وأخذتها لتناول البيتزا معاً، كما اعتدنا أن نفعل، لكن الأمر لم يكن كما كان في السابق».

«ماذا تعنين؟»

«هل انتهيتما من هذه؟»

نرفع كلانا ناظرينا فنرى لورين تقف بجانبنا.

فأقول لها: «أمم، أجل، شكراً. وهل يمكننا الحصول على كأسين آخرين؟»

تهز برأسها مؤكِّدة وتقول: «أظن ذلك». ثم تعود إلى البار.

تنظر بث إلي ثم تقول: «لابد أنها معجبة بك حقاً. إنها لا تقدِّم خدمة طاولات لأي أحد».

«سحري الطبيعي. إذن، عم كنتِ تتحدثين؟»

تعود ملامح الحزن إلى وجهها من جديد. «ذهبنا إلى مطعم البيتزا المفضَّل بالنسبة إليها، لكنها لم تأكل كثيراً. كانت متقلّبة المزاج، وساخرة. لم تكن هي».

«يمكن أن يتغيّر الأولاد في المدرسة الإعدادية. كأن شخصاً ما ينقر على مفتاح فترتفع هرموناتهم إلى الدرجة القصوى وينقلب كل شيء بلمح البصر».

«لا. أنا معلِّمة أيضاً، أنسيتْ؟ أعرف كيف تكون مثل هذه الأمور. غزو خاطفي الأجساد».

تلتقط قطعة الورق المقوّى التي توضَع عليها كأس البيرة وتبدأ بنتفها، ثم تقول: «حتى عندما كانت إميلي تمرُّ في إحدى نوبات المراهقة من قبل، كانت تظل تتحدث معي. كنت أعتقد أن علاقتنا مختلفة».

«هل قالت أي شيء بخصوص المدرسة، أشياء كانت تزعجها؟»

«لا. وعندما سألتها رفضت التحدث في الأمر».

تعود لورين وتخبط كأسين آخرين من الشراب. إذا كانا مضاعفيْن فهذا يعني أن المظهر لا يعكس ما في الداخل. ربما بث محقة. لعلها معجبة بي حقاً.

تشرب بث رشفة من كأسها ثم تقول: «الآن، أعتقد أنه كان يتوجب علي أن أضغط عليها. أن أدفعها للتحدث معي».

«لا يعمل الأمر بهذه الطريقة. اضغطي على المراهقين بقوة زائدة وسيتراجعون بسرعة إلى قوقعاتهم».

«صحيح، ولكن أتعلم ما هو الشيء المزعج؟ لم أعانقها عندما افترقنا. كنا دائماً نتعانق. لكنها في تلك المرة ذهبتْ وحسب. وأنا قلتُ في نفسي –خالة حبّوبة– سأدعها تذهب. سأمنحها وقتاً. تبيَّنَ أنه لم يكن لدينا وقت. كانت تلك هي المرة الأخيرة التي أراها فيها. بعد أسبوعين ماتت». تنشج وتمسح دموعها بغضب. «كان ينبغي لي معانقتها».

«لم يكن باستطاعتك أن تعرفي».

لأن الحياة لا تعطينا أبداً تحذيراً.

«في الحقيقة، كان يجب أن أعرف. أنا معلِّمة. كان يجب أن أدرك أنه لم يكن تقلُّب المزاج الاعتيادي للمراهَقة. كان ينبغي لي أن أميِّز علامات الاكتئاب. كانت ابنة أختي. وأنا خذلتها».

تجتاحني موجة من الشعور بالذنب، فأصمت لوهة.

أبلع ريقي ثم أقول: «ماذا حدث لشقيقتك؟»

تهز رأسها بحسرة: «لم تستطع البقاء. ليس في ذلك المنزل، حيث حدث ذلك. عادت إلى إدجفورد، أقرب إلى أمّي. ما تزال تجد صعوبة في التأقلم. أعود إلى هناك قدر ما أستطيع، ولكن يبدو كأن موت إميلي يشكِّل حاجزاً بيننا فلم نعد قادرتيْن فيما يبدو على تخطِّيه».

أعرف ما تعنيه. الحزن شيء شخصي إنه ليس أمراً يمكن مشاركته، مثل علبة من الشوكولاته. إنه يخصك؛ وحدك. كرة فولاذية مسنّنة مربوطة بسلسلة بكاحلك. غطاء من المسامير يحيط بكتفيك. تاج من الأشواك.

لا أحد غيرك قادر على الشعور بألمك. الحزن هو أسوأ أنواع التعذيب، ولا نهاية له. لديك حقوق حصرية في هذه الزنزانة لبقية حياتك.

أسألها: «ألهذا السبب جئتِ إلى هنا؟ بسبب إميلي؟»

«عندما جاءني العمل بعد بضعة شهور من ذلك الحدث، بدا لي بأنن مقدَّر».

غريب كيف يحدث ذلك.

«لماذا لم تخبريني منذ البداية؟»

«لأن هاري لا يعلم. لم أشأ أن يعتقد بأنني هنا للأسباب الخاطئة».

«مثل؟»

«الانتقام».

«وأنتِ لستِ هنا من أجل ذلك؟»

«في البداية، ربما. أردتُ أن يُحاسَب شخص ما على موت إميلي». تتنَّهد. «لكنني لم أستطع إيجاد أي شيء. على الأقل، لا شيء محدد. الصداقات والخصامات العادية فقط».

«ماذا بشأن هيرست؟»

«لم تأتِ على ذكره قط–»

«ولكن–»

«ثمة شيء ما غير صحيح في هذه المدرسة، وهيرست جزء منه. عندما تسمح لولد مثل هيرست بالإفلات بالأشياء التي يفعلها، فإنك تخلق مكانا تكون فيه الوحشية هي السلوك العادي».

أتساءل إن كان هذا فقط. أتذكَّر ما قاله ماركوس بشأن الأولاد الذين يأخذهم هيرست إلى موقع المنجم القديم. أولاد يريدون الاندماج. ربما حتى فتاة صغيرة متلهفة لأن تكون مقبولة في مدرسة جديدة. قد يصل إليك المنجم بأكثر من طريقة. كما حدث مع كريس.

«أنت ساكت».

أقول بمرارة: «أفكر فقط في عادة التاريخ الكريهة بتكرار نفسه».

«ولكن يجب ألا يكرر نفسه. الطريقة الوحيدة التي تتغير من خلالها مدارس مثل آرنهيل أكاديمي هي من الداخل. لا يتعلق التعليم بنتائج الامتحانات في المدارس وتقارير مكتب معايير التعليم فقط، وإنما بمساعدة الأولاد على أن يصبحوا كائنات بشرية محترمة وناضجة، وعلى تخطي سنوات مراهقتهم سالمين. إذا فقدتَهم في هذا العمر، فإنك تفقدهم إلى الأبد». ترفع كتفيها قليلاً. «لعلك تعتقد أن هذا يبدو ساذجاً».

«لا، أعتقد أنه يبدو شجاعاً وجديراً بالثناء وكل الصفات التي ستجعلك تمنحيني تحية بإصبع واحد في أية لحظة الآن و... أجل، ها هي».

تخفض إصبعها. «رغم كل هرائك الساخر والسَئِم من كل شيء، إلا أنك تبدو كأنك تفهم».

«أجل. أعني، لا تسيئي فهمي، إن أسبابي المتعلقة بوجودي هنا أقل قيمةً بما لا يقاس من أسبابك».

«فما هي إذن؟»

أتردد قليلاً. من بين جميع الناس، بث هي التي أود إخبارها الحقيقة. ومن بين جميع الناس، هي التي أهتم برأيها.

«كما قلتِ، نوعان فقط من المعلمين يأتون إلى آرنهيل. أنا لم أستطع الحصول على عمل في مكان آخر».

«ظننتُ أننا نتحدث بصدق هنا».

«إنها الحقيقة».

«لا». تهز برأسها نافيةً. «ثمة شيء لا تريد إخباري به».

«ليس هناك أي شيء حقاً».

«يمكنني رؤية ذلك في وجهك».

«هذا وجهي فقط. إنها لعنة».

«حسناً. لا تخبرني».

«حسناً».

«إذن، هناك شيء ما؟»

«حسناً. كنت مقامراً، وانتهى بي الأمر بأن أصبحت مَديناً بمبلغ كبير من المال. كنت بحاجة للاختباء في مكان إلى أن أتمكّن من تسديد ديوني. لا يوجد سبب نبيل لعودتي. أنا مقامر فقير، ومعلِّم متواضع، وكائن بشري مثير للريبة. هل أنت سعيدة؟»

تحملق فيَّ بغيظ ثم تقول: «هراء. قد تكون وضيعاً، لكنك شخص وضيع جاء إلى هنا لسبب ما. لشيء هام بالنسبة إليك. وإلا لكنتَ طويت ذيلك ولذتَ بالفرار في اللحظة التي ضربك فيها أوغاد هيرست. ولكن، إذا لم تكن تريد إخباري، فلا بأس. ظننتُ بأننا بدأنا نصبح صديقين. من الواضح أنني كنت مخطئة».

تقف وتمسك بسترتها.

«ستذهبين؟»

«لا. سأخرج من هنا غاضبة».

«أوه».

«سأتركك وأنت تبدو مثل فاشل حزين».

«أكره أن أقول هذا، لكنني لا أحتاجِك من أجل ذلك».

ترتدي سترتها ثم تقول: «أنت بحاجة لشخص ما».

«الجميع بحاجة لشخص ما».

«كلام موحٍ».

«بلوز برَذرز (فريق غنائي فكاهي شهير)».

«اغرب عن وجهي».

تستدير وتخرج من المشرب بغضب. لم يرفع أحد من الموجودين عينيه عن كؤوسهم.

أبقى جالساً في مكاني، مثل فاشل حزين. ولكن، على الأقل، فاشل حزين مع كأسين نصف مليئيْن من الشراب. أصب كأس بث في كأسي وأشرب جرعة كبيرة. ثم أمدُّ يدي إلى جيبي وأُخرج ورقة. كنتُ قد كتبتُ عنواناً عليها.

حان الوقت للقيام بزيارة منزلية. لإبهاج أمسية شخص آخر.

في ألعاب الورق، هناك دائماً لحظة يمكنك فيها رؤية أوراق اللاعبين الآخرين، كما لو أنها شفافة. يمكنك رؤية الاحتمالات في رؤوسهم. والحركات التالية تكون موجودة أمامك بوضوح كأن شخصاً ما كتبها بقلم تعليم فاقع اللون في الهواء أمام عينيك.

وفي العادة، تكون مخطئاً.

إن حدثَ واعتقدتَ أنك تعرف ما يجول برأس جميع الآخرين في لعبة ما، وأنك تعرف الخطوات التي ينبغي لك القيام بها، والخدع التي ينبغي لك اتباعها، فإنك تكون في ورطة كبيرة.

لأنها اللحظة التي سينهار فيها كل شيء على رأسك.

ظننتُ بأنني كنت ذكياً في كشف العلاقة بين روث وماركوس. ظننتُ بأنني أعرف ما كان يجري. كانت روث تعيش هنا في ذلك الحين، وكانت تعرفني، وتعرف آرنهيل. وكانت تعرف بن وجوليا أيضاً. كان أمراً محتملاً حصولها بطريقة ما على عنوان بريدي الإلكتروني ورقم هاتفي وإرسال تلك الرسائل. كان كل ذلك محتملاً. ولكن لماذا؟

الآن، لدي تفسير آخر، مع أنه ليس أكثر منطقية من الأول بكثير. صحيح أنني لا أعرف الأوراق الموجودة بأيدي الآخرين، لكنني على الأقل أعرف مع من ألعب.

أتقدَّم وأرنُّ جرس الباب. ثم أرجع إلى الوراء ثانيةً.

لا توجد أضواء منارة خلف الستائر في الغرفة الأمامية، لكنني واثق بأنها هنا. وأنا محق، فبعد ثوانٍ فقط، أرى عبر زجاج الباب الأمامي ضوءاً يُنار في المدخل.

يقترب شخص ما. أسمع صوت سعال، وتنشُّق، ثم صوت مفتاح في القفل، وبعد ذلك ينفتح الباب.

«سيد ثورن».

لا تبدو متفاجئة لرؤيتي. بيد أنها، في الوقت نفسه، أمضتْ حياةً بأكملها في إتقان رسم واجهة هادئة وغير انفعالية. أتساءل أي شيء آخر أمضت حياتها في فعله؟

أبتسم بتهذيب ثم أقول: «مرحباً آنسة غريسون».

26

1992

«عظام!!»

أشرق وجه هيرست بسعادة غامرة كما لو أن فتاة أنزلتْ بنطاله ومارست.. معه في ذلك المكان وتلك اللحظة.

استغرقتُ وهلة لأدرك بما ذكَّرني ذلك. نظرة النشوة في عينيه ووهج ضوء خوذتي الذي كان ينير ملامحه. لقد ذكَّرني بذلك المشهد في فيلم «سارقو التابوت الضائع» عندما كان النازيون يحدِّقون في التابوت... قُبَيْل تدفُّق العفاريت وبدء وجوههم بالذوبان عن جماجمهم.

كنت أظن بأنني لن أشعر أبداً بخوف أكبر من ذاك الذي شعرت به حينئذ، لكنني كنت مخطئاً، كالعادة.

«عظام!» تردَّدت الكلمة بين أفراد المجموعة مثل صدى مخيف.

راحوا يحدِّقون في العظام الموضوعة داخل الصخر. بعضها كان أشدّ اصفراراً من غيرها. لعلها أقدم. وهي صغيرة أيضاً. وكان بعض العظام مكسوراً بوضوحٍ أو مقطّعاً من أجل تشكيل رموز وأشكال، لكن بعضها الآخر كان ما يزال سليماً. بدت رقيقة، بل هشة.

مدَّ هيرست يده ولمس واحدة منها، بلطف مثير للدهشة. ثم أدخل أصابعه وسحبها من الصخر فخرجت بسهولة أكبر مما توقعت، مترافقةً مع سحابة صغيرة من الغبار وفتات صخر سقط إلى الأرض. وراح يحدِّق في العظمة. كانت ذراعاً صغيرة.

صاح فليتش: «يا الله! هل رأيتم هذه؟»

التفتنا فرأيناه يمسك بواحدة من الصخور البيضاء، بيد أنها لم تكن صخرة، بل جمجمة صغيرة بالكاد ملأتْ يده. جمجمة طفل. جميع الهياكل العظمية مقطّعة الأوصال تلك كانت هياكل عظمية لأطفال.

قلتُ بصوت ضعيف بالكاد كان مسموعاً: «أعتقد أنه يتوجب علينا الرحيل».

فقال هيرست: «هل أنت تمزح؟ هذا الكائن كنز. وهو لنا».

كانت تلك هي اللحظة التي أدركتُ فيها أننا حقاً في ورطة كبيرة. لا يمكنك أن تملك شيئاً كهذا. لا يمكنك أن تملك مكاناً كهذا. وإذا كان هناك من امتلاك، فإنه هو الذي يمتلكك.

رسم فليتش ابتسامة عريضة على وجهه، ثم رمى الجمجمة نحو ماري.

صاحت ماري بفزع وتنحّتْ جانباً: «غبي». ارتطمت الجمجمة بالأرض وانشطرت إلى نصفين شبه متطابقين. «مقرف».

لم تكن تبدو على ما يرام،، ربما لأن مفعول السايدر كان قد بدأ يسري في دمها، أو ربما بسبب منظر كل تلك العظام. لكن لون وجهها كان قد أصبح رمادياً شاحباً.

كان هيرست في ذلك الحين يتجوَّل في أرجاء الكهف، ويسحب المزيد من العظام من الجدران بواسطة العتلة، مطلقاً صرخة انتصار مع كل واحدة يسحبها.

وأخرج فليتش مزيداً من الجماجم وبدأ بركلها على أرض الكهف كما لو كان يلعب كرة قدم. انقبضتْ معدتي من الفزع، بيد أنني لم أفعل شيئاً، بل ظللتُ واقفاً جانباً، كما كنت أفعل دائماً.

نادى هيرست فليتش ملوّحاً بالعتلة: «هنا!» فالتقط فليتش جمجمة وأمسكها كما يمسك كرة بولينغ، واضعاً أصابعه في التجاويف الفارغة، ثم رماها بشكل مقوَّس نحو هيرست، الذي تلقّاها بضربة من العتلة المعدنية حوَّلتها إلى حطام. وانقلبت معدتي.

نظرتُ إلى كريس باحثاً عن بعض المساعدة، بعض الدعم، لكنه كان متسمِّراً في مكانه يحدِّق بشرود، كأن الصدمة أصابته بالجمود بعد أن رأى ما كان يبحث عنه.

وأخيراً تحرَّر صوتي: «كُرمى للعاهرات، هذه عظام أطفالٍ موتى».

التفت فليتش نحوي وقال: «وماذا يعني ذلك؟ إنها لن تشتكي».

ابتسم هيرست ابتسامة عريضة وقال: «ابتهجِ يا ثورني. نحن نمرح وحسب. إضافة إلى ذلك، من يكتشفْ، يمتلكْ، صحيح؟»

التقط نصف الجمجمة من الأرض وقال: «ماذا كان ذلك الهراء الشيكسبيري؟ أن تكون أو لا تكون؟»

ورمى الجمجمة في الهواء ثم ضربها بالعتلة فتطايرت الشظايا في أرجاء الكهف.

انتفضتُ، لأنني كنت شارد الذهن. ظننتُ أنني سمعت شيئاً ما آتياً من الجدران. صوت غريب. ليس خشخشة بالضبط، وإنما صوت حركة سريعة وسقسقة. فكَّرتُ في الوطاويط. هل يمكن أن تعيش الوطاويط في ذلك العمق؟ أو لعلها جرذان. إنها تحب الأنفاق تحت الأرض، أليس كذلك؟

سألتهم: «هل سمعتم شيئاً؟»

عبس هيرست وقال: «لا».

«هل أنت متأكد؟ ظننتُ أنني سمعتُ شيئاً ما –وطاويط أو جرذان؟»

صرخت ماري: «جرذان! اللعنة». ثم اندفعتْ نحو زاوية بعيدة وتقيّأت بصوت عالٍ.

قال فليتش: «اللعنة. كنتُ أعلم بأنه لم يكن ينبغي أن نجلبها».

توتَّر وجه هيرست. لم أكن متأكداً إن كان سيشتم فليتش أم يصرخ على ماري، ولكن في تلك اللحظة سُمع ضجيج آخر، وهذه المرة كان أشد وضوحاً. صوت سقوط كمية صغيرة من الحجارة على الدرجات من الأعلى.

التفتنا جميعنا بسرعة –باستثناء ماري التي كانت ما تزال تأنُّ وتشهق في الزاوية. عبق الكهف برائحة القيء والعرَق. مع ذلك، بدا لي بأن الهواء كان بارداً، لكنني لا أقصد البرودة الطبيعية، بل نوع غريب من

البرودة. قلتُ في نفسي فجأةً، برودة متغلغلة. مثل الظلال المتحركة. ظلال غير ساكنة؛ ظلال حيّة.

وجّهْنا أضواء مصابيحنا الكشّافة نحو مصدر الصوت، نحو الدرجات الصاعدة على نحو غير مستوٍ نحو الظلام.

صاح هيرست: «هيي! هل يوجد أحد هناك؟»

بعد لحظة من الصمت نزلت كمية صغيرة أخرى من الحجارة.

«من الأفضل لك النزول إلى هنا وإلا فسآتي إليك و...»

تلاشى صوته تدريجياً عند ظهور ظل على الجدار. ظل طويل ونحيل يمسك بشيء ما في أصبعه المطوّلة، شيء بدا مثل طفل...

خيَّم الصمت علينا جميعاً، حتى أنين ماري خفت. كان بوسعي سماع الصوت الآخر مجدداً –صوت الحركة السريعة والسقسقة. بات أقرب حينئذ. انعطف الظل حول الزاوية. رفع هيرست العتلة. وعلى مهل تقلَّص الظل وذاب في هيئة شخص جامد. شخص صغير يرتدي كنزة

رمادية ذات قلنسوة وبنطال بيجاما وردياً وحذاء رياضياً. وكان يحمل مصباحاً كشّافاً في إحدى يديه، ودميةً بلاستيكيةً في اليد الأخرى.

أنزل هيرست العتلة وقال: «كُرمى للعاهرات».

وتمتم فليتش: «أنتم تسخرون مني».

حملقتُ في آني وقلت لها: «ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟»

نجلس كلانا في الغرفة الخلفية خافتة الإضاءة، والمفروشة بمقعدين جلديين متينين وطاولة مكتب ومنضدة للقراءة. الأرضية مغطاة بسجادة باهتة اللون لكنها على الأرجح كانت غالية الثمن ذات يوم. معظم مساحة الجدار مشغولة برفوف طويلة مكدَّسة بكتب أعمدتها مشققة وبالية على نحو يثير البهجة في نفس الناظر.

لا تثق أبداً بشخص تكون رفوف مكتبته مصفوفة بكتب جديدة، أو الأسواء من ذلك، بشخص يضع الكتب بطريقة تُظهر أغلفتها الأمامية. هذا الشخص ليس بقارئ. هذا الرجل مدَّعٍ استعراضي. انظروا إلي وإلى ذوقي الأدبي الرفيع. انظروا إلى هذه المجلدات الشهيرة التي أملكها، والتي على الأرجح، لم أقرأها. القارئ يشقِّق أعمدة الكتب ويغضِّن الصفحات، ويستوعب كل حرف وتفصيل فيها. قد لا يمكنك الحكم على كتاب ما من غلافه، لكنك حتماً تستطيع الحكم على من يمتلك هذا الكتاب.

تقول الآنسة غريسون بينما تضع فنجاناً من القهوة على الطاولة بجانبي: «إذن»، ثم تجلس على المقعد الآخر حاملة بيدها كوباً من مشروب الليمسيب الساخن [لعلاج أعراض الزكام]. «لديك بعض الأسئلة».

«بضع أسئلة فقط».

تسند ظهرها ثم تقول: «لعل الأول فيها هو هل أنا امرأة عجوز مجنونة تملك الكثير من الوقت؟»

أتناول فنجان قهوتي وأرتشف منها. إنها غنية ومركَّزة، بعكس القهوة الخفيفة التي قدّمَتْها لي في المدرسة.

«إنه في القمة».

«أتصوُّر ذلك».

«أنتِ أرسلتِ الإيميل؟»

«أجل».

«كيف عثرتِ علي؟»

عملية تصفية. علمتُ بأنك أصبحت معلّماً. تعقُّبتك حتى وصلتُ إلى مدرستك الأخيرة، وقلتُ لهم إنك تقدِّم طلباً للعمل هنا وإنني فقدتُ تفاصيل التواصل معك».

«لكن هذا كان قبل أن أقدِّم طلباً للعمل هنا؟»

«هذا صحيح».

خطر في ذهني شيء آخر.

«هل ذكرت المدرسة كيفية رحيلي؟»

«ظهر ذلك».

«إذن كنتِ تعرفين بأنني زوَّرتُ شهادة التعريف التي أعطيتها لهاري».

«أثار إعجابي إبداعُك».

إذن كانت تلعب بي طوال الوقت.

«والملف؟»

«جمعته وتركه ماركوس من أجلك. اعتقدتُ بأن هذا لن يلفت الانتباه كثيراً».

«لكن الرسالة النصية جاءت من هاتف ماركوس؟»

«هاتف قديم لم يكن يستخدمه. لكن هاتفه الآيفون تحطَّم بعد ذلك وأصبح بحاجة لواحد آخر».

«لماذا؟ لماذا تتكبَّدين كل هذا العناء؟ هذه المسرحية؟ ألم يخطر لك الاتصال بي وحسب؟ أسمع أن البريد يُقدِّم شيئاً يسمّى رسائل».

«هل كنت ستعود إن اتصلتُ فقط؟»

«ربما».

«كلانا نعرف أن هذا ليس صحيحاً».

قالت ذلك بصوت حاد جعلني أشعر مثل طفل يوبَّخ بعد كشف كذبته.

تُواصل كلامها قائلةً: «لقد تعلَّمتُ الكثير من العمل مع الأولاد طوال هذه السنين. أولاً، لا تسأل أي شيء بشكل مباشر، لأنهم سيكذبون. ثانياً، اجعلهم دائماً يعتقدون أنها فكرتهم. وثالثاً، اجعل شيئاً ما مثيراً للاهتمام بالقدر الكافي وهم سيأتون إليك».

«نسيتِ رابعاً، لا تدعيهم يشعلون النار من خلال ريح أمعائهم».

تقول مع ابتسامة صغيرة: «كنتَ دائماً تستخدم السخرية كآلية دفاع، حتى عندما كنتَ طفلاً».

«أنا متفاجئ لأنك تتذكّرينني كطفل».

«أنا أتذكّر جميع طلابي».

«مدهش. أنا بالكاد أذكر حصتي الأخيرة».

«ستيفين هيرست، سادي، بلا أخلاق، لكنه ذكي. توليفة خطرة. نيك فليتشر، ليس ولداً ذكياً، إفراط في الغضب. من المؤسف أنه لم يجد طريقة أفضل لتنفيسه. كريس مانينغ، ذكي، متضرر نفسياً، ضائع. يبحث دائماً عن شيء لم يستطع إيجاده. وأنت، الحصان الأسود. يتفادى الضربات بالكلمات. أقرب شيء إلى الصديق عرفه هيرست. كان بحاجة إليك، أكثر مما كنتَ تدرك».

أبلع ريقي. أشعر كأن حنجرتي مثل ورق الزجاج.

«نسيتِ ماري».

«آه صحيح. فتاة جميلة، أذكى مما كانت تدرك. كانت تعرف كيف تحصل على ما تريد، حتى في ذلك الحين».

«لكننا لم نعد أطفالاً».

«كلنا نبقى أطفالاً في دواخلنا. المخاوف ذاتها، والمباهج ذاتها. نحن نصبح أطول فقط، وأفضل في إخفاء الأشياء».

«أنتِ أيضاً بارعة جداً في إخفاء الأشياء».

«لم أقصد خداعك».

«ما هو قصدك إذن؟»

«إقناعك بالعودة. الأمر الذي نجحتُ فيه». تبدأ بالسعال فتُخرج منديلاً من كمِّها وتغطي به فمها. عندما هدأ السعال تضيف قائلةً: «أظن أنك اكتشفت الأمر من خلال ماركوس».

أهز برأسي مؤكّداً ثم أقول: كان قلقاً من إمكانية أن تقعي في مشكلة. وعدته بأنه لن يحدث أي شيء... إذا أخبرتني الحقيقة».

تهز برأسها ثم تقول: «ماركوس ولد طيب».

«إنه يحترمك كثيراً».

«إنه ابني الروحي. أظن أنه أخبرك بذلك أيضاً؟»

«أجل. لم أدرك أنك كنت تعرفين أمه–»

«عانت روث بشكل فظيع في المدرسة. أنقذتُها من المتنمِّرين ذات يوم وأصبحتُ نوعاً من الملجأ بالنسبة إليها».

أفكِّر في الأولاد الذين كنتُ أراهم في مكتبها. الأولاد الذين حاولتْ مساعدتهم. صحيح أنها لم تفعل الكثير، ولكن عندما تكون خائفاً وهدفاً للمتنمِّرين في المدرسة، فإن أي بادرة عطف، لو كانت صغيرة، تكون بحجم الكون كله.

تواصل كلامها: «على أي حال، بقينا أنا وروث على تواصل بعد مغادرتها المدرسة. وعندما أنجبت لورين وماركوس طلبتْ مني أن أكون والدتهما الروحية حيث كنت أعتني بهما أحياناً عندما تكون في العمل، في العطل. وبقيت علاقتنا وثيقة، وخصوصاً ماركوس. ما يزال يزورني لنشرب الشاي معاً مرتين في الأسبوع. إنه فتى ذكي جداً ونحن نتشارك الاهتمامات ذاتها».

«التاريخ المحلي؟»

ترتسم ابتسامة خفيفة أخرى على وجهها ثم تقول: «من بين أشياء أخرى».

«إذن أنتِ أرسلته؟»

«أراد المساعدة. إنه لا يعرف كل شيء، إذا كان هذا ما تفكر فيه».

«أوه، ليس لديكِ فكرة عما أفكر فيه».

«أخبرني إذن».

حين أفتح فمي أدرك أنني أنا لا أملك فكرة عما أفكر فيه.

تأخذ رشفة من كوبها وتقول لتساعدني على الكلام: «هل قرأتَ الملف؟»

«معظمه».

«هل وجدته مثيراً للاهتمام؟»

أرفع كتفيّ قائلاً: «تملك آرنهيل تاريخاً بشعاً. مثل الكثير من الأمكنة».

«لكن معظم الأمكنة ليست قديمة كهذه القرية. يعتقد الناس أن آرنهيل نشأت حول المنجم. ليس صحيحاً. لقد كانت هنا قبل المنجم بزمن طويل».

«وماذا يعني ذلك؟»

«لماذا تنشأ قرية وسط مكان مهجور؟»

«مناظر جميلة؟»

«تنشأ القرى في أماكن معينة لسبب ما. مياه نظيفة، أرض خصبة، وفي بعض الأحيان، تكون هناك أسباب أخرى».

أسباب أخرى. أشعر بتيار هوائي مفاجئ. هواء ثلجي.

«مثل؟»

«هل قرأتَ المقالات المتعلقة بمحاكمات الساحرات وإزيكيريا هيرست؟»

«أسطورة، خرافة محلية».

«ولكن، غالباً ما تكون هناك ذرة من الحقيقة».

«وما هي الحقيقة بخصوص آرنهيل؟»

تلفُّ يديها حول الكوب. أقول في نفسي: يدان قويتان. كفوءتان. ثابتتان.

«لقد زرتَ المقبرة. هل لاحظتَ الشيء الناقص فيها؟»

«الأولاد. الأطفال».

تهز برأسها مؤيِّدةً وتقول: «هذا الناقص بشكل واضح».

«بشكل واضح؟»

«تملك آرنهيل تاريخاً بشعاً، كما قلتَ. الكثير من الموت. ولكن، هناك فقط تسعين شخصاً مدفوناً في المقبرة».

«ألا يعيدون استخدام القبور القديمة بعد فترة من الزمن؟»

«بلى. ولكن، حتى مع أخذ هذا الأمر بعين الحسبان، وحقيقة أن معظم الناس دُفنوا في مقابر كنائس أخرى بعد 1946 تقريباً، أو أُحرقوا في سنوات أحدث، يبقى هناك نقص. بكلام مختصر، لا توجد قبور كافية للموتى. إذن، أين ذهبوا؟»

أفهم فجأةً ما فعلَتْه. لقد قادتني إلى هنا، ببطء وحذر، سالكةً الطريق الطويل كي لا أرى إلى أين نحن ذاهبون. حتى الآن.

تقول: «أعتقد أنهم كانوا يُؤخَذون إلى مكان آخر. مكان كان القرويون يعتقدونه مميزاً لسبب ما». تدع الجملة معلَّقة لوهلة. «ومنذ خمسة وعشرين عاماً، أعتقد أنك وأصدقاءك وجدتموه».

للأمكنة أسرار أيضاً، مثل البشر. ما عليك إلا الحفر، سواء أكان في الأرض، أم الحياة، أم في روحِ الإنسان.

«كيف علمتِ؟»

«لقد رأيت الكثير من الشبان في حياتي، هنا في القرية. رأيتهم يكبرون، ويتزوجون، والكثيرون منهم، ينجبون أولاداً. بعضهم لم يتمكَّن من البقاء إلى ذلك الحد، مثل كريس».

أفكِّر في خبطة ناعمة، وظل أحمر قانٍ.

تتابع كلامها: «كان يجلس في مكتبي أحياناً. قبل أن يأخذه هيرست تحت جناحه».

«لا أذكر–»

«كنتَ على الأرجح مشغولاً بالمرور بسرعة، على أمل ألا أوبخك بسبب قميصك المفلوت أو ارتدائك حذاء رياضياً».

أبتسم.

قبل بضعة أيام من موته، جاء كريس لرؤيتي. أراد التحدث لشخص ما. حول ما وجدتموه».

«أخبرك بما حدث؟»

«بعضه. لكنني أعتقد أن هناك المزيد، أليس كذلك يا جو؟»

هنالك دائماً المزيد. ما عليك إلا الحفر. وكلما ازداد حفرك عمقاً، كلما ازداد ما تكتشفه سواداً.

أهز برأسي مؤكِّداً وأقول: «أجل».

«لم لا تخبرني إذن؟»

28

1992

تلفَّتتْ آني حولها. العينان تجويفان واسعان في وجهها الصغير.

«لقد تبعتك».

«حقاً؟ بماذا كنتِ تفكرين؟»

«أردتُ أن أرى ماذا كنت ستفعل. هل هذه جماجم؟ هل هي حقيقية؟» كان صوتها يرتعش قليلاً. شدَّتْ آبي-آيز إلى صدرها الضيِّق.

«يجب أن تذهبي». مشيتُ بخطوات عرجاء نحوها وأمسكتُ بذراعها. «تعالي».

تحرَّك هيرست ليمنعنا وقال: «انتظرْ».

«ماذا؟»

«ماذا لو ثرثرتْ؟»

«إنها في الثامنة».

«بالضبط».

قالت آني بصوت خافت: «لن أقول شيئاً».

«أترى؟ والآن دعني أُخرجها من هنا».

نظرنا في عينيّ بعضنا بعضاً. لست واثقاً تماماً مما كنت سأفعل لو لم تتأوّه ماري من الزاوية وتقول: «أشعر بأنني لست بخير يا ستيف. أريد الذهاب إلى المنزل».

قال فليتش: «بقرة غبية». ثم بصق على الأرض، ولكن بطريقة فاترة.

رأيتُ هيرست يصارِع نفسه. نظر إلي ثم إلى آني، ومن ثم إلى ماري.

وبعد ذلك قال بعدائية: «حسناً. سنذهب. لكننا سنعود. ولن أغادر بدون بعض التذكارات».

وهنا تحدَّث كريس للمرة الأولى، قائلاً: «لا! لا يمكنك. لا يمكنك أن تأخذ شيئاً من هنا».

تقدَّم هيرست نحوه وقال: «لم لا، يا فطيرة العجين؟ هذا المكان لنا. نحن نملكه».

قلت في نفسي مرة أخرى: لا، أنت لا تمتلك هذا المكان. قد يدعك تعتقد ذلك. وربما قد يريدك أن تعتقد ذلك. لكنه بهذه الطريقة يجذبك إليه. بهذه الطريقة يمتلكك.

قلت: «كريس على حق. لا يمكننا أخذ أي شيء. أعني، ماذا لو أن شخصاً ما سأل من أي حصلنا على عظام بشرية؟»

التفت هيرست نحوي وقال: «لا أحد يقول شيئاً. ولا أحد يخبرني بأي شيء لعين يمكنني ولا يمكنني فعله يا ثورني».

رفع العتلة مجدداً. أحسستُ بآني تنكمش فأمسكتها بقوة أكبر.

ارتسمتْ، على مهل، ابتسامةٌ على وجه هيرست قبل أن يقول: «أعطني حقيبة ظهرك».

ودون أن ينتظر رداً مني، سحبها من ظهري ورماها نحو فليتش.

ثم قال له: «دعنا نأخذ بعض الغنائم. يمكننا وضع بعض الشموع في هذه التجاويف وإرعاب الناس في الهالوين».

التقط فليتش الحقيبة ثم ركع ليلتقط بعض الجماجم. وعاد هيرست إلى الجدار وبدأ بضربه بالعتلة واقتلاع بعض العظام في نوبة هيجان مسعورة.

تشبّثتْ آني بذراعي وقالت: «آبي–آيز لا تحب المكان هنا».

«أخبري آبي–آيز بأن الأمور على يرام. سنذهب بعد قليل».

ارتعشت آني وقالت: «تقول آبي–آيز إن الأمور ليست على ما يرام. تقول إن الظلال... إن الظلال تتحرك». تلتفت بحدة. «ما هذا الضجيج؟»

لم يكن هناك أي شك بخصوص صوت الحركة السريعة والسقسقة آنذاك. كان يحيط بنا من كل الجوانب. لم يكن صوت جرذان، ولا وطاويط، فهذه كبيرة جداً، بل كان صوت شيء صغير لكنه كثير العدد. مجموعة هائلة من القواقع القاسية والأرجل الناعمة المتحركة بسرعة.

قلتُ في داخلي قبل لحظة مما حدث: حشرات. إنها حشرات.

أَدْخلَ هيرست العتلة في الصخر وراح يشدُّ عظمة عنيدة وهو يقول. «أمسكتُ بك!»

عندئذ انفجر الجدار مطلقاً مجموعة كبيرة من الأجساد السوداء اللامعة.

«اللعنة!!»

تدَّفقتْ من الثغرة خنافس بالمئات على شكل موجة تشبه الزيت ونزلت إلى الأرض. تسلَّق بعضها على العتلة وصعدت على ذراعي هيرست فأسقطها من يديه وبدأ بهز نفسه كما لو كان يؤدي رقصة مجنونة.

صرخ فليتش من الجانب الآخر من الكهف. كانت الجمجمة التي يمسك بها تدور في يده وتخرج الخنافس من محجري العينين وفتحة الفم. وكانت الجماجم الملقاة على الأرض تتحرك مدفوعة بملايين الأرجل الدقيقة.

رمى فليتش الجمجمة جانباً ونهض بسرعة على قدميه. ومن فرط عجلته في الوقوف أسقط المصباح من يده فارتطم بالأرض وانطفأ، مُغرقاً نصف الكهف في الظلام.

زعقت ماري بشكل هيستيري: «لا يمكنني أن أرى. خراء، خراء، خراء. إنها تصعد على كامل جسدي. ساعدوني. ساعدوني!»

أحسستُ برغبة في الصراخ أنا أيضاً لكنني كنت بحاجة للتفكير في آني، التي كانت تتشبث بي وقد لاذت بالصمت من شدة الفزع.

لَفَفْتُ ذراعيَّ حولها وانحنيت وهمست لها: «لا تخافي. إنها مجرد خنافس. سوف نخرج من هنا».

حاولتُ جرَّ نفسي وآني إلى الخلف باتجاه الدرجات، حيث كان كريس ما يزال يقف. كان المصباح متدلياً من يده بلا فائدة، مضيئاً بقعة صغيرة من الأرض المتحركة. كانت الخنافس تطقطق وتتكتك تحت أقدامنا. طقطقطق، تكتكتكتكتك. شعرت بالسعادة لانتعالي جزمة ثقيلة تغطي طرفيّ بنطالي الجينز، مع أن الجلد كان يضغط بشكل مؤلم على كاحلي المتورِّم. نشجتْ آني بجانبي مثل حيوان مذعور.

كدنا نصل إلى الدرجات عندما انبثق هيرست من الظلام بسرعة ووقف أمامي. كان وجهه في ضوء الخوذة شاحباً ومتعرِّقاً. وكان الذعر بادياً عليه، وهذا أخافني أكثر من أي شيء آخر.

«أعطني خوذتك».

لدى محاولته الإمساك بها دفعني هيرست نحو الحائط فأفْلَتُّ آني من يديّ.

صرختُ فيه: «ابتعد عني!»

«أعطني الضوء».

دفعني بقوة فارتطم رأسي بالصخر وارتجَّت جمجمتي داخل الخوذة. سمعتُ صوت شيء ينكسر. وبعد ذلك ترجرج الضوء، ثم علق على نحو متذبذب قبل أن ينطفئ نهائياً، ويلفّنا السواد في عباءة رطبة باردة.

صرختُ وأنا أدفع هيرست بعيداً عني: «أيها الأبله المخبول! آني؟»

«جُوي؟ لا أستطيع الرؤية». كان صوتها يشي بوجود دموع مكبوتة. كانت ما تزال تحاول جاهدةً أن تكون شجاعة.

تحرَّكتُ بخطوات عرجاء في اتجاه الصوت قائلاً: «أنا هنا. أشعلي مصباحكِ».

«لا أستطيع. لقد أضعتُه».

«لا بأس». مددتُ يدي فلمستْ أصابعي أصابعها.

صرخت ماري من جوف الظلام: «لااااا!»

شعرتُ بتيار هوائي كأن شيئاً ما مرَّ بجانب وجهي بسرعة فائقة. رميتُ نفسي على الأرض فسقطت بقوة على كوعي، وطارت الخوذة من رأسي. أحسستُ بألم شديد في ذراعي ولكن لم يكن لدي متسع من الوقت للتركيز على ألمي لأنني سمعت حينئذ صرخة حادة متوجِّعة فظيعة أخرى.

«آني؟!!»

زحفتُ على الأرض بين القواقع القاسية والأرجل الصغيرة سريعة الحركة. لمست أصابعي شيئاً معدنياً. كان مصباح آني. عندما أمسكتُ به وجدتُ إحدى البطاريات معلَّقة من جهته الخلفية فأدخلتها وضغطت على زر التشغيل وحرَّكتُ المصباح بشكل دائري حولي.

أحسستُ كما لو أني عقلي كان يسقط سقوطاً حراً، وكأن قلبي انطوى وتوسَّع وتفتَّت في وقت واحد. كانت آني ممدَّدة على الأرض، وكانت ما تزال ممسكة بآبي–آيز. وكانت بيجامتها مرفوعةً، كاشفةً عن ساقين نحيلتين ملطَّختين بالتراب. وكان وجهها وشعرها مغطَّيين كلاهما بشيء أحمر قانٍ ولزج.

زحفتُ نحو أختي وأخذتها بين ذراعيّ. كانت تفوح منها رائحة شامبو ورقائق بطاطا بطعم الجبن والبصل. في تلك الأثناء، كانت الخنافس، التي كانت تتحرَّك في كل مكان، قد بدأت تتراجع وتعود أدراجها إلى الجدران، بعد انتهاء عملها هناك.

قال هيرست: «كان ذلك حادثاً...»

رفعتُ الكشّاف فرأيت هيرست واقفاً على بعد بضعة أقدام، وماري متشبثة بذراعه. كانت العتلة ملقاة تحت قدميه. تذكَّرتُ تيار الهواء الذي مرَّ بجانب وجهي. نظرتُ إلى آني والدم النازف من رأسها.

«ماذا فعلتَ بحق العاهرات؟»

أردتُ أن أهجم عليه وأضرب رأسه بالصخر إلى أن لا يبقى منه سوى عظام متكسرة وهلام دامٍ. أردتُ أن أمسك بالعتلة وأغرزها في أحشائه.

لكن حالة آني أوقفتني. كان كاحلي ما يزال يؤلمني بشدة بحيث أن صعود تلك الدرجات لوحدي كان سيمثِّل معاناة بالنسبة لي، فما بالك بحمل آني معي. إضافة إلى ذلك، لم أكن أعرف على وجه اليقين إن كان يتوجَّب علينا تحريكها أساساً. لذا كنتُ بحاجة لمساعدة هيرست والآخرين.

«أعطني شيئاً ما من أجل الدماء».

حلَّ هيرست بعجلة ربطة عنقه ثم رماها إلي. كان وجهه ذابلاً ومرتخياً. كان يبدو

كأنه صحا من حلم سيئ واكتشف أنه لم يكن حلماً.

«لم أقصد أن...»

لم يقصد إيذاء آني. كان يقصد إيذائي أنا فقط. لم أستطع تحليل ما قاله حينئذ. ضغطتُ ربطة العنق على الجرح في رأس آني، فغارت إلى الأسفل. كان الجرح عميقاً. لم تكن إشارة جيدة أبداً.

قال فليتش: «هل هي ميتة؟»

فقلتُ في داخلي: لا، لا، لا. ليس أختي الصغيرة. ليس آني.

قلتُ: «يجب أن تحضروا سيارة إسعاف».

فقال فليتش: «ولكن... ماذا سنخبرهم؟»

«وهل هذا يهم؟»

كانت ربطة العنق مبللة بالدماء فرميتها جانباً.

قال هيرست: «فليتش محق. نحن بحاجة لقصة. أعني، سيطرحون أسئلة—»

«قصة؟» حدَّقتُ فيه. «كُرمى للعاهرات».

بطرف عيني رأيت كريس يتحرّك ثم ينحني ويلتقط شيئاً من الأرض وبعد ذلك يعود إلى الظلام.

قلتُ بيأس: «قولوا لهم أي شيء. أحضروا مساعدة وحسب. الآن».

قال فليتش اللعين مجدداً: «وما الفائدة إن كانت ميتة. لا يمكنني سماعها تتنفس. إنها لا تتنفس. انظر إليها. انظر إلى عينيها».

لم أشأ النظر؛ لأنني نظرتُ مسبقاً. قلت لنفسي إنها فاقدة الوعي وحسب. إذن، لماذا كانت عيناها مقلوبتين إلى الوراء؟ لماذا كان جسدها الضعيف يبدو بارداً؟

مرَّر هيرست يده في شعره. كان يفكر. وكان هذا سيئاً، لأنه إن بدأ بالتفكير، وبدأ يقلق حيال إنقاذ رقبته، فهذا يعني أن أمرنا انتهى.

«سيطرحون أسئلة. الشرطة».

قلت له: «أرجوك. إنها أختي الصغيرة «.

لمستْ ماري ذراعه وقالت: «ستيف». كنتُ قد نسيتُ أنها كانت موجودة.

نظر هيرست إليها. بدا كأنه فهم ما كانت تريد فقال: «حسناً. لنذهب».

نظرتُ إلى ماري، محاولاً الإيماء لها بشكري، لكنها لم تنظر إلي. كانت ما تزال شاحبة. توجَّهوا جميعاً نحو الدرجات دون أن يعرض أحدهم البقاء معي، بمن فيهم كريس. ولكن، لا بأس في ذلك، فأنا لم أكن أريدهم معي أساساً. كنت أريد البقاء لوحدي مع آني، كما كنا في السابق دائماً.

توقّف هيرست عند أسفل الدرجات. بدا كأنه كان يريد أن يقول شيئاً ما. لو أنه فعل، أعتقد بأنني كنت سأهجم عليه وأنتزع قلبه من صدره بيديَّ العاريتين. لكنه لم يفعل، بل التفت بصمت ثم اختفى في الظلام.

بقيتُ راكعاً على الأرض الباردة، حاضناً جسد آني المرتخي على حجري. سندتُ المصباح على الصخر موجِّهاً الإضاءة نحو الأعلى. كانت

الخنافس الميتة المسحوقة تحيط بنا، وكنت ما أزال أسمع صوت حركة بقيتها، على نحو خفيف، داخل الجدران. لكنني حاولت عدم الإصغاء إلى الشيء الناقص.

لم تكن تتنفّس.

لم يكونوا يصعدون بسرعة كافية. فقلتُ في داخلي: أسرِعْ، أسرِعْ. وبعد بعض الوقت بدأتْ أصوات خطواتهم المتعثِّرة تخفت تدريجياً. لابد أنهم أصبحوا بالقرب من الفتحة، وهذا يعني أن الوقت لن يطول حتى يصلوا إلى القرية، إلى منزل ما، إلى كشك هاتف، للاتصال بالرقم 999. تبعد المستشفى اثني عشر ميلاً، لكن سيارات الإسعاف تحوي مصابيح وصفارات إنذار وإذا عرفوا أن المصاب طفلة، إذا...

سمعتُ صوتاً، يشبه صدى بعيداً لكنه عالٍ بما يكفي ليصل إلى مسامعي. مثل سقوط شيء ثقيل، أو باب معدني يُغلَق.

أو غطاء فتحة يُغلَق.

حدَّقتُ فوقي في الظلام.

قلتُ بصوت هامس: «لا».

لا يمكن أن يفعلوا ذلك. حتى هيرست. أكيد؟

لا أحد يقول شيئاً. نحن بحاجة لقصة. سيطرحون أسئلة.

حاولت التفكير بشكل منطقي. كان من الممكن أن أكون مخطئاً. لعلهم أغلقوا الفتحة لإبقائنا بأمان، أو لضمان عدم سقوط أحد في الحفرة. حاولتُ جاهداً إقناع نفسي، حقاً، لكن عقلي كان دائماً يُرجعني إلى ذلك الصوت المعدني الثقيل.

في تلك اللحظة، فهمتُ أشياء لم يكن يجب على فتى في الخامسة عشرة أن يفهمها. أشياء حول طبيعة الإنسان. حول الحفاظ على الذات. وحول اليأس. ارتفع الذعر في داخلي مثل موجة مدِّيَّة ملأت حنجرتي فلم يعد بوسعي التنفس بيُسْر. أمسكتُ أختي الصغيرة ورحتُ أهزُّها يميناً وشمالاً.

آني، آني، آني.

في تلك اللحظة، بدأتُ أسمع صوتاً آخر. صوت حركة سريعة وسقسقة. كانت الخنافس تخرج من الجدران مجدداً. كانت آتية من أجلنا.

هذه الفكرة أنهتْ شللي.

لم يكن ينبغي علينا الانتظار هناك على أمل وصول مساعدة قد لا تأتي أبداً.

مدَّدتُ آني برفق على الأرض وأرغمت نفسي على الوقوف. ثم انحنيتُ ورفعتُها من تحت ذراعيها، لكنني أدركتُ حينئذ أنه لم يعد بوسعي حمل المصباح. فأنزلتها ووضعت المصباح في فمي. في تلك اللحظات، ازدادت حركة الخنافس. رفعتُ آني مجدداً وصعدت متمايلاً الدرجات القليلة الأولى بطريقة الرجوعِ إلى الخلف، موازناً نفسي بالاستناد إلى الجدار الصخري، وجارّاً جسدها النحيل بعدي. صحيح أنها كانت نحيلة، لكنني أنا أيضاً كنت نحيلاً. ظلَّت كنزتها ذات القلنسوة ترتفع ويحتك

جلدها الناعم بالدرجات الصخرية القاسية، وظللتْ أتوقف كي أنزلها، وكان ذلك غباءً مني، لأنني كنتُ أبدِّد الجهد والوقت معاً.

رفعتها ثلاث درجات أخرى فشعرت بألم شديد في كاحلي ودوخة في رأسي، فتوقفت محاولاً التقاط أنفاسي وتعديل مسكتي. ثم خطوتُ خطوة إلى الوراء فتفتَّت الصخر تحت كعبي انزلقتْ قدمي من تحتي وبدأت أنزلق معها على الدرجات. تشبَّثت بآني، ولكن بدون وجود طريقة لمنع انزلاقي ارتطم رأسي بقوة بالدرجة خلفي فترنَّح بصري وغلَّفني الظلام.

لكنه مختلف هذه المرة. الظلام. إنه أعمق. وأشد برودةً. أشعر به يتحرّك من حولي وفي داخلي. إنه يزحف فوق جلدي ويملأ حنجرتي، ويتغلغل في...

فُتحتْ عيناي بسرعة خاطفة وراحت يداي تمسحان وتربِّتان على رأسي ووجهي. كنت أعي على نحو ضبابي وجودَ أشياء تتراجع. حفيف قواقع لامعة تنسحب مجدداً إلى الصخر. كان المصباح ملقياً على الأرض

بجانبي ويبثُّ وهجاً هزيلاً. لم يبقَ فيه الكثير من الحياة. كم مضى على غيابي عن الوعي؟ ثوانٍ؟ دقائق؟ مدة أطول؟ كنتُ ممدداً على الدرجة ما قبل الأخيرة. وكان جسدي يبدو خفيفاً على نحو غريب؛ كأنني بلا وزن.

آني.

لم تكن مستلقية فوقي. جلست فلم أجدها بجانبي، ولا قربي، ولا أسفل الدرجات. يا إلهي.

التقطتُ المصباح ونهضت على قدمي. كان كاحلي ما يزال يؤلمني لكن الألم لم يكن شديداً. لعلي كنتُ خَدِراً وحسب، أو لربما اعتدتُ على الألم. بيد أن مؤخرة رأسي كانت تحرقني. لمستها فوجدتُ انتفاخاً صغيراً. ولكن، لم يكن لدي وقت للتفكير فيه.

آني.

نزلتُ مجدداً بحذر إلى الكهف. كانت العظام والجماجم ما تزال مبعثرة على الأرض. دستُ على قطع صغيرة منها.

«آني؟»

ارتدَّ صوتي إلي، أجوفَ، فارغاً. بدا الصدى الفارغ كأنه يقول: لا أحد هنا سوانا. لا أحد هنا سوانا نحو الجبناء.

مستحيل. لكنها، مع ذلك، لم تكن موجودة. ولم يكن هناك سوى تفسير واحد –لابد أنها خرجت.

حاولتُ تذكُّر ما حدث. لم أرها تُضرَب. صحيح أنها نزفت كمية كبيرة من الدماء، وكانت غائبة عن الوعي، لكن جروح الرأس تنزف كثيراً، أليس كذلك؟ قرأتُ ذلك في مكان ما. حتى الجرح الصغير في الرأس يمكن أن ينزف كثيراً. لعل إصابتها لم تكن بليغة كما اعتقدتُ.

حقاً؟ وماذا بخصوص برودة جسدها؟ وماذا بشأن عدم تنفُّسها؟

مجرد خطأ. كان عقلي يبالغ. كنا جميعنا مذعورين. وكانت الظلمة حالكة. ولكن، هناك شيء آخر، أليس كذلك. تلفَّتُّ حولي

وحدَّقت في أرجاء الكهف مرة أخرى. آبي–آيز. كانت آبي–آيز مفقودة. لقد تركتُ الدمية على الأرض لكنها اختفت. لابد أن آني أخذتها معها.

ألقيتُ نظرة أخيرة على الكهف ثم عدتُ إلى الدرجات. صعدت بسرعة أكبر هذه المرة –مدفوعاً بالأمل واليأس– وحشرتُ نفسي عبر الثغرة في الصخر. ومن نظرة سريعة على الكهف الصغير وجدتُ أنه كان فارغاً أيضاً. ترجرج ضوء المصباح. لم أكن واثقاً إن كانت بطاريته قادرة على إيصالي إلى المنزل أم لا.

المنزل. هل يمكن أن تكون آني قد وصلت إلى المنزل؟

كان منزلنا يبعد بالكاد عشر دقائق سيراً على الأقدام عن المنجم القديم. إن تمكَّنتْ آني من الخروج، فمن الممكن أنها باتت في المنزل آنذاك، تخبر والدي بكل شيء، وكان بوسعي توقُّع عقوبة جيدة من والدي عند وصولي إلى المنزل. في ذلك الحين، كنت سأرحب بذلك.

رفعتُ نفسي على السلَّم. كان الغطاء مفتوحاً بشكل جزئي (إذن فقد كنتُ مخطئاً بخصوص هذا الأمر أيضاً). كانت الفتحة كافياً لخروج

آني، وخروجي أنا أيضاً. وقفتُ في هواء الليل النقي البارد وأخذت نفساً عميقاً فأحسستُ به يلسع حنجرتي. ترنَّحتُ قليلاً وتشوَّش بصري فانحنيت وأرحتُ يديَّ على ركبتيّ. كنت بحاجة لاستجماع قوتي بما يكفي للعودة إلى المنزل فقط.

تسلّقتُ أكوام نفايات المنجم ومررت عبر الثغرة في السياج. انطفأ المصباح على الطريق الرئيسي، بعد أن قطعت نصف المسافة تقريباً. ولكن لم يعد ذلك يمثِّل مشكلة حينئذ بوجود مصابيح الشارع والأنوار التي كانت تتوهّج بين الحين والآخر عبر ستائر غرف الجلوس. هل كان الوقت متأخراً جداً؟ كم مضى على وجودنا هناك؟

أسرعتُ الخطى على الزقاق المحاذي للجهة الخلفية من منزلنا ودخلت عبر البوابة، وفي الحديقة الخلفية توقفت. كنت ما أزال أرتدي سترة وجزمة والدي. اللعنة. خلعتهما بسرعة ووضعتهما في غرفة الحديقة الخلفية ثم اتجهت صوب الباب الخلفي بجوربي المثقوب وأدرتُ

المقبض فانفتح الباب. كان هذا عادياً لأن أبي من شدة السُكْر لم يكن، في الغالب، يتذكّر أن يقفله.

في المطبخ، تردَّدتُ قليلاً. كان التلفاز يومض في غرفة الجلوس، وكان أبي يشخر، نصف جالس ونص متمدِّد، على المقعد أمامه. كانت هناك مجموعة صغيرة من علب شراب اللاجر واقفةً على الأرض بجانب قدميه.

مشيتُ على رؤوس أصابعي نحو السلَّم ووضعتُ يداً على الدرابزين وجررتُ جسدي المتراخي على السلَّم. كنت منهكاً ومريضاً لكنني كنتُ بحاجة لرؤية آني. كنت بحاجة للتأكد من أنها كانت في المنزل. فتحتُ باب غرفتها على مهل.

وغمرني شعور جارف بالراحة.

في الضوء الآتي من الممر لم أستطع سوى رؤية تكوُّر صغير على هيئة آني تحت لحاف «*ynoP elttiL yM* » يبرز في نهايته العلوية تاج من الشعر الداكن الأشعث.

إنها هنا. لقد تمكَّنتْ من الوصول إلى المنزل. كل شيء على ما يرام.

في تلك اللحظة، كدتُ أن أصدِّق بأن كل ما حدث كان مجرد كابوس فظيع.

بدأتُ بإغلاق الباب...

ثم توقفت. هل فكَّرتُ، ولو لثانية واحدة، كم كان غريباً خلود آني إلى السرير مباشرةً دون أن تحاول حتى إيقاظ أبي، من أجل جلب من يساعدني؟ هل فكَّرتُ، ولو لوهلة، بالدخول إلى غرفتها من أجل التحقق من أنها كانت بخير؟ كانت لديها إصابة في الرأس. كان يتوجب علي إيقاظها والتأكد من أنها واعية، وسليمة.

كان يتوجب علي فعل ذلك، كان يتوجب علي فعل ذلك، كان يتوجب علي فعل ذلك.

لكنني لم أفعل.

أغلقت الباب ثم دخلت إلى غرفتي وخلعتُ ملابسي الوسخة ورميتها في سلة الغسيل. قلت لنفسي إن كل شيء سيكون بخير، وإنني سأحل الأمر في الصباح. سأختلق قصة ما حول ما حدث في تلك الليلة. وسأقول لهيرست بأنني لا أريد أن أكون جزءاً من مجموعته بعد ذلك اليوم. وسأمضي مزيداً من الوقت مع آني. وسأعوِّضها عما فات. سأفعل ذلك حقاً.

وهويتُ على السرير. خطر لي خاطر لوهلة. شيء يتعلق بآني في سريرها. شيء هام كان مفقوداً. لكنني قبل أن أتمكّن من إدراكه، تبدَّد في الهواء. جذبتُ اللحاف إلى ذقني وأغمضتُ عينيّ...

«وفي الصباح، لم تكن موجودة؟»

«لم تعد إلى البيت أساساً. كان التكوُّر في السرير مجرد كومة من الدمى. والشعر... دمية». هززتُ رأسي يميناً وشمالاً. «كومة من الدمى اللعينة. كان ينبغي لي رؤيتها. كان ينبغي لي التحقق منها».

«يبدو أنك أُصبتَ بارتجاج قوي في الرأس. لم تكن تفكر بشكل سليم».

ولكن، كان ينبغي لي ملاحظة الشيء المفقود. آبي–آيز. لم تكن آبي–آيز على السرير، وآني لم تكن لتتركها هناك. كانت ستجلبها معها بالتأكيد.

تسألني الآنسة غريسون: «ماذا حدث بعدئذ؟»

«أتت الشرطة. وأُرسلتْ فرق بحث. حاولتُ إخبارهم. حاولت أن أشرح لهم بأن آني كانت تلحق بي في بعض الأحيان إلى المنجم، وأنه ينبغي لهم البحث هناك».

«لكنك لم تخبرهم بما حدث؟»

«أردتُ إخبارهم ولكن بحلول ذلك الوقت كان هيرست قد أخبر الشرطة بأننا كنا جميعاً حول منزله في تلك الليلة. وأيَّده والده. لا أحد كان سيصدِّقني. ليس كلمتي ضد كلمته».

تهزُّ الآنسة غريسون برأسها دلالةً على التفهُّم لكنني أقول في نفسي: إنها تعرف. تعرف بأنني كاذب وجبان.

«ولم ترجع لتبحث عنها؟»

«لم يكن بمقدوري الاقتراب ولم تكن الشرطة تسمح لي بالانضمام إلى فرق البحث. ظللت أفكر بأنهم سيجدون الفتحة. بأنها سيجدونها. لابد أنهم كانوا سيجدونها».

«أحياناً يجب أن تريد بعض الأماكن، مثل الأشخاص، بأن تُكتشَف».

أود بشدة اعتبار هذا الكلام جنوناً، لكنني أعلم بأنها محقّة. لم يجد كريس الفتحة، بل هي التي وجدته. وإذا لم تكن تريدكَ أن تدخل، فلن تجدها ثانيةً.

«كنتُ سأعترف. كنت سأذهب إلى مركز الشرطة وأخبرهم بكل شيء».

«ما الذي منعك؟»

«لقد عادت».

وعاش الجميع بسعادة وهناء.

ولكن، ليس هناك شيء كهذا. لقد عادت أختي الصغيرة. كانت تجلس في مركز الشرطة وهي تؤرجح بساقيها وتمسك بآبي–آيز بقوة، وحول كتفيها لُفَّتْ بطانية ضخمة. وابتسمتْ لي.

عندئذ علمتُ. في تلك اللحظة أدركتُ أي خطب وقع. أي خطب فظيع، مريع وقع.

وماذا بشأن رأس آني؟ والجرح؟ والدم؟ كل ما رأيته هو جرح أحمر صغير على جبينها. حدَّقتُ فيه. هل يمكن أن يُشفَى بتلك السرعة؟ هل كنتُ مخطئاً؟ هل تخيَّلتُ أن الضربة كانت أسوأ مما كانت في الواقع؟ لم أعد أعلم شيئاً.

«جو؟»

أقول على مهل: «لقد حدث شيء ما لأختي. لا أستطيع شرح طبيعته. أعلم فقط أنها، حين عادت، لم تكن هي نفسها. لم تكن آني التي أعرف».

«أفهم».

«لا، لا يمكنك أن تفهمي ذلك. لا أحد يمكنه أن يفهم. وأنا أمضيتُ خمسة وعشرين عاماً محاولاً نسيانه». أنظر إليها بغضب. «قلتِ إنك تعرفين ماذا حدث لأختي. أنتِ لا تعرفين شيئاً».

تحدِّق فيَّ بالمقابل، لكن نظرتها باردة وتقييمية. ثم تقف وتذهب نحو طاولتها وتفتح دُرْجاً وتُخرج زجاجة شيري وكأسين.

تملؤهما حتى الحافة ثم تعطيني كأساً وتجلس من جديد، بيدها الكأس الآخر. لستُ من محبي الشراب لكنني أرتشف منه –جرعة كبيرة.

تقول الآنسة غريسون: «كانت لدي أخت ذات يوم».

«لم أكن أعلم–»

«وُلدتْ ميتة. رأيتها، لاحقاً فقط. كانت تبدو كأنها نائمة، لكنها بالطبع لم تكن تتنفّس ولم تكن تصدر أي صوت. أذكر قابلة القربة –امرأة كبيرة في السن– وهي تلفُّها ببطانية وتضعها بين ذراعي أمي. ثم قالت

شيئاً لم أفهمه في حينه: «لا يجب أن يكون الأمر بهذه الطريقة. أعرف مكانا يمكنكِ أن تأخذيها إليه. بوسعكِ إعادة طفلتك».

ذلك التيار الهوائي البارد يعود. ثمة نافذة مفتوحة في مكان ما.

«ماذا فعلتْ أمك؟»

«قالت للمرأة بأن تخرج، وبأن لا تتحدَّث أبداً في مثل هذه الأشياء».

«هل سألتِها يوماً بخصوص هذا الأمر؟»

«لم يتحدث والداي أبداً عن أختي. في ذلك الحين، قلة منا كانوا يتحدثون عن الموت، أليس كذلك؟ إنه سر قذر. مع أن الموت، بطريقة ما، يمثِّل الجزء الأهم من الحياة. فبدونه لن يكون وجودنا معقولاً».

أشرب بقية الشيري ثم أقول: «لماذا أردتني أن أعود؟»

«لتمنع التاريخ من تكرار نفسه».

«لا يمكن لأحد فعل ذلك. هذا ما يفعله التاريخ. نحب أن نعتقد بأننا نتعلّم من أخطائنا، لكننا لا نتعلَّم في الواقع. نحن نعتقد دائماً بأن الأمر سيكون مختلفاً هذه المرة، وهو لا يكون كذلك أبداً».

«إن كنتَ تعتقد بذلك حقاً، لما كنتَ موجوداً هنا».

أضحك ثم أقول: «في الوقت الحالي، ليس لدي أي فكرة عما أعتقد، أو لماذا أنا موجود هنا».

«دعني أساعدك إذن. أعتقد أن جيريمي هيرست وجد طريقة أخرى للدخول إلى الكهف الذي اكتشفتموه. إنه يأخذ بعض الأولاد إلى هناك. أظن أنه أخذ بن وحدث شيء ما له، مثلما حدث مع شقيقتك».

«وأنا أشعر بالأسى بشأن ذلك، اتفقنا؟ أشعر بالأسى حيال بن. وأشعر بالأسى حيال جوليا. لكنني لا أعلم ماذا تتوقعين مني فعله—»

«هذا الأمر لا يتعلق ببن وجوليا».

«بماذا يتعلق إذن؟»

«بستيفين هيرست».

أُطبق فكّيَّ بقوة بشكل لا شعوري.

«ما علاقته بذلك؟»

«إنه يعيق تقدُّم مخطط الحديقة الريفية العامة منذ أشهر. يمنع المتعهدين من الوصول إلى الأرض».

«ظننتُ بأنه يريد بناء منازل».

«هذا ما يريد من الناس أن يعتقدوه. أظن أنه يحمي ما هو موجود تحت الأرض».

«لماذا؟»

«ماري مريضة جداً».

«سرطان. أعلم».

«سرطان قاتل. بقي لديها أشهر، ربما أسابيع. إنها تحتضر».

أشعر بموجة الخوف التي أحسستُ بها في المشرب.

ماري لن تموت. لن أدع ذلك يحدث.

«لا». أهز رأسي. «حتى هيرست ليس مجنونا إلى هذا الحد».

«لكنه يائس. واليائسون سيحاولون كل شيء. سوف يبحثون عن معجزة». تنحني إلى الأمام وتضع يداً باردة جافة على يدي. «بالتأكيد، نادراً ما يجدونها. هل تفهم الآن لماذا أردتك أن تعود؟»

أجل، وفهمي يفتح هوّة عميقة باردة داخل أحشائي.

أقول لها: «وهو يريد إنقاذها».

«وأعتقد أنك الشخص الوحيد القادر على منعه».

أجلس على الأريكة، وأمامي على طاولة القهوة كأس من الشراب وعلبة ورق اللعب. لم ألمس أياً منهما بعد. ولم أشعل النار في الموقد، والغرفة مظلمة. مازلت أرتدي معطفي. الجو بارد؛ لكنه بارد دائماً.

في ضوء القمر الخافت الآتي من نافذة المطبخ، أستطيع رؤية آبي–آيز على المقعد المقابل ترمقني بنظرتها الجديدة، الأشد رعباً من نظراتها السابقة.

إنها ليست صحبتي الوحيدة. أشعر بهم على مقربة مني. ليس فقط أصوات الحركة السريعة والسقسقة التي أصبحتُ تقريباً معتاداً عليها، بل صحبة أخرى. صامتون لكنهم يراقبون. أفتح علبة أوراق اللعب –للمرة الأولى منذ وقت طويل– وأبدأ بخلطها.

«إنها ليست مشكلتي، اتفقنا؟»

أقذف الكلمات إلى الظلام وأنتظره كي يتحداني، لكنه لا يردّ، مع أنني أشعر بعيون مسلّطة عليّ، ملأى بالسواد.

«حاولتُ منع ذلك من قبل. لم أنجح».

يتململ الظلام، وتزداد السقسقة، كأنني قلت شيئاً يزعجه. أوزِّع الأورق لأربعة لاعبين غير مرئيين ثم أتناول كأسي وأشربه كله دفعة واحدة. شجاعة هولندية (egaruoc hctuD –يُقصَد بها الشجاعة التي يثيرها شرب الكحول). عبارة غبية. شجاعة مزيّفة، أياً تكن اللغة.

«لستُ مديناً لهيرست بأي شيء. لذا دعه يمضي قدماً. دعه يتعلَّم. لا أبالي».

يرد الظلام مثل أب يوبِّخ طفلاً غاضباً: ولكن، هذا ليس صحيحاً، أليس كذلك يا جو؟ لأن الأمر لا يتعلق بهيرست فقط؟ إنه يتعلق بماري. فتاة كنتَ تكنُّ مشاعر لها ذات يوم. امرأة تحتضر. امرأة تستحق أن تموت بنوعٍ من السلام. لأن هناك أشياء أسوأ من الموت. لأن ما يعود ليس دائماً هو ما بقي. وأنت الشخص الوحيد الذي يمكنه منع ذلك.

أحاول التحديق بتحدٍّ في الظلام، لكنه لا يتزحزح. لا يرمش. بل يبدو لي بأنه يقترب مني مثل عاشق غير مرغوب به. والآن، يمكنني رؤية شيء آخر يكمن في طيّاته. أشكال أشخاص، ظلال ضمن ظلال. لأن الموتى لا يتركوننا أبداً. نحن نحملهم في دواخلنا. في كل شيء نفعله. في أحلامنا، وكوابيسنا. الموتى جزء منا. وربما جزء من شيء آخر أيضاً. هذا المكان. هذه الأرض.

ولكن، ماذا لو كانت الأرض عفنة؟ ماذا لو أن الأشياء التي نزرعها فيها تصبح ملأى بالسم بعد أن تنمو مجدداً؟ أفكِّر في عدم قدرتنا على صنع رجل الثلج نفسه، أو في شرائط الفيديو المشوّشة والخَرِبة التي كان ينسخها صديق والدي. ثمة أشياء -أشياء جميلة، مثالية- لا يمكنك إعادة خلقها دون إفسادها.

أسمع حركة. صرير باب، وخطوات أقدام ناعمة. لكنني مستعد.

أقول: «ماذا تريد مني؟ ماذا تريدني أن أفعل؟»

«حسناً، في البداية، يمكنك تشغيل الأضواء اللعينة».

أقفز من مكاني وأستدير بسرعة مع انغمار غرفة الجلوس بالضوء.

«يا الله». أحمي عينيَّ بيدي، مثل مصّاص دماء تعرَّض لأشعة الفجر الحارقة، وأنظر من بين أصابعي فأرى بريندان واقفاً بالقرب من المدخل، مرتدياً سترة عسكرية، وبلوزة فضفاضة بلا كمّين وبنطالاً من المخمل، وحذاء رياضياً أخضر مهترئاً. ويعلِّق على كتفه حقيبة ضخمة.

ينظر إلي من بين لحيته وشعره الأشعث ويقول: «ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟ تجلس في الظلام وتحدث نفسك؟»

أحدِّقُ فيه وأهزُّ برأسي ثم أقول: «هل أصبحتُ أنا الشخص الوحيد الذي يطرق على الباب الآن؟»

يعدُّ بريندان قهوة مريعة، وبعد منتصف الليل أيضاً –ليس الوقت المفضَّل لشرب القهوة بالنسبة لي– لكنني مرتبك ومنهَك لمجادلته في هذا الأمر.

يأتي من المطبخ حاملاً كوبيْن ويضعهما على الطاولة أمامي ثم ينظر حوله باحثاً عن مكان ليجلس فيه.

«أحب ما فعلتَ بالمكان».

«إنه يُسمَّى تفكيكاً».

«يُسمَّى شيء ما».

أومئ له نحو المقعد قائلاً: «اجلس. آبي–آيز تحب الصحبة».

ينظر إلى الدمية ثم يقول: «لعل هذا بديهي، لكن الجلوس هنا والتحدُّث إلى دمية بعين واحدة أشد إخافةً من التحدث مع نفسك».

يحمل آبي–آيز ويضعها على الأرض مع ارتعاشة، ثم يجلس ويمسك بكوبه. أنظر إلى الحقيبة الكبيرة القابعة عند قدميه.

«كنتُ أتوقع رسولاً، وليس تسليماً شخصياً».

«أجل، في الواقع، ظننتُ أن البنزين أرخص».

«ليس لديك سيارة».

«استعرتُ سيارة أختي».

«وماذا بشأن العمل؟»

«يمكنني التغيُّب عنه لبضعة أيام. وأنا مسرور لأنني فعلت، لأنك تبدو كالخراء، يا صديقي. هواء الريف لا يتوافق معك فيما يبدو».

«في الحقيقة، لن أتنفّسه فترة أطول من ذلك».

بطريقة أو بأخرى.

«خطتك تثمر».

«شيء من هذا القبيل».

«ألهذا السبب لديك أوراق لعب موزَّعة؟»

أنظر إلى أوراق اللعب التي وزّعتها على الطاولة.

«كنتُ أقتل الوقت فحسب».

«إنك لا تخطط لاستعادة مالَك باللعب؟»

«لا. بالتأكيد لا».

«الحمد لله على ذلك. لا تُسئ فهمي، لكنك لاعب ورق رديء».

«وأنت، ألم تستطع إخباري بذلك قبل أن يصنع أحدهم أعواد ثقاب من ساقي؟»

«يتوجّب عليك أن تريد سماعه». ينظر إلى الحقيبة. «إذن، من المفترض –ولا أعتقد أنني أدوس على أصابع قدم شيرلوك عندما أستنتج هذا– أن لهذا الأمر علاقة بما في هذه الحقيبة؟»

«برافو يا عزيزي واتسون».

«إذن؟»

أحاول بمشقة رفع حاجبي ثم أقول: «سيدفع لي شخص ما مبلغاً كبيراً من المال كيلا آخذ هذه إلى الشرطة». أنحني وأرفع الحقيبة وأضعها على طاولة القهوة. «هل نظرتَ إلى ما في داخلها؟»

«تصوَّرتُ بأنك إن أردتَ مني أن أعرف فستريني».

أفتح السحّاب العلوي وأُخرج بعناية شيئاً ضخماً ملفوفاً بكنزة رياضية عتيقة. أفتح الكنزة وأكشف عن شيئين محفوظين بعناية داخل كيس بلاستيكي شفاف.

عتلة، وربطة عنق مدرسية زرقاء غامقة، ومع بقع أغمق في بعض الأماكن، حيث نُقعتْ بالدماء. دماء أختي. وقد خيط عليها اسم واضح تماماً: س. هيرست.

يقول بريندان: «ما هذا بحق العاهرات؟»

«انتقام».

31

1992

السقوط لا يقتلك. التوقف هو الذي يقتلك.

هذا ما قاله لي كريس.

يعتقد الناس أن دماغ الإنسان يتوقف عن العمل عندما سقوطه من ارتفاع شاهق قبل ارتطامه بالأرض.

ليس صحيحاً. من المحتمل أنه قد لا يملك متسعاً من الوقت – بسبب سرعة معالجته للمعلومات– لإدراك الارتطام الفعلي على نحو واعٍ، ولكن، هذا لا يعني أنه لا يعمل بصورة محمومة طوال مدة السقوط.

حتى التهشُّم النهائي.

كان عندنا حصة لغة إنكليزية في «المبنى» في الفترة الأخيرة من ذلك اليوم الذي سقط فيه كريس. قرأنا من رواية مزرعة الحيوانات. لم

تعجبني تلك الرواية. في الحقيقة، لم أكن في حينه، ولا الآن، من المعجبين بالرمزية المفرطة.

بحسب وجهة نظري في سن الخامسة عشرة، كان بوسع الكاتب بسهولة سرد القصة باستخدام أشخاص عاديين بدلاً من استبدالهم بحيوانات. لم أرَ المغزى من ذلك. بدا لي كأن الكاتب، باستخدامه هذه الطريقة، كان يعتقد بأنه ذكي، وبأن أحداً لن يقدر على إدراك أن كتابه يدَّعي شيئاً في حين أنه ليس كذلك. لكن الناس قادرون على إدراك ذلك. يشبه هذا الأمر ساحراً يقوم بخدعة يمكنك كشفها لكنه مع ذلك يعتقد أنها بارعة جداً.

لم يكن أورويل بارعاً، لكن رواية **1984** جيدة، لأنه لم يدَّعِ فيها. لكنها كانت قاسية ومخيفة ووحشية.

في الحقيقة، لم أكن أفكر كثيراً في الكتاب خلال تلك الحصة بالذات لأن ذهني كان مشغولاً جداً خلال الأسابيع القليلة السابقة.

كان قد مضى على عودة آني نحو شهر تقريباً، وكانت الفرحة والاهتمام الأوليين قد بدآ يذبلان. ولكن، كان ينبغي أن تكون تلك الفترة سعيدة مع ذلك. وكان ينبغي أن تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية، بيد أنها لم تكن سعيدة، ولم أعد في حينه واثقاً من أنني كنت أعرف ما هي الحالة الطبيعية.

حاولتُ التحدث مع آني خلال الأيام القليلة الأولى. حاولت استمالتها للتحدث بشأن ما حدث في تلك الليلة، لكنها كانت تكتفي بالتحديق فيَّ بعينين تَشِيان بعدم الإدراك. وبين الحين والآخر كانت تبتسم أو تضحك بدون سبب. وبعد أن كان صوت ضحكتها يبث الدفء في جسدي، بات حينئذ يوتِّرني كما لو أنني كنت أسمع صوت احتكاك ظفر بسبُّورة.

كانت أمي ما تزال تمضي معظم وقتها في الاعتناء بجدتي، التي «لم تكن في وضع صحي جيد» بعد الخريف. وكان أبي قد أخذ إجازة من العمل لرعاية آني إلى أن تكون مستعدة للعودة إلى المدرسة؛ أو هذا ما

قاله، لأنه لم يكن صحيحاً. لقد رأيت رسالة بارزة من جيب سترته ذات مساء كُتب على رأسها «P 45». كنتُ أعرف بأنها تعني إما أنه ترك العمل أو طُرد منه. دفعتُ الرسالة داخل الجيب ولم أذكر أي شيء لأمي.

في الحقيقة، كانت هناك أمور كثيرة لم أكن أخبر أمي بها. أو لم يكن باستطاعتي إخبارها، لأنني لم أكن أريد إثارة قلقها، ولأنني لم أكن أريد أن أجعلها تعسة، ولأنني أيضاً كنتُ أخشى ألا تصدّقني.

لم أخبرها أنني كنت قد بدأت أخاف من العودة إلى البيت بعد المدرسة لأن أبي يكون ثملاً مسبقاً ولأن رائحة البيت تكون نتنة. ليس من الخمر فحسب. بل من شيء أشد سوءاً بما لا يُقاس. ذلك النوع من الرائحة التي تفوح من البيت عندما يزحف حيوان ما تحت ألواح الأرضية ويموت هناك. ذات ليلة، طلبتْ أمي مني ومن أبي البحث عن فأر ميت، ولما لم نجد شيئاً قلبتْ عينها وقالت: «أنا متأكدة بأنها ستزول».

لم أقل لها إنها مخطئة، وإن الرائحة لم تكن آتية من فأر ميت، بل من شيء آخر جاء ليعيش في منزلنا.

لم أقل لها إنني كنت أبقى صاحياً معظم الليالي مصغياً لأصوات صادرة عن غرفة آني الملاصقة لغرفتي. أحياناً، كانت تلك الأصوات عبارة عن أغنية واحدة تتكرر مرة تلو مرة:

«ستكون آتية من حول الجبل حين تأتي، ستكون آتية من حول الجبل حين تأتي».

وفي ليالٍ أخرى، كنت أسمع صراخاً وصياحاً رهيباً. وكنت أضع سمّاعتي الرأس الملحقتين بجهازي الووكمان أو أُطبق وسادتي على رأسي، أو أي شيء لأكتم تلك الأصوات. وفي الصباح كنت أدخل إلى غرفة آني وأسحب الشراشف المبللة بالبول من سريرها وأضعها في الغسّالة وأشغِّلها قبل ذهابي إلى المدرسة. لعل أمي كانت تظن بأنني كنت أحاول مساعدة أبي. وفي الحقيقة، لو لم أكن أهتم بالغسيل، لما أُنجز أبداً، لكن ذلك لم يكن هو السبب الحقيقي.

كنت أقوم بذلك لأنني كنت مسؤولاً عما حدث. هذا ما كنت أشعر به. كان هذا نصيبي. تكفيري عن ذنبي. عقابي على ما فعلت. أو على ما لم أفعله. لأنني لم أنقذها.

ولم أخبر أحداً أنني في بعض الأحيان كنت أبدِّل شراشفي أيضاً، وأنني كنت أرتجف لسماع أي صرير في المنزل لأنني كنت أتوقع أن ألتفت وأرى آني تقف متشبِّثةً بآبي-آيز وهي تبتسم وتحدِّق فيَّ بتينك العينين اللتين كانتا تبدوان أكبر عمراً وأشدَّ غموضاً بما لا يقاس من عيني فتاة في الثامنة من العمر.

لم أكن أريد الاعتراف، حتى لنفسي، بأنني كنت أحياناً أرتعب لدرجة الموت من شقيقتي الصغيرة.

رنَّ جرس نهاية الحصَّة فحشرت كتبي في حقيبتي وأرجعتُ كرسيَّ إلى الخلف. كان المقعد المجاور، الذي اعتاد كريس الجلوس عليه، فارغاً لأنه بات حينئذ يجلس لوحده في مقعد إضافي قريب من المؤخرة.

كنت مرتاحاً، في الحقيقة، ليس فقط لأنني لم أكن أرغب في التحدث إليه والاستماع لأعذاره أو اعتذاراته عما فعلوه في تلك الليلة، وإنما أيضاً لأنه كان مضطرباً جداً. كان مظهره قد أصبح أشد سوءاً من أي وقت مضى، وازداد تلعثمه حدَّة. كما أصبح يتمتم ويهمهم لنفسه. وفي بعض الأحيان، كان يتوقف فجأةً ويبدأ بمسح ذراعيه بيديه بشكل مسعور كما لو أنه كان يزيل قذارة غير مرئية. أو حشرات.

في العادة، كان أول من يخرج من الصف، تفادياً للشتائم والدفع وتقصُّد إسقاطه على الأرض. بما أنه لم يعد آنذاك يرافق هيرست (وكذلك أنا)، فقد أصبح خالياً من درعه غير المرئي.

لم أدافع عنه، فقد كانت لدي مشكلاتي الخاصة –ومخاوفي الخاصة. لذا، عندما رأيت أنه تباطأ في الخروج من الصف في عصر ذلك اليوم، وعندما وجدته بمحاذاتي بينما كنت أنزل مسرعاً على السلَّم، انزعجت.

وقلت له: «ما الأمر؟»

«أأأنا ببحاجة ل–ل–لأن أريك ششيئاً».

كانت رائحة نَفَسه بشعة كأنه لم ينظِّف أسنانه. وكانت تفوح من قميصه رائحة مزيل رائحة كريهة.

«ماذا؟»

«ل–ل–لا يمممكنني إخبارك ههنا».

«لماذا؟»

«أأأشخاص كككثيرون».

عندما وصلنا إلى الطابق الأرض، فتحتُ الباب المفضي إلى الساحة الخارجية. كان هناك الكثير من الطلاب الآخرين حولنا –الهرج والمرج الاعتيادي لوقت الانصراف من المدرسة. كان وجه كريس مصطبغاً بالأحمر، وكان بوسعي رؤيته يحاول إرغام الكلمات على الخروج. شعرت بالإشفاق عليه، رغماً عني.

«حاولْ أن تتنفس وحسب، اتفقنا؟»

هزّ برأسه موافقاً وسحب عدة أنفاس عميقة.

ثم قال: «المممقبرة. ق–ق–قابلني هناك. السادسة عصراً. مهم».

أردتُ اختلاق عذر، ولكن ما هو البديل؟ التأكد من أن أبي لم يشعل النار في المنزل بعد أن غط في النوم مع سيجارته؟ التحقُّق من أن آني ما تزال هناك؟ من أنها ما تزال غير آني؟

«حسناً». تنهّدتُ. «من الأفضل لك أن يكون الأمر جيداً».

أومأ كريس دلالة على موافقته، ثم أحنى رأسه كما لو أنه كان يبحث عن غطاء ثم انعطف مسرعاً حول الزاوية.

بينما كنت أعدِّل وضعية حقيبتي على كتفي، سمعتُ صوت ضحكة خلفي فالتفتُّ إلى الخلف ورأيت هيرست يخرج من باب المبنى الإنكليزي، يتبعه فليتش مثل ظل لزج. نظر هيرست نحوي وابتسم بسخرية ثم همس بشيء ما لفليتش وضحكا معاً.

شددتُ قبضتي يديَّ، غارزاً أظافري في راحتيَّ، ثم أجبرتُ نفسي على الالتفات ومتابعة طريقي. إن اصطدمت معه، كنت سأوقع نفسي في مشكلة أكبر. كانت أمي ستنزعج مني، وأبي سيضربي، وهيرست سيفوز – مجدداً. ما الفائدة؟ أطرقتُ رأسي في الأرض ومشيتُ بتصميم نحو البوابة.

لم أتوجَّه مباشرة إلى المنزل. في تلك الفترة، لم أكن أفعل ذلك قط. كنت أمشي في الشوارع، وآكل رقائق البطاطا في موقف الباص، وأمضي بعض الوقت في حديقة الألعاب (إن لم يكن هيرست وفليتش فيها) –أي شيء يؤخِّر اللحظة التي سأضطر فيها لدفع الباب ومواجهة الرائحة، والظلام الكريه، والبرودة المتغلغلة التي كانت تلتف حولي...

لم يكن بمقدوري الذهاب إلى مطعم الوجبات الجاهزة أو محل السكاكر، لأنه لم يكن قد بقي في جيبي سوى بضع بنسات، لذا مشيت على مهل على الطريق العام راكلاً أمامي علبة صودا فارغة. مررتُ بجانب بقعة العشب الصغيرة حيث ينتصب تمثال عامل المنجم. كان يوجد

بجواره مقعد يكون فارغاً في العادة، لكنه في ذلك اليوم كان يستضيف فتاة وحيدة جالسةً مقوَّسة الظهر، مطأطئة الرأس، ترتدي سترة عسكرية كبيرة الحجم، ويتدلى شعرها الأسود على وجهها.

ماري.

لم نتحدَّث معاً منذ تلك الليلة في الحفرة. ولأكون صادقاً، لم أكن واثقاً من أنها كانت تتذكَّر الكثير مما حدث هناك. أود القول إن هذا جعلها تصغر في عيني وتنزل من المرتبة العالية التي كنت أضعها فيها. بيد أن هذا لم يكن صحيحاً. مجرد رؤيتها كانت تثير المشاعر في قلبي، وأماكن أخرى.

وقفتُ بارتباك بجانبها.

«هل أنتِ بخير؟»

تنشَّقتْ ومسحتْ أنفها بيدها، فأدركتُ أنها كانت تبكي. تردَّدتُ قليلاً ثم أنزلتُ حقيبتي عن كتفي وجلستُ بجوارها.

«ما الأمر؟»

هزَّتْ برأسها وقالت بصوت مخنوق بالدموع والمخاط: «كنتُ غبية».

«لماذا؟»

«أنا آسفة. بشأن ما حدث، مع شقيقتك».

«الأمور بخير». مع أنها لم تكن كذلك.

«كان الوضع جنونياً هناك في الأسفل. أعني، لا يمكنني التصديق بأننا اعتقدنا أنها كانت، كما تعلم–»

ابتلعتُ غصة قوية في حنجرتي ثم قلت: «أعلم».

هزَّتْ رأسها ثانيةً وقالت: «لا تعرف كم كنت أريد التحدث معك، لكنني كنت خائفة».

«خائفة؟ من ماذا؟»

أنزلتْ شعرها على وجهها وقالت: «لا شيء».

ولكن، كان واضحاً بأن هناك شيئاً ما. الارتعاش في صوتها والطريقة التي كانت تخفي بها وجهها بشعرها.

«هل تعانين من شيء ما في عينك؟»

«لا، إنه–»

انحنيتُ وأزحتُ شعرها عن وجهها إلى ما وراء أذنها فلم تمنعني. كانت عينها سوداء مزرقّة ومنتفخة.

«ماذا حدث؟»

«تشاجرنا. لم يكن يقصد ذلك».

اشتعل الغضب في داخلي: «هيرست فعل ذلك؟»

صحيح أنه كان وغداً، لكنني لم أكن أعرف عنه بأنه يمكن أن يستخدم قبضته على فتاة.

«انسَ الأمر وحسب».

«لقد ضربك. يجب أن تخبري أحداً».

«من فضلك يا جو. يجب ألا تقول أي شيء». أمسكتْ بيديَّ.

«عِدني».

لم يكن لدي خيار. «حسناً. ولكن عديني بأنكِ لن تسمحي بحدوث ذلك مرة أخرى».

«اتفقنا».

«لماذا كنتما تتشاجران؟»

«كان الأمر يتعلق بكريس».

«كريس؟»

«يخشى ستيف من أن يقول كريس شيئاً ما حول الحفرة. إنه يتصرّف بغرابة شديدة. قال ستيف إن لديه شيئاً ما يجب ألا يكون معه،

وعليه الاهتمام بأمره. قلت له بأن يدع كريس وشأنه. ثم قلت بأنني أريد الانفصال وعندئذ–»

«ضربك؟»

«وصفني بالعاهرة وقال لا يوجد أحد يتركه، أبداً».

اغرورقتْ عيناها بدموعٍ جديدة فوضعتُ ذراعي حولها وجذبتها نحوي. كان شعرها خشناً وتفوح منه رائحة مثبِّت شعر ودخان.

قالت بصوت هامس: «جو. ماذا سنفعل؟»

«سأحل الأمر. سوف أقابل كريس في السادسة في المقبرة. يمكنني تحذيره».

أبعدتْ نفسها قليلاً ثم قالت: «ربما يمكنك التحدث معه. أخبره ألا يقول شيئاً. ويوقف كل هذا الهراء المجنون».

«لا أعلم».

«أنت بارِع في التحدث مع الناس».

«حسناً، سأحاول».

«شكراً». انحنتْ نحوي وضغط شفتيها على شفتيّ ثم نهضتْ بسرعة. «يجب أن أذهب».

هززت برأسي خَدِراً من الصدمة.

ثم قلت: «هل تريدين أن أمشي معك؟»

«لا أستطيع. يجب أن أجلب بعض الأغراض من السوق لأمي».

«آه. حسناً».

«أراكَ لاحقاً».

«إلى اللقاء».

راقبتها وهي تبتعد، مفكِّراً فيما أود فعله لهيرست، وذكرى قبلتها ما تزال تُنمِّل شفتيَّ.

ربما لهذا السبب ثم أفكر أبداً في ما قلتُه للتو.

كان أبي نصف واعٍ أمام التلفاز عندما عدت. وكانت أمي قد تركت بعض الوجبات في الثلاجة، فأخرجتُ واحدة منها ووضعتها في الميكرويف. لم أكن جائعاً كثيراً لكنني أرغمتُ نفسي على أكل القليل من اللزانيا وشربتُ علبة كوكاكولا ثم صرختُ لأبي وأخبرته بوجود طعام في المطبخ، وبعد ذلك صعدت إلى الطابق العلوي لتبديل ثيابي.

توقفتُ عند باب غرفة آني. في السابق، كنت أحب الوقوف عند بابها أحياناً ومراقبتها دون أن تنتبه إلى وجودي وهي منهمكة في لعبة تخيُّلية ما أبطالها دمى باربي الخاصة بها وأبطالي المقاتلين، مقلِّدة أصواتاً متنوعة. لكنها باتت تغلق باب غرفتها دائماً في تلك الفترة، وأصبحت الأصوات في الداخل مختلفة تماماً.

لم أسمع شيئاً في ذلك اليوم. لكن الصمت كان أشد سوءاً. تردَّدتُ قليلاً، ولكن لابد أن آني كانت جائعة ولم يكن بوسعي الاعتماد على أبي لإطعامها.

رفعتُ يدي وطرقتُ على الباب. «آني؟»

لم ترد.

«آني؟»

فُتح الباب بضع سنتيمترات. دفعته أكثر محاولاً عدم الانكماش من الرائحة. كانت آني تقف في الجهة البعيدة من الغرفة تحدِّق عبر النافذة إلى الخارج. لابد أنها ركضت إلى الباب وفتحته ثم عادت ركضاً أيضاً. ولكن، لم يعد بمقدوري الوثوق في أي شيء في ذلك الحين.

دخلت إلى غرفة النوم.

«لقد سخَّنتُ بعض اللزانيا للتو».

ظلَّت واقفة بلا حراك. وفجأةً أدركتُ أنها كانت ترتدي كنزة قديمة ولكن بدون بنطال وكيلوت.

«حسناً، أعلميني إذا كنتِ تريدين بعض–»

استدارت فاحمرَّ وجهي خجلاً. صحيح أن آني كانت طفلة صغيرة، لكنني لم أرها عارية منذ أن كانت رضيعة. ابتسمتْ كما لو أنها أحسَّتْ بارتباكي، غير أنها كانت ابتسامة ماكرة مخيفة. وبعد ذلك، خطتْ خطوة إلى الأمام وباعدت بين قدميها ثم تدفَّق بول أصفر ساخن من بين ساقيها ونزل على السجادة.

ثم بدأتْ تضحك فخرجتُ كالسهم من غرفتها وصفقتُ الباب ورائي ونزلتُ راكضاً على السلّم. لم أعد أكترث لتبديل ثيابي. كنتُ أريد فقط الابتعاد عن أختي الصغيرة.

لاحقتني ضحكتها إلى خارج المنزل، لكنها بدت حينئذ كالصراخ، أو كعواء كلب يركض خلفي.

لم يكن كريس موجوداً في المقبرة. دفعتُ البوابة ومشيتُ على الممر المعشب ثم درتُ حول الكنيسة دورة كاملة، في حال أنه كان مختبئاً في مكان ما، وهو أمر غريب لكنه ليس مُستبعَداً.

لم أجد أي أثر لكريس. تنهَّدتُ. لكنني لم أستغرب كثيراً فكريس كان يفقد عقله، حقاً. مع أنني لم أكن، أنا نفسي، في حالة متوازنة آنذاك.

لم أستطع إبعاد صورة آني من ذهني. عريُّها وتدفُّق البول من بين ساقيها النحيلتين. لم يكن بوسعي العودة إلى البيت. بدت فكرة العودة مستعصية على التصوُّر.

لعلها كانت بحاجة لرؤية طبيب مجدداً. لعل الضربة على رأسها – أنا متأكد بأنها ضُربتْ على رأسها– أثَّرت على دماغها. أعني أنها فقدت ذاكرتها فلم تعد تتذكّر أين كانت في تلك الساعات الثماني والأربعين. ولعلها كانت تعاني من مشكلة أخرى. مشكلة تجعلها تتصرف بغرابة فائقة. يجب علي التحدث مع أمي كي تأخذها إلى المستشفى. عساهم قادرين على شفائها وإعادتها إلى حالتها السابقة –لتعود آني من جديد.

أراحتني الفكرة قليلاً، رغم أنني لم أكن متأكداً من أنني أصدِّقها. لهذا الغرض ربما وُجدت الكنائس. لتمنحنا الراحة والسكينة، حتى عندما نكون، في قرارة دواخلنا، نعرف أنها مجرد مجموعة من الأكاذيب.

جلستُ على المقعد المخلخل في المقبرة ونظرتُ إلى الخارِج من فوق الشواهد الرمادية المائلة. انحنيت إلى الأمام وسندتُ كوعيَّ على ركبتيَّ، وأدخلتُ قدميَّ تحتي فشعرتُ بوجود شيء ما تحت المقعد. انحنيتُ وأخرجتُها. كانت حقيبة، وقد عرفت على الفور أنها لكريس، ففي حين أن بقيتنا كنا نملك حقائب أديداس أو بوما، كان كريس يملك حقيبة كبيرة قديمة بلا علامة تجارية مغطاة بصور لاصقة لمسلسل « *rotcoD* *ohW* » وفيلم «*kerT ratS* ».

في تلك المرة، كان هناك شيء آخر مُلصقاً عليها –مظروف مُثبَّت بشريط لاصق على الجزء العلوي من الحقيبة كُتب عليه اسمي. مزَّقتُ اللاصق وأخرجت المظروف وفتحته فوجدت في داخله ورقة مُزِّقتْ من دفتر مدرسي. كانت مملوءة بخط كريس الفوضوي:

جو، الأشياء الموجودة في هذه الحقيبة لك. سوف تعرف ما يجب عليك فعله. الأشياء الأخرى، أعتقد أنك قد تحتاجها في يوم ما. لست واثقاً لماذا. في حال دعت الضرورة.

كل هذا ذنبي أنا. أتمنى لو أنني لم أجدها أبداً. ذلك المكان سيئ. أعرف ذلك الآن. لعلك تعرف ذلك أيضاً.

آسف. بشأن آني. بشأن كل شيء.

حدَّقتُ في الرسالة كما لو أن الكلمات كانت ستعيد ترتيب نفسها لتشكِّل شيئاً منطقياً. لماذا تركها من أجلي؟ ولماذا لم يأتِ بنفسه؟

فتحتُ سحّاب الحقيبة. الشيء الأول الذي وجدته هو كومة من المفرقعات النارية الكبيرة –من النوع الذي يحتاج إلى بطاقة هوية لشرائها، مالم تكن بارعاً في إيجاد طريقة للحصول على مثل هذه الأشياء.

عبستُ وغصتُ أعمق فوجدتُ شيئاً آخر في الأسفل. شيء أثقل ملفوف بعناية في كيس بلاستيكي شفاف. انقبضتْ معدتي عندما أخرجته. عرفته على الفور. حدَّقتُ فيه قليلاً ثم أعدته إلى الحقيبة وأغلقت السحّاب.

كان منزل كريس يقع في الطرف الآخر من القرية. وضعتُ الحقيبة على كتفي وبدأت المشي. كنت بحاجة للتحدث معه على نحو عاجل، لسبب لم أكن أدركه. انتابني ذلك النوعِ من الانقباض في المعدة الذي تشعر به عندما تكون متأخراً عن شيء هام. فحششتُ الخطى. ظلّتْ أجزاء من الرسالة تحوم في ذهني:

ذلك المكان سيئ.

مررتُ بالمقعد حيث ضغطتْ ماري شفتيها على شفتي. وفجأةً انبثق شيء ما في ذهني، مثل ظل أسود على جدران دماغي، ثم اختفى ثانيةً.

ربما يمكنك التحدث معه.

كانت بوابة المدرسة تُترَك مفتوحة في ذلك الوقت إلى حين انتهاء جميع النوادي، التي تجتمع بعد الدوام المدرسي، وانصراف المعلِّمين. اختصاراً للمسافة، كان يتوجّب علي المرور عبر حرم المدرسة والخروج من

خلال السياج في الطرف الآخر للوصول إلى منزل كريس –في حال لم يرني الحارس.

عبرتُ بسرعة ساحة ركن السيارات، ومررت بالجناح العلمي باتجاه المبنى الإنكليزي، الذي انتصبَ أمامي مثل نصب صخري عمودي داكن في السماء الفضية. وبينما كنت أنعطف حول الزاوية صفعتْ هبَّة هواء وجهي وطيَّرتْ شعري، فارتعشتُ. ثم توقفت. ظننتُ أنني سمعتُ أصواتاً حملها الهواء. هل كانت آتية من الملاعب؟ لا. كانت أقرب. نظرتُ حولي... ثم... نظرتُ إلى الأعلى.

رأيته. كان يسقط. أحسستُ باختراق جسده للهواء، وسمعتُ صوت الخبطة المكتومة عند ارتطامه بالأرض. كانت المسافة ما بينهما تبدو كأنها لا نهائية ومع ذلك استغرقتْ طرفة عين. تساءلتُ إن أحسَّ كريس بالارتطام النهائي.

كان الهرب هو الدافع الغريزي الأول الذي انتابني حينئذ. أن أهرب بجلدي. لكنني لم أستطع. لم أستطع تركه ممدداً هناك ببساطة. ماذا لو كان ما يزال حياً؟

اقتربتُ منه على ساقين مرتعشتين. كانت عيناه مفتوحتين ومن زاوية فمه ينساب جدول صغير من الدماء، وتنتشر تحته بقعة أكبر من الدماء، مشكِّلةً هالة قرمزية حول شعره الأشقر. الغريب في الأمر هو أنه – ربما للمرة الأولى في حياته القصيرة– بدا هادئاً، كما لو أنه وجد أخيراً الشيء الذي كان يبحث عنه دائماً.

تركتُ الحقيبة تنزلق من كتفي ثم ركعت بجانبه على الأرض الإسمنتية الباردة في الدفء المتلاشي من النهار. انسابت الدموع على خدَّيَّ بينما كنتُ أمسِّد برفق شعره الأشعث الناعم وأقول له إن الذنب ليس ذنبه.

في وقت لاحق، نهضتُ ونفضتُ التراب عن بنطالي ثم مشيت نحو مقصورة هاتف عام. اتصلتُ بالإسعاف وأخبرتهم بأن شاباً وقع. لم أخبرهم من يكون، ولم أخبرهم عن اسمي.

ولم أخبرهم أيضاً –أو أي شخص آخر– بما رأيت سوى ذلك في ذلك اليوم.

شخص آخر خرج راكضاً من المبنى الإنكليزي. لم يكن أكثر من ظل داكن، لكنني عرفته –حتى في ذلك الوقت.

عليه الاهتمام بأمره.

ستيفين هيرست.

أنا أعدُّ الخطط في اليوم التالي. لستُ من الأشخاص الذين يؤمنون بالتخطيط مسبقاً. هذا ليس من طبيعتي. لقد رأيت بأم العين كيف يكون التخطيط منبئاً بكارثة –دعوةٌ للقدَر لكي يعبث معك.

أما في هذا الأمر، فأنا بحاجة لأن أكون مستعداً. أنا بحاجة لمنهج عمل. وبما أنني عاطل عن العمل، فليس لدي الكثير لأفعله.

غادر بريندان المنزل قُبيل الثانية من صباح اليوم. عرضتُ عليه الغرفة الإضافية لكنه رفض.

«لا أقصد الإساءة، لكن هذا المكان يصيبني بالخوف».

«كنت أعتقد بأنك لست من النوعِ الذي يؤمن بالخرافات».

«أنا أيرلندي. بالتأكيد أؤمن بالخرافات. إنه موجود في الدي إن إي الخاص بنا، إضافة إلى الشعور بالذنب». ارتدى معطفه. «لقد حجزتُ غرفة في نزل على الشارعِ».

المزرعة. يخطر في ذهني شيء عابر قبل أن أتمكن من إدراكه كنهه. أظن أنه شيء هام. لكنه، مثل معظم الأشياء الهامة في حياتي، اختفى الآن.

أعدُّ قهوة مركَّزة ببقايا الماء في الغلّاية وأدخِّن سيجارتين منعشتين قبل أن أشرع بالعمل. أجلس بجانب طاولة المطبخ الصغيرة وأبدأ بتدوين بعض الملاحظات. لا يستغرق الأمر طويلاً فخطتي ليست معقدة. لا أعرف تماماً لماذا أحسستُ بالحاجة لكتابتها أساساً، لكنني معلِّم في نهاية الأمر، وأجد راحةً وتوازناً في الكلمة المكتوبة. قلم وورقة. شيء ملموس للتشبُّث به. أو لعل الأمر لا يعدو كونه مجرد مماطلة أو تأجيل. بخلاف الخطط، أنا بارع في المماطلة.

وبعد ذلك، أتناول هاتفي وأجري بعض المكالمات.

الأولى تذهب إلى بريد صوتي –أترك رسالة. والثانية أَعْقَدُ بقليل، ولست واثقاً بأنها ستردُّ أساساً. لقد انتهتْ مهلتي. ثم أسمع صوتها. أشرح

لها ما أنا بحاجة إليه. لا أعلم إن كانت ستوافق ولست في موقع يؤهلني لأطلب معروفاً.

تتنهَّد غلوريا ثم تقول: «أنت تدرك أن هذا سيستغرق وقتاً. صحيح أنني أملك علاقات جيدة لكنني لست أمك الروحية اللعينة».

أقول وأنا أسحب سيجارة: «كم من الوقت؟»

«ساعتان».

«شكراً»، لكن الخط انقطع مسبقاً. أحاول ألا أعتبر ذلك نذير شؤم.

والاتصال الثالث لرقم دولي. تطلَّب هذا الرقم شيئاً من البحث. لعله ليس ضرورياً تماماً، ولكن بما أنني زرعتُ البذور فيجب علي أن أعرف. أتحدَّث بصوت احترافي إلى أقصى درجة ممكنة شارحاً من أكون وما أود التأكد منه ثم أصغي لموظفة الاستقبال الأميركية شديدة التهذيب

وهي تقول لي بأن أغرب عن وجهها بطريقة أميركية فائقة التهذيب. أتقبَّل تمنياتها بيوم سعيد –مع أن ذلك يبدو مُستبعَداً جداً– وأنهي المكالمة.

أحدِّق في الهاتف لبعض الوقت ثم أنهض لأعدَّ مزيداً من القهوة. سأجري الاتصال الأخير لاحقاً. هذه ليست مماطلة، لكنني لا أريد أن أمنحه الكثير من الوقت للتخطيط أو لجمع أوغاده.

بينما أنتظر غليان القهوة يرنُّ هاتفي فأتناوله.

«مرحباً».

«وصلتني رسالتك».

«ثم؟»

«لدي حصص».

«ألم تتغيَّب عن المدرسة أبداً؟»

«هل تريدني أن أتغيَّب عن المدرسة؟»

«ليس بصورة منتظمة. بعد ظهر هذا اليوم فقط. إنه أمر هام».

بعد تنهيدة عميقة يقول: «ألهذا السبب طردوك؟»

«لا. كان ذلك لسبب أشد سوءاً بكثير».

أنتظر الرد.

«حسناً».

أجلس على العشب غير المشذَّب محدِّقاً في المنظر البشع. أقول في داخلي: مكان كهذا لن يكون جميلاً أبداً. ازرعْ ما شئت من الشجيرات أو الورود البرية، وابنِ ما شئت من حدائق لعب الأطفال والمراكز السياحية. ثمة شيء في هذا المكان سيظل دائماً متعنِّتاً ومُجدباً.

مكان كهذا لا يريد أن يُستصلَح. إنه سعيد بكونه مهجوراً وساكناً وميتاً. مقبرةٌ لمصادر رزق ضائعة، وأحلام ضائعة، وغبار فحم، وعظام. نحن لا نقشط إلا قشرة هذه الأرض، لكنها تملك الكثير من الطبقات. وفي بعض الأحيان، يجب عليك ألا تحفر عميقاً.

«أنت هنا».

ألتفت فأرى ماركوس واقفاً خلفي على منحدر التلة الصغيرة.

«أجل. وأبشع بمرتيْن».

لا يتبسم. ينتابني شعور بأن الفكاهة –بأن يكون سعيداً– ليست من ضمن ذخيرته العاطفية. ولكن، لا بأس في ذلك فالسعادة مبالغ في تقديرها كثيراً. إنها، قبل كل شيء، قصيرة العمر. إذا اشتريتَها من موقع أمازون، فإنك ستطلب استرجاع مالك. انكسرتْ بعد شهر ويستحيل إصلاحها. وفي المرة التالية ستجرِّب البؤس –من الواضح أن هذا الشيء اللعين سيدوم إلى الأبد.

يتقدَّم نحوي ويقف بارتباك بجانبي ثم يقول: «ماذا تفعل؟»

«أستمتع بالمنظر، وآكل هذه»، أريه لوح العلكة التي ألوكها، «أتريد واحدة؟ اشتريتُ اثنتين».

يهزُّ رأسه قائلاً: «لا، شكراً».

أنظر إلى اللوحِ الوردي اللامع ثم أقول: «كان لدي صديق معتاداً على أكلها. أنت تذكِّرني به».

«بأي شكل؟»

«لم يكن منسجماً مع محيطه. كلانا كنا كذلك. كان يحب البحث عن أشياء معينة. وإيجادها. أعتقد أنك قد تكون جيداً في هذا الأمر أيضاً يا ماركوس. مثلما وجدتَ طريقة للمرور عبر البوابة الأمنية في المدرسة».

لا يردّ.

«هل أخبرتَ الآنسة غريسون بأن جيريمي وجد الكهف؟»

«لقد وجدها بالفعل».

«لا». أهز برأسي نافياً. «لا أعتقد ذلك. يجب على بعض الأماكن أن تريد أن تُكتشَف. ويتطلَّب الأمر شخصاً مميزاً لفعل ذلك. ليس شخصاً مثل هيرست بل شخص مثلك أنت».

يفكِّر قليلاً ثم يقول: «كان هيرست يعلم بشأن الكهف. الكثير من الأولاد سمعوا إشاعات بهذا الشأن. وعلم بأنني جئت إلى هنا. أرادني أن أساعده في البحث عن طريقة للدخول إليه».

أهزُّ برأسي: «وهذا ما فعلتَه».

«لقد وجدته بالصدفة إلى حد ما».

«أجل. يحدث ذلك».

يجلس بجانبي ثم يقول: «وأنتَ تريدني أن آخذك».

«ليس تماماً. أنا بحاجة لأن تأخذني».

«قلتَ إن الأمر هام».

«صحيح».

يبدو كأنه يلاحظ حقيبة الظهر للمرة الأولى: «ماذا يوجد فيها؟»

«ربما من الأفضل لك ألا تعلم».

بعد لحظة صمت يقف ويقول: «لنذهب».

أثناء نزولنا على التلة يقول: «أتعلم؟ لا ينبغي لك أن تعرض سكاكر على أولاد غرباء».

لعله لا يفتقر كلياً إلى حس الفكاهة.

لا يوجد غطاء هذه المرة بل شبكة شبه دائرية من القضبان المعدنية تحت حرف صخري منخفض. القضبان المعدنية صدئة وتماثل تقريباً لون الأرض وهي مغطَّاة بأعشاب طويلة وأشواك. يبعد ماركوس الأعشاب بيده ويزيل بحذر الشبكة المعدنية. إنها ثقيلة ولا أرى أية علامات حفر في الأماكن التي فُتحتْ فيها.

في مرحلة ما، حاول القرويون إغلاق جميع المداخل، لكنهم لم يتمكَّنوا من إسكات المنجم. لم يتمكنوا من منعه من النداء. النداء إلى كريس، وماركوس.

أُخرج المصباح الكشّاف الذي اشتريته وأوجِّهه إلى داخل الحفرة. هذا النفق أقل انحداراً من ذاك الذي دخلته عندما كنت فتىً، لكنه ضيِّق جداً. بالكاد يبلغ قطره سبعين سنتمتراً. سوف أضطر إلى الزحف. فكرة غير مريحة.

يقول ماركوس: «سوف تستغرق نحو خمس دقائق حتى يتوسّع وتبلغ بعض الدرجات. ستوصلك إلى الأسفل».

«شكراً».

«هل ستمنع الناس من النزول إلى الأسفل؟»

«هذه هي الخطة. هل أنت موافق على ذلك؟»

«أعتقد ذلك». يحدِّق فيَّ. «أتعلم؟ أنت معلّم غريب».

«أنا إنسان غريب. لكن الغريب ليس سيئاً دائماً. تذكَّرْ ذلك».

يهزُّ رأسه مؤيِّداً. ولستُ متأكداً، ولكن يبدو لي كأن ابتسامةً صغيرة ظهرت بشكل عابر على شفتيه قبل أن يستدير ويمضي في طريقه عائداً إلى القرية.

تصيبه الشمس الفاترة عند قمة التلة فتضيء شعره. يُخيَّل إلي لوهلة كأنه شبح فتىً عرفتُه ذات يوم. وبعد ذلك يبدأ بالنزول ويختفي الشبح والفتى معاً.

تقدُّمي في النفق بطيء ويشبه مشي سرطان البحر. ساقي المعطوبة تنبض بشكل مستمر. أتوقَّفُ عدة مرات وأفكِّر في العودة، لكن العودة ذاتها تمثِّل مشكلة، لذا فإنني أنحني وأواظب الزحف، مقاوماً رهاب الأماكن الضيقة المتنامي في داخلي، ومنتفضاً كلما ارتطمتْ حقيبة ظهري بسقف النفق.

وبعد ما بدا لي أنها عدة عقود –خُدشتْ خلالها ركبتاي واكتسب عمودي الفقري تقوُّساً دائماً– يتوسَّع النفق بما يكفي لكي أقف. هنالك دَرجات شديدة الانحدار تقود إلى ما يبدو أنه جدار صخري صلب. أوجِّه

المصباح نحوه فيكشف الضوء فجوة ضيقة شبه مخفية في أعماق الظلال. طريق آخر للدخول، أو الخروج. وهذا يفسِّر كيفية اختفاء آني، وعدم قدرتي على إيجادها. أحشر نفسي فيها.

خمسة وعشرون عاماً تسقط فجأة حين أجد نفسي واقفاً في الكهف الذي دخلته في طفولتي. إنه يبدو أصغر قليلاً –قلَّصه منظوري كبالغ. والسقف ليس عالياً كثيراً ولا يشبه سقف كنيسة. بيد أن كل هذا لا يمنع فروة رأسي من التجمُّد.

يوجد بضع جماجم ملقية على الأرض إلى جانب علب وودبيكر [نوع من السايدر المحلّى] مجعَّدة وأعقاب سجائر. ما تزال الثقوب التي أحدثها هيرست وفليتش بنوبة تخريبهما الرعناء موجودة في الجدران، لكن الصخر في الأعلى ما يزال مليئاً بعظام صفراء وبيضاء. أحدِّق فيها وأقول في داخلي: إنها لأشخاص لم يعودوا. تُركتْ لتُستخدَم كديكورات بشعة، أو ربما لنوع ما من الأضاحي.

أتساءل عن عمر هذا المكان. مئات أم آلاف السنين؟ المذهل في الأمر أن أعمال التنقيب لم تدمّره. أم أن العكس هو الصحيح؟ أفكِّر في «كارثة منجم آرنهيل»، التي لم تُفسَّر بصورة كاملة رغم كل التحقيقات، ولم تُلقَ المسؤولية في حصولها على أحد. وماذا بشأن الحوادث الأخرى؟ لابد من وجود أنفاق تابعة للمنجم أسفل الكهف. هل اقترب العمال كثيراً منه؟ هل هدَّدوا الحفريات القديمة؟ مكان موجود منذ قرون، قابع بسكون –منتظراً.

أتجوَّل على مهل في أرجاء الكهف، متنفِّساً بعمق، محاولاً تهدئة نفسي. إنه مجرد كهف. لا يمكن للموتى أن يؤذونا. العظام مجرد عظام. والظلال ليست سوى ظلال. بيد أنها ليست مجرد ظلال. إنها الجزء الأعمق من الظلام. والجزء الأعمق من الظلام هو المكان الذي تختبئ فيه الوحوش.

يجب أن أفعل ذلك بسرعة.

أُخرج الشيء الذي اشترته لي غلوريا من حقيبتي بيدين مرتعشتين وزلقتين بسبب العرَق. أمسك به بطريقة خرقاء، وأشتم، ثم أضبط نفسي. يدي المضمَّدة لا تساعدني. يجب أن أفعل ذلك بطريقة صحيحة. إن أخطأتُ في هذا الأمر فسأفتِّت نفسي. أضعه بحرص شديد في مركز الكهف. ثم أتراجع. وأرغم نفسي على الاستدارة. يمكنني سماعها تسقسق الآن. إنه إنذار. تهديد. أحشر نفسي عبر الثغرة وأبدأ بالصعود بأقصى سرعة ممكنة على الدرجات. أقول لنفسي بأن أكون حذراً، لأن العجلة والخطوات الطائشة هي كل ما تريده. أي تعثُّر –كما حدث في السابق– سيعيدني سقوطاً إلى الأسفل.

أصل إلى النفق وأبدأ الزحف داخله. حقيبة ظهري فارغة الآن على الأقل. التفكير في ما كنت أحمله –وفي كوني لا أضمن أنه سيعمل حسب الخطة– يدفعني للإسراع في الخروج.

أخرج ككتلة مبللة مرتعشة رخوة الساقين إلى الهواء المنعش وأنهار على الأرض الصخرية.

أبقى على هذا الوضع بعض الوقت، لاهثاً، تاركاً الهواء يُبرِّد العرق على جسدي. وأخيراً، أجلس وأُخرج علبة سجائري من جيبي وأُشْعل واحدة وأستنشقها كما لو كانت قناع أوكسجين. أفكِّر في إشعال واحدة أخرى من عقب الأولى ثم أتحقق من ساعتي وأعيد السيجارة إلى العلبة رغماً عني.

بدلاً منها، أُخرج هاتفي. لم يكن الحصول على رقمه صعباً. أضغط على «اتصال» وأنتظر. وفي الرنّة الثالثة يجيب. الرنَّة الثالثة بصفة شبه دائماً. ألم يلاحظ ذلك؟

«ألو».

«هذا أنا».

بعد لحظات من الصمت، أقول وأنا أشعر إلى حد كبير مثل شخصية في فيلم إثارة رديء: «أعتقد أننا يجب أن نتحدث».

لقد حقَّق شيئاً كبيراً لنفسه. هذا ما نقوله عندما نرى مظهراً من مظاهر ثراء أو نجاح شخص ما، أليس كذلك؟ في العادة يكون منزلاً كبيراً، أو بذةً غالية الثمن، أو سيارة جديدة لامعة.

غريب كيف نقيس الأشياء. كأن القدرة على شراء مبنى ضخم أو أكثر وسائل الجلوس في الازدحام المروري استهلاكاً للوقود هي أبرز مظاهر النجاح خلال سنواتنا القليلة على هذا الكوكب. بالرغم من كل تقدمنا، ما زلنا نحكم على الناس وفق مقاييس الأحجار والملابس والقوة الحصانية.

على أي حال، بحسب هذه المقاييس ذاتها، أعتقد أن ستيفين هيرست حقق لنفسه شيئاً كبيراً حقاً.

منزله عبارة عن منزل ريفي محوَّل يبعد نحو نصف ميل عن آرنهيل. وتحويله من النوع الذي يسلب الشخصية الأصلية للمبنى القديم

ويدوس عليه بصورة منهجية عبر إضافة كمية ضخمة من الفولاذ والزجاج والأبواب اللعينة القابلة للطي.

في هذا المساء، توجد سيارة واحدة فقط على الطريق الفرعي المفروش بالحصى –رينج روفر جديدة. ماري وجيريمي في نوتنغهام من أجل شراء أحذية جديدة وتناول البيتزا. يمكنني رؤية حوض مياه ساخنة وبركة سباحة في الجزء الخلفي من المنزل. لا يستطيع المرء امتلاك حوض مياه ساخنة وبركة سباحة من أجور عضو في المجلس المحلي فقط.

ربما لهذا السبب بقيتْ ماري. بيد أن هذا لا يعني شيئاً في نهاية المطاف، لأن سنوات الاستمتاع بالحوض الساخن وبركة السباحة أقل مما كانت تتخيَّل. ولربما كان من الأفضل استغلال الزمن في الاستمتاع ببعض الحرية بعيداً عن هذا المكان. أعتقد أن هذا يعتمد على درجة رغبة المرء في الأبواب القابلة للطي ودرجة استعداده للتضحية من أجلها.

أتحقق من ساعتي – 8.27 مساء. أتردد لحظة أخرى قبل أن أرغم نفسي على قرع جرس الباب.

أسمع رنيناً بعيداً في الداخل. وبعد انتظار وجيز أسمع خطوات أقدام. ومن ثم يُفتَح الباب.

يمكنني القول من المستحيل أن يهرم المرء في بضعة أيام. ولكن، بوسعي أن أُقْسم بأن هذا ما حدث تماماً. يبدو هيرست تحت وهج الضوء الأمني المبهر رجلاً أكبر سنّاً بكثير –بل إنه يبدو كأنه بلغ سن التقاعد. بشرة وجهه مرتخية مثل خرقة رطبة وعيناه حمراوان تغطيهما طيّات جلدية رمادية.

بدون أي عبارة ترحيب أو مدِّ يده لمصافحتي، يقول: «مكتبي من هنا». ثم يستدير تاركاً لي مهمة إغلاق الباب ورائي.

ليس المنزل كما توقعته تماماً. إنه أكثر ذوقاً مما اعتقدتُ، وإن كان ديكوره يشي بسعيٍ للتشبُّه بالطبقة الراقية. أشعر بأن ورق الجدران اللامع والزهريات الفارسية المقلَّدة تشير إلى لمسات ماري.

يقودني عبر الممر. أرى أمامي لمحة من غرفة جلوس كبيرة مصممة لتكون أيضاً غرفة طعام وفق التصميم المعماري المفتوح. وعلى

يميني مطبخ أنيق لامع من الكروم والرخام. يفتح هيرست باباً على الجهة اليسرى. إنها غرفة مكتبه. ينتابني شعور داخلي بالاستياء. يملك هيرست كل هذا، رغم كل ما فعله.

وزوجة تموت من السرطان.

أتبعه إلى داخل الغرفة. بالمقارنة مع بقية المنزل، يبدو المكتب أكثر بساطة. تهيمن على الغرفة طاولة مكتب كبيرة مصنوعة من خشب البلوط، وبضع صور بالأبيض والأسود تزيِّن الجدران، وخزانة زجاجية تعرض مجموعة من الكؤوس الكريستالية وزجاجات من الشراب الفاخر.

«أتشربْ؟» يتجه نحو الخزانة ثم يستدير نصف استدارة.

«شراب؟»

«مناسب بالنسبة لي».

يصبُّ كمية كبيرة في كأسين كريستاليين متلألئين ويضعهما على طاولة المكتب.

«اجلسْ».

يشير إلى مقعد أمام المكتب فأضع الحقيبة على الأرض بجانب المقعد وأنتظر هيرست ليجلس على كرسيّه الجلدي الفاخر عالي المسند ثم أجلس على مقعدي الذي يضعني في مستوى منخفض أكثر منه. أياً تكن الأشياء التي تجعله يشعر بالتفوُّق، فإنني أملك الأوراق الرابحة.

نظلُّ صامتيْن وساكنيْن لوهلة ثم نمدُّ يديْنا، في الوقت نفسه، إلى كأسينا.

«ماذا تريد؟»

«أعتقد أنك تعرف».

«أتيتَ لترجوني كي أعيدك إلى عملك؟»

أضحك ثم أقول: «تودُّ ذلك، صحيح؟»

«ليس تماماً. ما أودُّه هو أن تذهب إلى بيتك. وتدعنا جميعنا بسلام».

«بعض الناس لا يستحقون السلام».

«لطالما كنتَ تظنَّ بي سوءاً».

«لطالما كنتَ تفعل الأسوأ».

«كنتُ فتى صغيراً. كلنا كنا كذلك. وكان ذلك منذ زمن طويل».

«كيف حال ماري؟»

أشعر أن السؤال يزعجه.

«لا أريد التحدث بشأن ماري».

«أنتَ الذي أرسلتَها لتراني».

«في الحقيقة، تلك كانت فكرتها».

ليس هذا ما قالَتْه لي. ولكن، هذا هو هيرست. الكذب طبيعي عنده مثل التنفس.

«كانت تظن أنها قادرة على إقناعك بأن تكون متعقِّلاً. وبأن تتجنَّب أية أشياء مؤسفة أخرى».

«مثل إرسال أولاد فليتش ليضربوني؟ تخريب المنزل؟ هذا النوع من الأشياء المؤسفة».

ترتسم ابتسامة صغيرة حادة ثم يقول: «أخشى أنني لا أعرف عما تتحدث».

«لم يجدوه، أليس كذلك؟ أراهن أن ذلك أغضبك».

يهزُّ برأسه ويرتشف من كأسه ثم يقول: «تبدو كأنك تظن أنني أبالي بالأشياء التي حدثت في ذلك الحين أكثر مما أفعل في الواقع».

«كنتَ تكترث بما يكفي لتلحق بكريس إلى سطح المبنى في ذلك المساء. ماذا حدث؟ هل تشاجرتهما؟ هل دفعتَه؟»

يهزُّ برأسه كما لو أنه يتعامل مع معتوه مثير للشفقة ثم يقول: «هل سمعتَ نفسك؟ أتعلم؟ أشعر بالشفقة عليك. لقد بنيتَ لنفسك نوعاً ما

من الحياة. كان لديك عمل، ومع ذلك أنت مستعد لإهدار كل ذلك. من أجل ماذا؟ تسوية حسابات قديمة؟ لتبحث عن إجابات غير موجودة؟ انسَ كل ذلك وحسب. ارحل الآن قبل أن تجعل الأمور أشد سوءاً بالنسبة إليك».

أتناول كأسي وأشرب جرعة طويلة بطيئة.

ثم أقول: «لقد رأيتُك. كنتَ هناك».

«لم أؤذِ كريس. حاولتُ إنقاذه».

«صحيح».

«حاولتُ إقناعه بالنزول، لكنه كان قد فقدَ عقله تماماً. كان يثرثر. أشياء مجنونة. ثم قفز. وهربتُ، أعترف بذلك. لم أرد البقاء هناك، وجعل الناس يقفزون إلى الاستنتاجات الخاطئة».

أتساءل إن كان اختياره لكلمة «يقفزون» قاسياً على نحو مقصود. لكنني لا أظن ذلك. ولا أظن أنه يكذب أيضاً. في أعماقي، لستُ متأكداً

تماماً من أنني صدَّقتُ في أي يوم أنه دفع كريس. أردتُ تصديق ذلك، لأنه كان يمنحني سبباً آخر لكرهه. وربما، منحني مَخْرَجاً أيضاً. إذا كان كريس قد قفز من تلقاء نفسه، فهذا يعني أنني خذلته، كما خذلتُ آني تماماً.

لكنني، بالطبع، لا أصدِّق أن هيرست حاول إنقاذ كريس. فالشخص الوحيد الذي يكترث هيرست لإنقاذه هو نفسه. وهذا ما أعتمد عليه.

«ما الذي يخيفك في وجودي هنا؟»

«لست خائفاً. يشعرني بالاشمئزاز فقط».

«أجل، وما يثير الاستغراب هو أنك لا تبدو في حالة جيدة».

«أنا منهك. يفرض السرطان ضريبته، على الجميع. هل أنت سعيد؟ ليست تلك الحياة المثالية في نهاية المطاف. هل هذا ما تريد سماعه؟»

أحدِّق فيه. لعله محق. لعل الأمور لم تسرْ كما يشتهي. أفكِّر في ما قالته الآنسة غريسون:

إنه يائس... أنت الشخص الوحيد القادر على منعه.

أنا عازم على فعل ذلك. لكنه ليس سبب وجودي هنا. أولاً، لدي عمل آخر. عمل يفهمه هيرست –إنقاذ نفسي.

أرفع الحقيبة وأضعها على الطاولة. أرى عينيه تتوسّعان. يبدو أنه عرف الحقيبة الكبيرة المهترئة التي لا تملك علامة تجارية، والملصقات الباهتة والمجعّدة لمسلسل « *ohW rotcoD* » وفيلم « *ratS kerT* ».

«ما هذه بحق الجحيم؟»

«أعتقد أنك تعرف. ولكن من أجل أعضاء هيئة المحلّفين» – أفتحها وأضع محتوياتها بحرص أمامه– «إنها العتلة التي ضربتَ بها رأس

أختي، وربطة عنقك المدرسية، مغطاتان بدمها والدي إن إي الخاص بك».

يتحرَّك فمه دون أن يفتحه. يلوك هذه المعلومة مثل قرص دواء مرّ، ثم يقول: «وماذا يُفترَض بهذا أن يثبت؟ لقد وُجدتْ أختك. حيَّة».

«كلانا نعرف أن هذا ليس ما حدث».

«حاول أن تخبر هذه القصة للشرطة. أنا واثق بأنهم سيجدون سترة مجانين مريحة وجميلة لوضعك فيها».

«عظيم. جرِّبْ هذه. لقد اختفتْ أختي لمدة يومين. ثمان وأربعون ساعة. أين كانت؟ ماذا ستفعل الشرطة برأيك إن أُعطيتْ هذه الأدلة؟ أدلة تشير إلى أنك خطفتها؟ آذيتها؟ كيف سيكون وقع هذا على القرويين، وعلى زملائك أعضاء المجلس؟»

يحدِّق في العتلة وربطة العنق المدماة ثم يرفع عينيه ويقول: «إذاً، سأسألك مرة أخرى –ماذا تريد؟»

«ثلاثون ألفاً».

أنتظر. ومن ثم يحدث شيء لوجهه. كنتُ أتوقّع غضباً، إنكاراً، وربما تهديدات، لكنه بدلاً من كل ذلك، يسند ظهره على كرسيه ويبدأ بالضحك.

لم يكن هذا من بين السيناريوهات التي فكَّرتُ فيها. أنظرُ بعصبية نحو النافذة. لا يوجد إلا الظلام في الخارج. أشعر بتوتري يتنامى.

«هل تريد أن تشاركني النكتة؟»

يقوِّم جلسته ويستعيد هدوءه ثم يقول: «إنه أنت. لطالما كنتَ أنت».

«حسناً». أعيد العتلة وربطة العنق إلى داخل الحقيبة. «لعلي سآخذ هذه إلى الشرطة الآن».

«لا. لن تفعل».

«تبدو واثقاً جداً من ذلك».

«صحيح».

«إن حاولتَ منعي، أو كنتَ تخطط لدعوة مجرميك، فعليّ تحذيرك–»

«أوقفْ هذا الهراء. لا نيّة لدي لإيذائك. أترى؟ هذه هي مشكلتك. أنت دائماً تبحث عن شخص ما لتتّهمه. شخص لتحمِّله الملامة. ولم تتوقَّفْ يوماً للتفكير في أنك جلبتَ كل هذا لنفسك».

«لا أعلم ماذا تقصد».

«إنني أعلم بشأن اصطدام السيارة».

«ماذا تعلم؟ كان حادثاً. أختي وأبي توفيا فيه».

«أين كنتم ذاهبين في تلك الليلة؟»

«لا أذكر».

«هذا ملائم».

«إنها الحقيقة».

«خمَّنت الصحف بأن شيئاً ما حدث حتماً، وبأن والدك كان يقود السيارة نحو المستشفى. قبل وقت ليس بطويل من الحادث حاول شخص ما الاتصال بـ 999 من منزلكم».

أتساءل كيف عرف هذا الأمر، أو الأهم من ذلك ربما، لماذا حاول معرفة ذلك.

«لماذا لا تصل إلى بيت القصيد وحسب؟»

«لم يصدم والدك سيارتكم في تلك الليلة بالحادث».

أنت مخطئ. كانت هناك أدلة على أنه حاول إيقاف السيارة بالفرامل. حاول منع الاصطدام».

«أوه، لا أقول إنه لم يكن حادثاً. لكن والدك لم يتسبَّب به».

يبتسم فأشعر بمنزلي المصنوعِ من الورق –أوراقي التي كادت أن تكون رابحة– ينهار ويسقط على الأرض.

«أنت الذي تسبَّبتَ به يا جو. كنتَ أنت من يقود السيارة».

الماضي ليس حقيقياً. إنه ببساطة قصة نخبرها لأنفسنا.

وفي بعض الأحيان، نحن نكذب.

كنت أحب شقيقتي جداً. لكن الشقيقة التي أحببتها اختفتْ. كنتُ أراها تمشي في أرجاء المنزل بمشيتها المتمايلة الغريبة التي اكتسبتها حينئذ –كأن مقاس جسدها لم يكن ملائماً لها– لكنني لم أكن أرى آني. كنتُ أرى طفلةً تبدو مثل آني، وتتحدث بصوت يشبه صوت آني. لكنها كانت مزيفة. نسخة سيئة.

أردتُ أحياناً أن أصرخ في والديَّ وأقول لهما: ألا يمكنكما أن تريا؟ إنها ليست آني. لقد حدث شيء ما واختفت. وقع خطأ. خطأ فظيع، وأُرسل هذا الشيء بدلاً منها. شيء يرتدي جلدها وينظر من خلال عينيها، لكنكَ إن نظرتَ مجدداً، فلن ترى آني في داخلها.

لكنني لم أفعل لأن هذا كان سيبدو جنوناً. وكنت أعرف بأنه آخر شيء يودُّ والداي التعامل معه. لم أرغب في أن أكون القشة التي تكسر ظهر عائلتنا. كان يتوجَّب علي حل هذه المشكلة. لذا، رفعتُ سمّاعة الهاتف ذات يوم، قبل المدرسة، واتّصلت بعيادة الطبيب. خشَّنتُ صوتي قدر الإمكان وقلتُ إنني السيد ثورن وأريد تحديد موعد لابنتي، فقالت المساعِدة، النشيطة والكفوءة –ولكن ضعيفة الملاحظة بوضوحٍ– إنها تستطيع وضعنا في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم فشكرتها وقلت إن هذا مناسب جداً.

عندما عدت من المدرسة قلت لأبي إنني تذكَّرتُ للتو أن أمي قالت إنها أخذت موعداً لآني من عيادة الطبيب. لحسن الحظ، كان يشرب علبته الثانية فقط. تذمَّرَ في البداية فقلت له لا بأس، بوسعك إخبار أمي إنك قررتَ إلغاء الموعد. وهنا نجحتْ الحيلة. لم يكن أبي يريد المجازفة بمعارضة أمي وإثارة غضبها. وهكذا ارتدى سترته ونادى لآني كي تنزل من غرفتها. قلتُ له إنني سأذهب معهما أيضاً. وفي الطريق اشتريت بعض أقراص النعناع وقدَّمتُ واحدة لأبي فأخذ اثنتين.

كان الطبيب رجلاً زائد الوزن ذا أنف مليء بالأوردة الحمراء وشعر خفيف جداً فوق رأسه اللامع. وكان ودوداً جداً رغم أنه كان يبدو منهكاً. لقد لاحظتُ أن حقيبته كانت مجهَّزة سلفاً بجانب قدميه –أي أنه كان يستعد للذهاب إلى المنزل.

فحص آني وسلَّط ضوءاً في عينيها، ونقر على ركبتها. أما آني فكانت جالسة على الكرسي بتصلُّب كدمية محترف في التكلُّم من البطن. وبعد انتهائه من اختباراته، شرح الطبيب لأبي بأناة وصبر أنه لم يجد أية مشكلة جسدية في آني. لكنها كانت تعاني من صدمة بالتأكيد. لقد فُقدتْ لمدة يومين. لربما تاهت، أو احتُجزتْ في مكان ما. لا أحد يعلم ماذا حدث لها. أما بالنسبة لتبليل السرير والكوابيس والسلوك الغريب، فكل ذلك كان متوقَّعاً. وكل ما كان ينبغي لنا فعله هو الاتسام بالصبر، ومنحها الوقت الكافي. وإذا لم يطرأ أي تحسُّن، فعندئذ يمكنه إرسالنا إلى أخصائي نفسي. ثم ابتسم وقال إننا على الأرجح لن نصل إلى ذلك فآني صغيرة، والصغار قابلون للتكيُّف بدرجة لا يمكن تخيُّلها. ولهذا فهي ستعود إلى حالتها الطبيعية بسرعة كبيرة جداً. كان واثقاً من ذلك.

شكره والدي وصافحه بيد ترتعش. كنتُ مسروراً لأنني اشتريت أقراص النعناع. وعدنا سيراً إلى البيت. وفي الطريق، بلَّلتْ آني نفسها.

صدمة. امنحوها الوقت الكافي. كان واثقاً.

غير أنني لم أكن واثقاً من ذلك. بل كنت أعتقد بأن كل ما قاله هراء، ولسبب لم أكن أدركه، أحسستُ بأن الوقت كان ينفد منا.

وفوق كل ذلك، كنت أواجه موت كريس. أو لم أكن، بالأحرى. في مراسم الجنازة التي أُقيمت في المحرقة، ظللت أتوقَّع بأنني سألتفت وأرى كريس واقفاً بجانبي بشعره الأشقر الناتئ، يشرح لي أن درجة حرارة الفرن تقع ما بين 1400 و 1800 درجة فهرنهايت، وأن الجثة تُحرَق بشكل كلي في ساعتين ونصف الساعة، وأن المحرقة تحرق نحو خمسين جثة في الأسبوع.

كانت والدة كريس جالسة في المقدمة. لم يكن لديه غيرها فوالده رحل منذ أن كان صغيراً وأخوه الأكبر توفي بالسرطان قبل ولادته.

كان شعرها مطابقاً لشعر كريس الأشقر الفاقع. كانت ترتدي ثوباً أسود بلا أي شكل مميز، وتمسك بكومة من المناديل الورقية. لكنها لم تبكِ، بل ظلت تحدِّق أمامها. وبين الحين والآخر، كانت تتمتم بشيء ما وتبتسم. وكان ذلك أشد فظاعة مما لو كانت تبكي بحُرقة.

رأيتها بضع مرات لاحقاً. وكانت ترتدي الثياب نفسها. أحسستُ بأنه يتوجّب علي قول شيء ما، لكنني لم أكن أعرف ما هو. وكلما كنت أمر بجانب منزل كريس كنت أرى الستائر مسدلة. وبعد بضعة أسابيع رأيت أمامه لوحة كُتب عليها «للبيع».

كنت أجد نفسي هائماً في شوارعِ القرية بعد المدرسة، وينتهي بي المطاف أسفل «المبنى»، محدِّقاً في الأعلى، ومتسائلاً حول شعور المرء عند سقوطه من مكان مرتفعٍ، بسرعة فائقة. كانت هناك أزهار وكلمات وداعية تركها الناس في المكان، بمن فيهم هيرست. شعرت برغبة جارفة بأخذها وتمزيقها والدوس عليها.

غير أنني لم أفعل، تماماً مثلما لم أخبر أحداً بأنني رأيته في ذلك اليوم.

وضعني موت كريس في حالة معينة من الشلل. خبَّأتُ الحقيبة في غرفة الخردوات في حديقة منزلنا الخلفية، لكنني لم أعرف ماذا يُفترض بي فعله بها. لم يكن بمقدوري تنظيم أفكاري. كلما كنت أفكر في كريس، كنت أتصوَّره ممدداً على الأرض بجسده المنكمش على نحو غريب، والبقعة الكبيرة من الدماء الغامقة والكثيفة. وبعد ذلك كنت أجد نفسي أفكر في أختي.

في بعض الأحيان، كنت أتساءل إن كنت أنا الشخص الذي يفقد عقله. لربما لم تكن آني تعاني من أية مشكلة. ولعل الضربة التي تلقيتها على رأسي فعلتْ شيئاً ما في دماغي. لربما كنت أتخيَّل كل ذلك.

وكنت أجد صعوبة في التركيز في المدرسة. كما فقدتْ أشياء معينة، مثل تذكُّر تناول الطعام أو الاستحمام، أهميتها تماماً بالنسبة لي في ذلك الحين. وكانت جولاتي الطويلة المتكررة حول القرية تزداد طولاً

باضطراد. وفي إحدى الليالي، أوقفني شرطي وطلب مني الذهاب إلى البيت. كان الوقت يقارب منتصف الليل.

كنتُ أستيقظ عدة مرات في الليل، أخمش الهواء بيديّ محاولاً الهرب من كوابيسي. رأيتُ في أحدها كريس وآني واقفيْن فوق تلة ثلجية. كانت السماء تومض خلفهما بوهج وردي، أما الشمس فسوداء تحيط بها هالة من الضوء الفضي، كما لو كانت في حالة خسوف. كان كريس وآني يبدوان طبيعيين، كما كانا قبل أن يموتا.

وكان هناك أيضاً رجال ثلج يحيطون بهما من كل الجوانب. رجال ثلج بيض مكوَّرين كبار الحجم ذوي أذرع طويلة نحيلة، وأعين وأفواه مصنوعة من قطع الفحم اللامع. بينما كنت أنظر إليهم تحوَّلت ابتسامتهم المائلة إلى زمجرة.

لا يمكنك البقاء هنا. لا أحد هنا إلا نحن رجال الثلج. عُدْ. عُدْ!

نزلت الشمس تحت الأفق واختفى كريس وآني. وبدأت السماء الوردية تفور وتغلي وتتحوَّل إلى لون قرمزي غامق. ومن ثم بدأت تُسقط

ندفاً. لكنها لم تكن بيضاء. ولم تكن ثلجاً. بل دم. قطرات كبيرة، سمينة، من الدم تحرق كالأسيد. سقطتُ على الأرض وراح جلدي يذوب عن عظامي، وعظامي تذوب وتتغلغل في الأرض. وبينما كنت أنحلُّ وأتحوّل إلى عدم، كان رجال الثلج يراقبون بأعين سوداء باردة.

في صباح اليوم التالي، عرفتُ ما كان يتوجب علي فعل.

ارتديتُ لباسي المدرسي كالعادة، وغادرتُ المنزل في الوقت المعتاد. لكن حقيبتي كانت تحوي بضع أشياء أخرى مخبّأة بعناية تحت كتبي.

خرجتُ بنشاط من المنزل، لكنني لم أسلك الطريق المؤدي إلى المدرسة، بل ذاك المؤدي إلى المنجم القديم. كانوا قد أصلحوا السياج ووضعوا مزيداً من لافتات التحذير –خطر، ممنوع الاقتراب، التجاوز تحت طائلة المسؤولية. وكان من المفترَض وجود رجل من المجلس يراقب الموقع للتأكد من عدم وصول ولد آخر إلى المكان، لكنني لم أرَ أحداً في ذلك الصباح بينما كنت أمشي على مهل حول السياج، الذي كان ما

يزال مخلخلاً بعض الشيء مع وجود ثغرات بين ألواح أسلاكه الشبكية. لم أستغرق وقتاً طويلاً لأجد واحدة كبيرة بما يكفي لأدخل عبرها. لكنني دخلتُ حشْراً وبصعوبة لدرجة أن سترتي المدرسية علقتْ في طرف سلك حاد وتمزَّقت. قلتُ لنفسي إن أمي ستمزّقني لأجل ذلك، فشتمتُ. ومن ثم أدركت أنها كانت تفعل ذلك سابقاً، أما حينئذ، فلعلها لم تكن ستلاحظها أساساً.

صعدت على التلة بخطى ثقيلة. بدا لي المكان مختلفاً في ذلك الصباح. كان بارداً رغم أن الشمس كانت مشرقة. لكنها لم تكن تضيء المكان تماماً بل كانت تنعِّم أطرافه الحادة البشعة فقط. كما أنها أربكتني قليلاً. في أي طريق كانت الحفرة؟ عند أسفل التلة العالية التالية، أم عند التلة التي تليها؟ وقفتُ ونظرتُ حولي. لكنني، كلما نظرتُ أكثر، كلما ازداد شعوري بعدم التأكد. وبدأ القلق يساورني. كنتُ بحاجة للإسراع كي لا أتأخر عن المدرسة.

سلكتُ طريقاً معيناً ثم غيَّرتُ رأيي وعدتُ أدراجي لأسلك طريقاً آخر. كل شيء كان متشابهاً. اللعنة. ماذا كان كريس سيفعل لو كان مكاني؟ كيف وجدها؟ ومن ثم تذكَّرتُ. إنه لم يجدها، بل هي التي وجدته؟

وقفتُ وتنفَّستُ بهدوء. لم أحاول التفكير أو النظر، بل تركتُ نفسي على طبيعتها.

وبعد ذلك مشيت يساراً ثم صعدتُ تلة ونزلت، ثم واحدة أخرى أشد ارتفاعاً، ونزلتُ على المنحدر الصخري. وفي الأسفل رأيت فجوة صغيرة مغطاة بأجمات كثيفة فقلت في نفسي، هنا. صحيح أنه لم يكن بمقدوري رؤيتها، لكنني شعرتُ بها. حتى أنني شعرت كأن الأرض تهمهم تحت قدميّ.

تقدَّمتُ بحذر محاولاً تدريب عينيَّ على عدم تفحُّص الأرض؛ عدم النظر بتمعُّن. وقد نجحت الطريقة، إذ تمكَّنتُ فجأةً من تمييز شكل غطاء الفتحة في الأرض. قرفصتُ فرأيت أنه لم يكن مغلقاً تماماً. كان يوجد فراغ كافٍ لإدخال أصابعي وتحريكه. حاولتُ بالفعل، وبعد أن وجدت

أنني قادر على تحريكه بالفعل، أنزلته بسرور مجدداً. لم أكن أنوي النزول حيئنذ لأنه لم يكن بوسعي الذهاب إلى المدرسة مغطّىً بالتراب وغبار الفحم. إضافة إلى ذلك، كان من الممكن أن يلاحظ أحدهم شيئاً ما ويأتي للتحقق من الأمر.

كان ينبغي لي العودة في وقت لاحق. في وقت مظلم نوعاً ما، حيث يمكنني فعل ما أحتاج فعله دون أن يوقفني أحد.

أخذتُ الأشياء التي وضعتها بحذر في حقيبتي وأخفيتها تحت أجمة كثيفة، ثم علَّقتُ فردة جورب أحمر قديم جلبته معي على أحد الفروع، لأنني لم أكن أريد المجازفة بعدم رؤية الفتحة ثانيةً عند عودتي في وقت لاحق. ومع إنجاز الجزء الأول من خطتي، عدتُ أدراجي وخرجتُ من الموقع متوجِّهاً إلى المدرس.

سار النهار على مهل، لكنه مضى بسرعة كبيرة في الوقت نفسه، مثلما يحدث عندما تنتظر شيئاً ما، لكنك تخشاه في الوقت عينه. مثل

زيارة طبيب الأسنان أو طبيب آخر. في الحقيقة، كنت سأقايض بكل سرور ضرساً مقلوعاً مقابل ما كنت مضطراً لفعله في ذلك المساء.

وأخيراً، رنَّ الجرس وخرجتُ من الصف، قلقاً من احتمال أن يوقفني أحدهم، مع أن جزءاً مني كان يتمنى إلى حد ما بأن يحدث ذلك بالفعل. لكنه لم يحدث. ومع ذلك لم أسرع فقد كان ما يزال لدي بعض الوقت لأقتله قبل حلول الغسق.

قمتُ بجولتي المعتادة على الشارع الرئيسي. وعلى الطريق اشتريت بعض رقائق البطاطا المقلية من النقود التي أخذتها من محفظة أبي في الليلة السابقة –مع أنني لم أكن جائعاً– ورحت أنقر منها تحت مظلة موقف الباص قبل أن أرمي نصف الطبق البلاستيكي في صندوق القمامة.

تجوَّلت قليلاً بعد ذلك ثم جلستُ لبعض الوقت على أرجوحة في حديقة لعب الأطفال المهجورة. وعندما بدأت مصابيح الشارع ترمش مثل عيون برتقالية فزعة، شرعتُ بالمشي نحو المنجم.

كنتُ قد وضعتُ مصباحاً كشّافاً في حقيبتي، إلى جانب قبعة صوفية قديمة لأبي. لبستها وأنزلتها حتى غطَّت كامل جبهتي وحاجبيَّ. تفقَّدتُ المكان بحثاً عن أية إشارة تدل على وجود رجال أمن، لكن الشارِع كان فارغاً وصامتاً، فتسللت عبر السياج قبل أن يتغيَّر الوضع.

لم أكن بحاجة للمصباح حينئذ، مع أن ضوء النهار كان يتلاشى بسرعة –كنا في نهاية تشرين الأول تقريباً. لم أكن أريد جذب الانتباه إلى نفسي، إضافة إلى أنني أحسستُ، لسبب أجهله، بأنني سأجد طريقي بشكل أفضل في الظلام. وكان حدسي في محله، رغم بعض التعثُّرات. عندما وصلتُ إلى أسفل التلة حادة الانحدار، تمكَّنتُ من تمييز الجورب الأحمر –ظل أسود على الأجمة.

لقد نجحت. ها قد عدت مجدداً. كنت أحاول تشجيع نفسي، مع أنني كنت أعرف بأنه يتوجّب عليّ الإسراع وإلا فقد أجْبُنُ تماماً. بينما كنت أزيح الغطاء المعدني قشطتُ بعض الجلد عن مفاصل أصابعي.

جلبت المفرقعات النارية التي خبّأتها تحت الأجمة وأعدتها إلى حقيبتي وأخرجتُ المصباح.

وبعد إلقاء نظرة أخيرة حولي أدخلتُ نفسي داخل الحفرة وبدأتُ أنزل على الدرجات.

لم أستغرق وقتاً طويلاً. فما أن أشعلت فتائل الأمان الطويلة الموصولة بالمفرقعات النارية، حتى صعدتُ الدرجات بأسرع قدر ممكن وخرجت من الفتحة. وبينما كنت أعيد الغطاء فوق الفتحة، سمعتُ أولى الفرقعات المكتومة. أمسكتُ بالحقيبة ونهضتُ. ارتفع الغطاء قليلاً ثم سقط ثانيةً فوق الفتحة مصدراً قرقعة معدنية عالية وغيمة كثيفة من الغبار.

ولم أكد أخطو إلا بضع خطوات بعيداً عن الفتحة حتى شعرتُ بالأرض تهتز من تحتي وسمعت صوت هدير مدوٍّ. كنت أعرف ذلك الصوت فقد حدث انهيار صخري داخل المنجم عندما كنت بعمر آني تقريباً. لم يُصَب أحد بأذى، لكن ذلك الهدير المدوّي جعلني أشعر كما لو أن الأرض انطوت على نفسها في مكان عميق في باطنها.

قلتُ في نفسي إن الأمر انتهى. ورجوتُ بأن يكون ذلك كافياً.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساءً حين عدت إلى المنزل، منهكاً وقذراً، ولكن مغتبطاً على نحو غريب. قبل أن أفتح الباب الخلفي، تملَّكني شعور لا عقلاني، لجزء صغير من الثانية، بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لقد أبطلتُ السحر. قتلتُ التنين. طردتُ الشيطان. سأجد آني كما كانت من قبل، وستكون أمي في المطبخ تعدُّ الشاي، وسيكون أبي جالساً يقرأ الصحيفة ويغني مع المذياع كما اعتاد أن يفعل أحياناً عندما يكون مزاجه رائقاً.

كل ذلك هراء بالطبع، فعندما دخلت كان جالساً في وضعيته المتراخية المعتادة أمام التلفاز. لم يكن باستطاعتي رؤية سوى قمة رأسه الأجعد من فوق المقعد وكنت متأكداً بأنه غافٍ مسبقاً. لم تكن آني في الطابق الأرض، لذا خمَّنتُ بأنها في غرفتها كالعادة. كانت رائحة المنزل أسوأ من أي وقت مضى. غطَّيتُ فمي بيدي وصعدتُ بسرعة إلى الحمام في الطابق العلوي.

عندما بلغتُ أعلى السلَّم توقفت. كان باب غرفة آني مفتوحاً على مصراعه. وهذا لم يكن يحدث منذ أن عادت، فتقدَّمتُ نحو الباب المفتوحِ.

«آني؟»

كانت الغرفة نصف معتمة، كالعادة، مضاءة فقط بأشعة الغسق الضبابية المتسللة غبر الستائر الرقيقة. وكان السرير غير مرتَّب. وإذا كانت الرائحة في الأسفل كريهة، فقد كانت في الغرفة تكاد تكون غير محمولة –بول راكد وتعفُّن وشيء يشبه رائحة بيض فاسد وقيْء معاً. لم تكن آني في الغرفة.

تفقَّدتُ غرفتي فوجدتها فارغة أيضاً. ثم طرقتُ باب الحمام.

«آني؟ هل أنتِ في الداخل؟»

صمتْ. لم يكن يوجد قفل على باب الحمام. لقد نزعه أبي بعد أن قفلتْ آني على نفسها في الداخل عندما كانت صغيرة.

جلسنا أنا وأمي خارج الحمام وغنَّينا لها كي تحسَّ بالأمان بينما كان أبي يحاول نزع القفل عن الباب. وعندما دخلنا أخيراً، وجدنا آني نائمة على أرض الحمام، مرتديةً حفاضاً وتيشيرت فقط.

حدَّقتُ في الباب المغلق ثم أمسكت بالمقبض الذي بدا لزجاً على نحو غريب، وفتحته وشغَّلتُ الإنارة، فدارت الدنيا بي.

كان اللون الأحمر في كل مكان؛ يغطّي كامل المغسلة، ويلطِّخ المرآة. إضافة إلى بقع كبيرة لامعة متجرجرة على الأرض.

حدَّقتُ بمزيد من التمعُّن فانقلبتْ معدتي. نظرتُ إلى يدي فوجدتُ راحتي ملطّخة بلون قرمزي. استدرتُ ونصف ركضت، نصف تعثَّرت نزولاً على السلَّم. لاحظتُ حينئذ أن الدرابزين والجدران مغطاة أيضاً ببقع حمراء.

«آني! بابا؟»

قفزتُ فوق الدرجة الأخيرة ونزلت إلى غرفة الجلوس. كان أبي ما يزال جالساً بتراخٍ على المقعد –ظهره نحوي.

«بابا؟»

درتُ حول المقعد وبدأ وجهه تدريجياً يظهر لي. كانت عيناه نصف مغمضتين، وفمه نصف مفتوحٍ، ومن بين شفتيه يصدر منه نَفَسٌ صَفيريٌّ متقطِّع خفيف. كان يرتدي تيشيرت عليه صورة فرقة « teW teW teW » –تعني «رَطِب رطب رطب». لقد ربحه في مسابقة نظَّمَتْها إذاعة محلية (كان يريد الفوز برحلة إلى إسبانيا). غريب الأشياء التي تلاحظها. مثلما لاحظتُ وجود بقعة كبيرة انتشرت من وسط صدر أبي أسفل وجه مارتي بيلو. مثل بقعة حبر. كما حدث عندما نسيتُ قلمي الحبر مفتوحاً –باستثناء أن البقعة حينئذ كانت صغيرة. غير أن البقعة لم تكن زرقاء، بل حمراء. حمراء قانية. ولم تكن حبراً، بل دم. رطب، رطب، رطب.

حاولتُ مقاومة الذعر. حاولتُ التفكير. لقد طُعنْ. طُعنْ. وآني غير موجودة. كان يتوجب علي الاتصال بالشرطة. أو الاتصال بـ **999**. ركضتُ نحو الهاتف على الجدار ورفعتُ السمّاعة، واتصلت بأصابع مرتعشة. رنّ ورنّ إلى أن قال صوت لطيف: «أية خدمة تطلب؟»

فتحتُ فمي لكن الكلمات جفَّت في حلقي. دم. أحمر. طريّ.

«ألو؟ أية خدمة تطلب؟»

الحمام. بقع على الأرض. لكنها لم تكن بقعاً، بل أشكال. بقعة كبيرة وخمس بقع صغيرة.

بصمات أقدام. بصمات أقدام صغيرة.

«ألو؟ هل ما زلتَ على الخط؟»

أنزلتُ السمّاعة. سمعتُ ضجة ورائي. ضحكة صغيرة. أعدتُ السمّاعة إلى مكانها واستدرت.

كانت آني واقفة عند الباب. لابد أنها كانت مقرفصة في الخزانة أسفل السلَّم. كانت عارية والدم يلطّخ جسدها ووجهها، كأنها كانت في معركة طلاء. وكان بوسعي رؤية جروحٍ عميقة على ذراعيها وصدرها الضيِّق. لقد جرحتْ نفسها أيضاً. وكانت عيناها تلمعان، وتحمل في يدها سكين مطبخ كبيرة.

حاولتُ التنفُّس. حاولت عدم الصراخ ورمي نفسي من النافذة.

سكين. بابا. رطب، رطب، رطب.

«آني. هل أنت بخير؟ أنا... ظننتُ أن شخصاً اقتحم المنزل».

لمحتُ طيفاً من الحيرة يلوحِ على وجهها لوهلة.

«لا بأس. أنا في المنزل الآن. سوف أحميكِ. تعرفين هذا، صحيح؟ أنا أخوكِ الكبير. سأحميكِ دوماً».

ترنّحت السكين في يدها، وتبدَّل شيء ما في وجهها. بدتْ إلى حد كبير مثل آني الذي أعرف.

«أنزلي السكين من يدك. يمكننا حل هذه المسألة». فتحتُ ذراعيَّ وقلت لها بصوت شوَّشته الدموع: «تعالي».

ابتسمتْ ثم هجمتْ علي مع صرخة مزمجرة متوحشة. لكنني كنت مستعداً. تنحيَّتُ جانباً ثم دفعتها بقوة فتعثَّرتْ على سجادة الموقد وسقطت. حاولتُ الإمساك بمنخس الحطب، ولكن لم تكن هناك حاجة إليه. لقد اصطدم رأسها بحافة الموقد وانهارت على الأرض وسقطت السكين من يدها.

وقفتُ مرتعشاً، نصف متوقع أن تثب من مكان سقوطها وتنهض على قدميها من جديد، لكنها ظلّت مستلقية بسكون.

نظرتُ إلى أبي مجدداً. كان يتوجب علي نقله إلى المستشفى. نظرتُ إلى الهاتف ثم ركضتُ إلى المطبخ. كان أبي قد علَّمني منذ بعض الوقت بضعة دروس في قيادة السيارة –على طرق القرية فقط. في ذلك الحين، لا أحد كان يبالي لرؤية فتىً في الخامسة عشرة يقود سيارة. صحيح أنني لم أكن بارعاً، لكنني كنتُ أعرف الأشياء الأساسية.

وكنتُ أعرف أين توجد مفاتيح أبي.

كان أبي ثقيلاً –لقد زاد وزنه في السنوات الأخيرة. جررته نحو الباب، ثم فتحته بضع سنتمترات وألقيت نظرة إلى الشارع فلم أجد أحداً في الخارجِ. كانت الستائر مسدلة. ومع أنني لم أكن واثقاً بأن شخصاً فضولياً مثل السيدة هوكينز لم تكن تتلصَّص من خلف ستائرها الشبكية، لكنني كنت مضطراً للمجازفة.

جررت جسده على الممر الفرعي القصير نحو السيارة ثم سندته على الباب الخلفي وفتحت الباب المقابل لباب السائق. ثم رفعته وأدخلته، بدءاً من الجذع فالساقين. كانت يداي ومقدمة قميصي المدرسي مغطيين بالدماء، ولكن لم يكن لدي الوقت للقلق بشأن ذلك. وكانت المستشفى تبعد اثني عشر ميلاً –في نوتنغهام. كان يتوجّب علي الإسراعِ. هرعتُ نحو باب السائق ثم توقفت ونظرت إلى المنزل. آني.

لم يكن بمقدوري تركها.

لقد طعنتْ والدك.

إنها ما تزال طفلة.

لم تعد كذلك.

قد تموت.

فليكن.

لا يمكنني تركها. ليس مرة ثانية. ليس كما فعلتُ من قبل.

ركضتُ نحو المنزل ثانيةً. جزء مني كانت يتوقع أن يجدها اختفت، كما في أفلام الرعب عندما تظن أن البطل قتل المعتوه فإذا به يختفي ومن ثم يظهر في وقت لاحق، حاملاً بيده منشاراً آلياً. لكن آني كانت ما تزال ممددة على الأرض حيث وقعت. عارية. اللعنة. صعدتُ على السلّم بسرعة بقلب يدقُّ مثل ساعة داخلية، مذكِّراً إياي بأن الوقت كان يداهمني. فتحتُ الخزانة البيضاء الصغيرة في غرفة آني وتناولتُ بيجاما –وردية عليها خراف بيضاء– وهرعتُ نحو الطابق السفلي.

لم تتحرَّك أبداً بينما كنتُ أُلبسها البيجاما، رغم أنني شعرتُ بأنها كانت تتنفَّس بشكل خافت. حملتها بين ذراعي، نحيلة مثل أيل رضيع. كانت باردة، وجزء مني لم يستطع كبت رعشة اشمئزاز.

كدتُ أن أصل إلى البوابة حين رأيت ظلاً يقترب على الشارع وسمعتُ لهاثاً متحمِّساً. شخص ينزِّه كلبه. تراجعتُ وانتظرت في الظل بينما كانا يعبران. توقف الكلب بجانب البوابة وبدا كأنه اشتمَّ شيئاً ما، ثم تراجع فجأةً وراح يشدُّ مالكه بقوة أكبر على الطريق.

قال مالكه: «حسناً، حسناً، شممتَ رائحة ثعلب، أليس كذلك؟»

وضعتُ آني على عجل في مؤخرة السيارة. ثم ركضتُ نحو المقدمة وفتحت باب السائق وجلست على المقعد. كانت يداي ترتعشان بشدة لدرجة أنني لم أستطع إدخال المفتاح في مكانه إلا في المحاولة الثالثة.

لحسن الحظ، وبشكل عجائبي، دار المحرِّك من المرة الأولى. وضعتُ ناقل الحركة على السرعة الأولى، ثم تذكَّرتُ حزام الأمان فجأةً،

فثبَّته حولي وانطلقتُ بالسيارة. ركَّزتُ على البقاء على الجانب الأيمن من الطريق، وكذلك على عدم الاصطدام بحافة الرصيف، وقد صرف ذلك ذهني عن التفكير بما سأفعله إن توفي أبي في الطريق، أو ما سأقوله إن لم يمت.

كنت بحاجة لقصة. تذكَّرتُ ما قلتهُ لآني –شخص اقتحم المنزل. كان ذلك قابلاً للتصديق. وإن بقي أبي على قيد الحياة، فبوسعه إخبارهم بالحقيقة.

خرجت من القرية وامتد الطريق الريفي الملتوي أمامي مثل أفعى زيتية. لم يكن يوجد مصابيح على الطريق، وإنما أعين قطط فقط. ولم أستطع إيجاد الإضاءة الكاملة للسيارة. ظهرتْ سيارة خلفي واقتربت مني كثيراً. كان وهج مصابيحها العالية المنعكس في مرآة الرؤية الخلفية يعميني. ماذا لو كانت من الشرطة؟ ماذا لو أنهم تعقبوا الاتصال بالرقم 999 وكانوا يلاحقونني؟ وبعد ذلك، أعطاني السائق إشارة ضوئية ومرَّ بجانبي مسرعاً مع إطلاق بوقه بصخب.

نظرتُ إلى عدّاد السرعة فوجدتُ أنني كنت أسير بسرعة 35 ميلاً في الساعة على طريق يتطلّب سرعة 60 ميلاً في الساعة. لا عجب أن السائق كان غاضباً مني. وإضافة إلى ذلك، كنتُ أثير الانتباه إلى نفسي. أرغمتُ نفسي على الدوس بقوة أكبر على دوّاسة الوقود، رغم الظلام وقبضتي الضعيفة والمتوترة على المقود. راقبتُ المؤشر وهو يرتفع إلى الأربعين، والخمسين. ثم نظرتُ في مرآة الرؤية الخلفية ثانيةً.

كانت آني تحدِّق فيّ.

حرفتُ السيارة فاصطدمت العجلات بالحافة، وتصارعتُ مع المقود لإعادتها إلى الطريق ثانية. صهلت العجلات لكنها استعادت ثباتها على الإسمنت. سقط أبي بكل ثقله علي. اللعنة. لقد نسيتُ تثبيت الحزام حوله. دفعتُه إلى مقعده بيد محاولاً التحكم بالمقود باليد الأخرى.

اندفعتْ آني بشكل مفاجئ من المقعد الخلفي وحاولتْ نشب أظافرها في وجهي ثم أمسكتْ بشعري وشدَّت رأسي إلى الخلف. حاولتُ ضربها بيدي الحرة لكن قبضتها كانت قوية على نحو مثير للاستغراب.

أحسستُ بأظافرها تنغرز في فروة رأسي. لَكَمْتُها بقبضة يدي بقوة على وجهها فسقطت إلى الخلف.

أمسكتُ بالمقود ثانيةً –في الوقت المناسب– بينما كانت سيارة أخرى تعبر بجانبي مسرعةً. اللعنة. كان يتوجب علي الوصول إلى المستشفى بسرعة. ضغطتُ على دواسة الوقود بشدة أكبر فارتفعت السرعة إلى سبعين ميلاً في الساعة. رأيتُ آني تجلس مجدداً فحاولتُ ضربها بكوعي لكنها أمالت جسدها بسرعة ثم لفَّتْ يديها حول عيني وغرزتْ أصابعها. صرختُ. لم أعد أرى سوى ومضات من الظلام والضوء.

أفلتُّ إحدى يديَّ عن المقود وحاولتُ إبعاد أصابعها عني. وبينما كنت أفعل ذلك ضغطتْ قدمي على دوّاسة الوقود فزمجر المحرك. شعرتُ بالسيارة تدور وتخرج العجلات من الإسمنت إلى الضفة العشبية.

وثبت السيارة بعنف. ثم ظهر ظل أسود ضخم أمامي. شجرة. حاولتُ الإمساك بالمقود مجدداً ودستُ على الفرامل، ولكن بعد فوات الأوان.

اصطدام. هزَّة وحشية. انسحاق معدن. طار جسدي إلى الأمام وارتطم أنفي بالمقود قبل أن يعيدني حزام الأمان إلى الخلف ثانيةً. أحسست بدوخة. شيء ما مرَّ بجانبي وكسر الزجاج الأمامي وخرج منه. ألم فظيع في صدري، ووجهي، وساقي. ساقي!

سواد.

«هكذا وجدناكم».

«وجدتمونا؟»

«أنا وأبي. كنا عائديْن من مباراة كرة قدم مسائية. رأى أبي السيارة. كانت محطمة وواقفة أمام شجرة. توقفنا لنرى إن كان بوسعنا المساعدة. رأينا على الفور أن والدك كان ميتاً. ووجدتُ جثة شقيقتك على بعد مسافة صغيرة من السيارة. لم أستطع مساعدتها...» يسكت لوهلة. «عدتُ إلى السيارة فقال أبي إن الولد ما يزال حياً. ولديه مشكلة كبيرة، أليس كذلك؟ عرفتُ قصده مباشرةً. كنتَ في الخامسة عشرة. لم يكن ينبغي لك القيادة. قررنا نقلك ووضعك في مقعد الراكب ووضع أبيك في مقعد السائق كي تعتقد الشرطة أنه هو الذي كان يقود السيارة».

«لماذا؟ لماذا اكترثتما؟»

«لأن أبي، أياً تكن الاختلافات فيما بيننا، كان يعتقد أنك كنت تهتم بعائلتك. كنت فرداً من زمرتي. ووالدك كان عامل منجم –حتى لو لم يشارك في الإضراب. كان من المفترَض أن أزورك في المستشفى، وأقول لك بأن تلتزم بالقصة، ولكن تبيَّنَ أنك كنت تملك مسبقاً قصة خاصة بك. لم تكن تتذكَّر شيئاً عن الاصطدام –هذا ما قالته لي إحدى الممرضات. هل هذا صحيح يا جو؟»

حدَّقتُ فيه. قلتُ في نفسي: أكاذيب. ليس هناك شيء اسمه كذب أبيض. الكذب ليس أبيض أو أسود، بل رمادي فقط. ضباب يحجب الحقيقة. وأحياناً يكون كثيفاً جداً بحيث أننا بالكاد نستطيع رؤيته.

في الواقع، لم أكن واثقاً مما كنتُ أتذكَّره. لذا فقد كان من الأسهل لي الموافقة على ما أخبرتني به الشرطة والأطباء. كان من الأسهل إغماض عينيَّ وقول إنني لا أعرف ما حدث، ولا أذكر الاصطدام.

ولم أخبر أمي أيضاً. لكنها في الوقت نفسه لم تسأل أبداً حول أي شيء مما حدث. لابد أنه كان لديها أسئلة. لابد أنها نظّفت الدم.

لكنها لم تقل أية كلمة. وذات يوم، عندما حاولتُ التحدث معها، أمسكتْ بمعصمي بقوة لدرجة أنها تركت كدمة ثم قالت:

«أياً يكن ما حدث في المنزل، فقد كان حادثاً يا جو. مثل الاصطدام تماماً. هل تفهم؟ يجب أن أصدِّق ذلك. لا يمكنني أن أخسرك أنت أيضاً».

عندئذ فهمتُ أنها كانت تظن أنني فعلتُ ذلك. أنني المسؤول بطريقة ما. ولا يمكنني أن ألومها في الحقيقة، فقد كنت أتصرَّف بغرابة لأسابيع. بالكاد كنتُ أتناول الطعام، ولم أكن أتحدث، وكنت أبقى خارج المنزل أطول مدة ممكنة. وبطريقة ما، كنتُ مسؤولاً بالفعل. كنتُ السبب. في كل ما حدث.

عندما عدت إلى المنزل، على عكازيْن، وبمسامير في ساقي المهشّمة، كان المنزل قد تهوَّى جيداً ونُظِّف، وأُعيد ترتيب غرفة آني من جديد. عاد كل شيء في المنزل إلى ما كان عليه في السابق.

لم أحاول تصحيح اعتقاد أمي، أو إخبارها بما حدث حقاً. وهي لم تفصح أبداً بالكلمات عما كنت أراه في عينيها؛ وهو أن الطفل الخطأ رحل –أنا من كان يجب أن يموت. وظلَّت أمي تتظاهر بأنها كانت ما تزال تحبني حتى آخر يوم في حياتها.

وتظاهرتُ بدوري أنني لم أكن أعلم أنها لم تكن تحبني.

أنحنح حنجرتي. أشعر بثقل شديد في رأسي. هنالك أفكار متضاربة تتصارع معاً في وحل وعيي.

ثم أقول: «هل تريدني أن أشكرك؟»

يهزُّ هيرست رأسه نافياً ثم يقول: «لا. أريدك أن تأخذ هذه الأشياء–» يومئ إلى العتلة وربطة العنق– «وترميهما في نهر ترينت. وبعد ذلك، أريدك أن تغرب عن هنا ولا تعود أبداً».

أشعر بالغثيان. غثيان الخاسر. ذلك الشعور الذي ينتابك عندما ترى أوراق اللاعب الآخر وتعرف أنك خسرت. أن أمرك انتهى. أو، كاد أن ينتهي، في الواقع.

«ستطرح الشرطة أسئلة عليك أيضاً. لماذا نقلتماني. لماذا تكشف هذا الأمر الآن؟ العبث بمشهد حادث ما جريمة».

يهزُّ برأسه موافقاً ثم يقول: «صحيح. لكنني كنتُ مجرد ولد. كانت فكرة أبي. وأنا الآن أكبر سنّاً وأكثر حكمةً. وأحتاج إلى أن أريح ضميري. وسيصدِّقونني، فأنا عضو محترم في المجتمع. أما أنت؟ حسناً، انظرْ إلى نفسك. موقوف عن العمل في وظيفتك الحالية. مشتبَه بك بالسرقة من مدرستك القديمة. لستَ مواطناً مثالياً».

إنه على حق. وماذا لو بدؤوا بطرح المزيد من الأسئلة؟ وسألوا عن جروح أبي؟

يقول هيرست: «إذن. أعتقد أن هذا ما نسميه وضعاً متعادلاً».

أهزُّ برأسي وأقف، ثم أتناول القطعتين الملفوفتين بعناية وأعيدهما إلى الحقيبة. ليس لدي حقاً أي خيار آخر. أُخرج هاتفي من جيبي.

يحدِّق هيرست فيه ويقول: «هل ما زلت ستتصل بالشرطة؟»

«لا».

أفتح صفحة الأصدقاء وأضغط على الاسم المطلوب ثم أرفع الهاتف إلى أذني.

تردُّ من الرنة الأولى: «أهلاً جو».

«أنتِ بحاجة للتحدث معه». أعطي الهاتف إلى هيرست.

«ومع من سأتحدث بالضبط؟»

«المرأة التي ستقتل زوجتك وابنك إن لم أخرج من هنا أغنى بثلاثين ألفاً».

يأخذ الهاتف مني وأراقب وجهه يشحب تدريجياً. باستطاعة غلوريا فعل ذلك للناس. حتى قبل أن ترسل إليه الصور –صور ماري وجيريمي بينما يُنهيان عشاءهما في البلدة الآن.

يعيد الهاتف إلي.

تقول غلوريا لي: «من الأفضل لك أن تحصل على المال... إنهما يغادران. يجب أن ألحق بهما».

أنهي المكالمة وأنظر إلى هيرست ثم أقول: «ثلاثون ألفاً. حوِّلْه الآن وسأخرج من حياتك إلى الأبد».

يحدِّق فيَّ بنظرة دائخة، كأن شخصاً ما أخبره للتو بأن العالم مسطَّح وأن الكائنات الفضائية موجودة وأن المسيح في طريق عودته إلى العالم في زيارة.

باستطاعة غلوريا فعل ذلك للناس أيضاً.

يقول بصوت أجش: «ماذا فعلتَ بحق الجحيم؟»

«أنا بحاجة للمال فقط».

عيناه مغرورقتان بالدموع: «لا أملكه».

«لا أصدّقك. السيارة القابعة في الخارج تساوي ستين ألفاً على الأقل».

«عقد إيجار».

«هذا المنزل».

«مرهون مرتين».

«الفيلا في البرتغال».

«بعتها، حتى أنني أكاد أفلس».

يعود الشعور بالغثيان مجدداً، وبصورة أسوأ الآن.

أقول له: «لا أعتقد أن غلوريا ستحب سماع ذلك».

يمرر يده في شعره المصفَّف بعناية بالغة، ثم يقول: «إنها الحقيقة. لا أملك ثلاثين ألفاً. لا أملك عشرين أو عشرة أو حتى خمسة آلاف لعينة».

«هراء».

«ذهب كله. علاج ماري في أميركا. هل تعرف كم يكلِّف أحد العلاجات العجائبية؟» يضحك ضحكة ساخرة. «أكثر من سبعمائة وخمسين ألف جنيه. هذا ما يكلِّفه. إنه كل ما أملك. لم يبقَ لدي شيء».

«كذاب». أهز رأسي. «كحالك دائماً. تحاول إنقاذ نفسك. أنت كذاب».

«إنها الحقيقة».

«لا. لقد اتصلتُ بالعيادة في أميركا. أخبرتني بها ماري. واحزرْ ماذا؟ إنهم لم يسمعوا بك أو بماري. لم يُحجَز لها مكان من أجل ظفر قدم لعين مغروز في الجلد، دع عنك علاج السرطان العجائبي».

أحدِّق فيه بنظرة المنتصر، متوقّعاً رؤية الزمجرة المتحدِّية الاعتيادية لشخص غاضب بسبب انكشاف كذبته. بيد أنني أرى شيئاً آخر. شيء غير متوقَّع. ملامح حيرة وخوف.

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لقد دفَعَتِ المال. أنا حوَّلتُ النقود».

«مزيد من الأكاذيب. ألا تتوقف أبداً؟ أعلم ما تخطط إليه».

«يمكنني أن أريك بيانات البنك. رقم الحساب».

«صحيح. يمكنك ذلك بالتأكيد». أتوقف فجأة وأحدِّق فيه ثم أسأله: «دفَعَتْ؟»

«ماري. هي التي وجدت العيادة ورتبتْ لكل شيء. الفنادق. رحلات الطيران».

«حوَّلتَ كل النقود إلى ماري؟»

«إلى حسابنا المشترك. وهي سدَّدتِ المبلغ من هناك».

«لكنك لم تتحدث مع العيادة، ولم تتحقق من أنهم استلموا المال؟»

«أنا أثق بزوجتي. ولماذا ستكذب؟ إنها يائسة. ولا تريد أن تموت. هذا العلاج هو فرصتها الوحيدة».

واليائسون يؤمنون بالعجائب.

أحاول الحفاظ على هدوئي، والتفكير: «لماذا تعيق مخططات الحديقة الريفية؟»

«لأن بناء المنازل على الأرض مربح أكثر».

«حتى مع ما يوجد تحتها؟»

«سدَّ انهيار صخري ذلك المكان منذ سنوات».

«هذا ما رجوتُه. ولكن، يبدو أن ابنك وجد طريقاً آخر للدخول».

«جيريمي؟ لا. وما علاقة هذا بأي شيء؟»

«ألم تخبره أبداً بما وجدناه؟»

«أخبرتُه بأن لا يذهب إلى هناك أبداً. بأن يبقى بعيداً عنه».

«والأولاد يفعلون دائماً ما يطلبونه منهم الآباء؟»

«بالتأكيد لا. في الحقيقة، جيريمي لا يبالي مطلقاً بما أقول. لكنه يصغي إلى ماري. لطالما كان يصغي إليها. سيفعل أي شيء من أجلها. إنه ابن أمه».

أبلع ريقي فأشعر كأنني أبلع زجاج مطحون.

سيفعل أي شيء من أجلها. إنه ابن أمه.

وفي بعض الأحيان، لا تسقط التفاحة بعيداً جداً عن الشجرة.

كنتُ أقشر لحاء الشجرة الخطأ.

يرنُّ هاتفي. «أجل؟»

«كيف تجري الأمور؟»

أنظر إلى هيرست وأقول: «بشكل جيد. متى سيعودان؟»

«لهذا السبب اتصلتُ. إنهما لن يعودا».

«ماذا؟»

«لقد عادا من البلدة. أنزلتْ ماري الفتى على الطريق الرئيسي من أجل لقاء بعض الأصدقاء. والآن إنها تقود وحيدةً على الطريق باتجاه منزلك».

«منزلي؟»

«لا. انتظرْ. ابقَ معي... لقد توقفتْ. إنها تخرج من السيارة. هذا غريب. إنها تحمل مصباحاً وحقيبة».

اللعنة.

أقول: «الحفرة. إنها ذاهبة إلى الحفرة».

36

أنا لا أؤمن بالقدر.

ولكن، ترغمك الحياة في بعض الأحيان على اتباع مسار يصعب تغييره.

لقد بدأ كل شيء هنا، ويبدو أن كل شيء سينتهي هنا أيضاً.

ليس هذا ما تخيَّلته تماماً. وليس هذا ما خططت له تماماً. ولكن، هذه هي مشكلة الخطط. إنها لا تنتهي أبداً بالطريقة التي فكَّرت بها. أما بالنسبة لخططي، فإنها لا تنجح أبداً، فيما يبدو.

أوقفَ هيرست سيارته الرينج روفر. لم يقل أية كلمة خلال الطريق القصير. ولكن، بوسعي رؤية الحيرة في نظرة عينيه، وتردُّد فكِّه ما بين انطباق وارتخاء بينما يحاول استيعاب ما علمَه للتو؛ يحاول فهم كيف استطاعت ماري خيانته والكذب عليه.

توقَّعتُ غضباً لكنه يبدو مجروحاً فقط –مُهاناً. كنتُ مخطئاً بشأنه. ظننتُ أن ماري كانت مجرد شيء آخر يتباهى به، مثل المنزل والسيارة، لكنه يحبها. ورغم كل شيء، ما زال يريد إنقاذها.

أرى سيارة صغيرة مركونة بدون اكتراث بجانب الطريق. لكنني لا أرى غلوريا أو سيارتها. ولستُ واثقاً إن كان هذا يثير القلق أم الراحة.

بدأنا الصعود سويّة.

يسألني هيرست: «أين هي؟»

«لا أعرف». أمسح السياج بمصباحي وأجد الثغرة التي مررت خلالها من قبل. «تعال».

أتسلَّل عبر الثغرة ثم يلحق بي هيرست. أسمعه يشتم.

«في الوقت المناسب».

أنتفض. تظهر غلوريا من مكان معتم بجانب السياج. إنها ترتدي، كعادتها، معطفاً أسود فوق ثيابها العادية. زيُّ العمل.

أنظر حولي ثم أسألها: «أين ماري؟»

«في صندوق سيارتي الخلفي».

يقول هيرست: «أيتها العاهرة».

تلتفتُ غلوريا نحوه ثم تقول: «ستيفين هيرست، كما أظن؟ في الحقيقة، إنني أمزح. لقد صعدتْ تلك التلة منذ نحو عشرين دقيقة».

أتدخَّل بسرعة قائلاً: «غلوريا، ماري تملك نقودك. أكثر من ثلاثين ألفاً. أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً. يجب أن نعيدها».

تنظر إلى هيرست وتقول: «وماذا بشأنه؟»

«ماذا بشأنه؟»

«قلتَ إن ماري، زوجته، تملك النقود؟»

«أجل».

«إذن ما نفعه؟»

«غلوريا–»

«هذا ما ظننته».

تتحرَّك بسرعة فائقة لدرجة أنني بالكاد أرى المسدس. أسمع طقة وفجأة أرى هيرست يتلوّى ويصرخ على الأرض، ممسكاً بساقه. يتدفق دم أحمر غامق بغزارة –بغزارة حقاً– من الجرح. أجثو على ركبتيَّ بجانبه وأمسك بذراعيه.

«يا ربي!»

أنظر حولي. الطريق خلف السياج فارغ. وحتى لو مرَّت سيارة عابرة من الطريق، فلن يصل ضوء مصابيحها الأمامية إلينا هنا في العتمة.

تقول غلوريا وهي تخفض المسدس، المتصل طرفه بكاتم صوت ضخم: «شريان فخذي. حتى لو طبَّقتُ ضغطاً، فإنه سينزف كل دمه خلال خمس عشرة أو عشرين دقيقة تقريباً».

ينظر هيرست في عينيّ قبل أن تمسك غلوريا بذراعي وترفعني ثم تقول: «أنت تهدر الوقت. اذهبْ واجلبْ نقودي اللعينة».

«ولكن، ماذا بشأن–»

تضع إصبعاً على شفتيّ وتقول: «تيك توك».

يهتز المصباح بعنف أمامي بينما أتسلَّق التلة، مع أنه لا يفيدني كثيراً، فما يرشدني في طريقي هو الحدس والخوف، وليس ضوؤه. لم أجلب عصاي معي، لذا فإنني أعرج وأتعثر وأعربش صعوداً ونزولاً على التلال الصخرية الزلقة. تقدِّم ساقي المعطوبة صحبةً شبه دائمة من الألم، وتنضم أضلاعي إلى الجوقة. لكن جزءاً آخر مني يشعر كما لو أنه منفصل عن التجربة كلها –كأنني أطير فوق نفسي وأراقب رجلاً طويلاً نحيلاً ذا شعر أسود فوضوي وأزيز مدخِّن يمشي مترنِّحاً مثل متشرّد سكِّير.

أريد أن أضحك على الوضع برمّته؛ أضحك حتى الصراخ. الأمر كله يبدو مثل حلم مروِّع فظيع، مع أنني، في أعماقي، أعرف أنه حقيقي على الدوام. كابوس متواصل بدأ منذ خمسة وعشرين عاماً.

وسينتهي الليلة.

أراها عند أسفل التلة، جالسةً متصالبة الساقين عند المدخل. هناك مصباح تخييم بجانبها، وحقيبة ظهر عند قدميها. رأسها مغطّى بوشاح، وقلنسوتها مرفوعة لدرء البرودة. تنحني لوهلة فأظن أنها تصلّي، لكنها بعد أن تقوِّم ظهرهاً مجدداً، أراها تشعل سيجارة.

أُطفئ المصباح وأراقبها، لكنني لا أراها حقاً، بل أرى فتاة في الخامسة عشرة. فتاة جميلة وذكية... وباردة. أتعجَّب كيف لم أرَ ذلك من قبل. لكن الوجه الجميل يعميك عن رؤية الكثير من العيوب، وخصوصاً عندما تكون أنت أيضاً كتلة من الهرمونات في الخامسة عشرة من العمر. أنت لا تأبه بما يقبع تحت السطح. الظلمة. العظام المتعفنة.

أخطو خطوة إلى الأمام وأقول: «ماري؟»

تقول دون أن تلتفت: «كنتُ أعرف بأنك ستكون أنت. أنت دائماً. منذ أن كنا صغاراً، شوكة في خاصرتي».

«اسمٌ على مُسمَّى [«Thorn» تعني شوكة]، بالفطرة».

«عدْ إلى منزلك يا جو».

«حسناً. إذا جئتِ معي».

«محاولة جيدة».

«جرِّبي هذه إذن، إذا لم تأتِ معي، هناك سيدة مجنونة ستقتل زوجك».

«حتى لو صدّقتك لماذا سأكترث؟ عندما ينتهي هذا الأمر، سنترك أنا وجيريمي هيرست وحفرة الخراء هذه. إلى الأبد».

«يجب أن تعرفي أن هذا جنون».

«إنها فرصتي الوحيدة».

«العيادة في أميركا كانت فرصتك الوحيدة. هل كنتِ تنوين الذهاب أساساً؟ أم كانت مجرد خطة للحصول على المال؟»

أخيراً، تدير رأسها نحوي. يبدو وجهها في ضوء المصباح نحيلاً على نحو مخيف وهادئاً بصورة مرعبة.

«هل تعلم ما هي نسبة الشفاء؟ 30 بالمائة. 30 بالمائة فقط».

«لقد راهنتُ على احتمالات أشد سوءاً».

«هل ربحت؟»

لا أجيب.

«ظننتُ ذلك. وأنا لا أريد المجازفة. لا أريد أن أموت».

«كلنا سنموت حتماً».

«من السهل عليك قول ذلك عندما لا تكون موشكاً على الموت». تنفث الدخان. «هل لديك فكرة كيف يكون الحال؟ أن تغمض عينيك كل ليلة متسائلاً إن كانت هذه ستكون الليلة الأخيرة. في بعض الليالي تتمنى أن تكون الأخيرة حقاً لأنك خائف ومتوجِّع. وفي ليالٍ

أخرى، تحاول البقاء مستيقظاً، من أجل محاربته، لأنك مرعوب من السقوط في الظلام».

عيناها تلاقي عينيّ. يمنحهما ضوء المصباح وهجاً حاداً.

«هل فكَّرتَ يوماً في الموت؟ فكَّرتَ حقاً فيه؟ بلا شعور، بلا صوت، بلا لمس. غير موجود. إلى الأبد».

أعتقد أنني لم أفكِّر فيه بهذه الطريقة. لأننا جميعاً نحاول عدم التفكير فيه. هذا هو العيش. نُبقي أنفسنا مشغولين، ونشيح بأعيننا كي لا نضطر للتحديق في الهاوية. لأن ذلك سيدفعنا إلى الجنون.

«لا أحد منا يعرف كم من الوقت يملك».

«أنا لست مستعدة».

«إنه ليس خيارك. لا نملك الفرصة للاختيار».

«ولكن، ماذا لو كان بإمكانك؟ ماذا ستفعل؟»

«ليست هذه».

«أنت تقول هذا؟» تنظر إلى النفق. «كلانا نعرف ماذا يوجد في الأسفل».

أقول محاولاً الحفاظ على ثبات صوتي: «عظام. هذا ما يوجد في الأسفل. عظام لأشخاص ماتوا منذ زمن طويل، أشخاص لم يتعاطوا المخدرات ويخضعوا لعلاج كيماوي ويأخذوا مسكّنات. أشخاص كانوا يؤمنون بالله والشيطان والأعاجيب. لكننا نعرف أكثر الآن. هذا ليس حقيقياً».

«لا تعطني مواعظ لعينة يا جو. كنتَ هناك. كنا جميعاً هناك».

«ماري، أنتِ مريضة. إنك لا تفكرين بشكل سليم. أرجوك. لا يوجد شيء في الأسفل يمكن أن يساعدك. لا شيء. صدّقيني».

«حسناً». تُطفئ سيجارتها وتمدُّ يدها إلى الحقيبة ثم تُخرج زجاجة فودكا وعلبة أقراص منوِّمة. «إذا كنتَ حقاً تصدِّق ذلك، دعني أذهب

إذن. سأتناول هذه وستكون تلك هي نهاية الأمر. على الأقل سأمتلك الفرصة للاختيار».

لا أرد.

تبتسم وتقول: «لا تستطيع، أليس كذلك؟ لأنك تعرف. بسبب ما حدث لأختك».

«أختي تعرَّضت لأذى. ضاعت. وعادت».

«من أين؟»

أبتلع غصة كبيرة في حلقي ثم أقول: «إنها لم تمت».

تطلق ضحكة حادة رهيبة خالية من المرح أو الإنسانية. جزء مني يتساءل إن كانت هذه هي طبيعة ماري دائماً، من الداخل، أم أن شيئاً ما غيَّرها في تلك الليلة، عندما نزلنا إلى الحفرة. لربما تغيَّر شيء ما فينا جميعاً. لعل الندم والشعور بالذنب لم يكونا الشيئين الوحيدين اللذين جلبناهما معنا من هناك.

«أنتَ لا تصدِّق ذلك».

«بل أصدِّق».

«هراء. كانت ميتة. لا يمكن أن تنجو من تلك الضربة. أنا أعرف لأنني–»

تسكت فجأة، وأصاب أنا بالجمود. فجأةً تتوتَّر نهايات أعصابي كلها.

«لأنكِ ماذا؟»

«لا شيء. لم يكن شيئاً محدداً».

ولكن، هذا كذب. إنه كل شيء. فجأةً يمكنني رؤية كل شيء من جديد. آني متكوّرة على الأرض. هيرست على بُعد مسافة قصيرة منها. العتلة على الأرض. ماري تتشبَّث بذراع هيرست. لكن ماري لم تكن تقف بجانبه من قبل. لقد تحرَّكتْ. أصبحتْ أقرب مني ومن آني.

«كنتِ أنتِ. أنتِ التي ضربتها».

«لم أقصد ذلك. لقد ذُعرتْ. كان حادثاً».

«تركتِ هيرست يتحمَّل اللوم. لقد غطّاكِ، حماكِ».

«إنه يحبني».

أصبح كل شيء مفهوماً الآن. بقاؤها، وزواجها. كان يحبها، لكنه كان يملك شيئاً ضدها أيضاً. ولم يكن باستطاعتها التخلص منه. وربما لعبتْ بركة السباحة والأبواب القابلة للطي دوراً مساعداً. قليلاً فقط.

«هل كنتم ستتركوننا حقاً هناك في الأسفل؟»

«حاولت إقناعه ألا يفعل ذلك».

ولكن، هذا ليس صحيحاً تماماً. أذكر حين وضعت يدها على ذراعه، والنظرة التي تبادلاها. ظننتُ أنها أرادت مساعدتنا. لكنني لست واثقاً الآن. لم أعد واثقاً من أي شيء.

«وكريس؟ لقد أخبرتكِ بأنني كنت سأقابله في ذلك المساء. هل أرسلتِ هيرست وراءه؟ هل كانت فكرتكِ أيضاً؟»

«لا. لم يكن الأمر على هذا النحو. أنت تعرف كيف كان هيرست. كنت خائفة منه».

أفكِّر في الكدمة حول عينها. عينها اليمنى. ثم أتذكَّر هيرست عندما كان يصبُّ كأسي الشراب. إنه أيمن. قطعة أخرى من قاعدة التمثال تنهار.

«إنه لم يضربكِ، أليس كذلك؟»

«وهل هذا يهم؟»

«أجل».

«حسناً. لا، لم يضربني. تشاجرتُ مع إنجي غوردن بعد المدرسة».

«إذن كذبتِ في هذا الأمر أيضاً؟»

«كُرمى للعاهرات، كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً. ما حدث حدث. لا يمكنني تغييره. أتمنى لو أستطيع». تنظر إلى مدخل الكهف. «من فضلك يا جو. دعني أذهب».

«لا أستطيع».

«سأفعل أي شيء. يمكنني إعطاءك نقوداً، أي مبلغ تريده».

«أي مبلغ أريده؟»

«أجل».

أفكر في هيرست الذي ينزف حتى الموت على التراب. أفكر في المال الذي أدين به. أفكر في عيني آني الواسعتين عندما كانتا تحدّقان من النافذة ذات صباح مثلج مشرق، وفي جسدها الصغير الممدد بارتخاء على أرض الكهف.

أفكر في المتفجرات التي وضعتها في الأسفل وفي المفجِّر النقّال في جيبي. أنظر إلى ماري ويشتعل الكره في داخلي.

«هل يمكنكِ أن تخبريني بشيء؟»

«أي شيء».

«أين جميع رجال الثلج الملاعين؟»

تفتح فمها. يتداعى جانب رأسها. وتنبثق مادة من عظم ودم ودماغ في الهواء وتتناثر على الأرض مثل قصاصات ملوّنة. وتنفتح فجوة كبيرة في جمجمتها.

عيناها بالكاد متسعتين اندهاشاً. كان الأمر مفاجئاً جداً. لم تُمنَح لحظةً للتفكير أو الفهم. ذات لحظة إنها حيّة، وفي اللحظة التالية، إنها ميتة، مكوَّمة على الأرض بصورة غير رشيقة، كأن شخصاً ما نقر على المفتاح. قطعَ التيار الكهربائي.

«يا ربي!» ألتفتُ بسرعة إلى الوراء.

غلوريا تقف خلفي وبيدها المسدس.

«لقد قتلتِها!»

«لم تكن ستعطيك أي شيء. لقد تعاملتُ مع عاهرات مثلها من قبل».

«أين هيرست؟»

«تَبيَّنَ أنه سريع النزف».

هيرست. ميت. أحاول استيعاب ذلك. منذ سنوات وأنا أريده ميتاً. بل كنت أتمنى ذلك. لكنني لا أشعر بأي شيء الآن، سوى الاشمئزاز والإنهاك. والخوف -لأنني وحيد الآن مع غلوريا.

«لم تكوني مضطرة لقتله-»

«للأسف كنت مضطرة. ولكن، انظرْ إلى الجانب الإيجابي. لدي جثتان أخريان للتخلص منهما، لذا فإنني لا أملك الوقت لقتلك ببطء». تصوِّب المسدس نحوي. «هل من كلمات أخيرة؟»

«لا تطلقي النار علي؟»

«أتمنى لو كنت أستطيع».

لا فائدة من التوسُّل. ليس مع غلوريا. يمكنني المحاولة. يمكنني أن أقول لها إنني معلِّم. والمعلِّمون لا يُقتَلون. لسنا مثيرين للاهتمام إلى هذا الحد. نحن نموت ببطء، بعد عدة سنوات من اعتقاد الناس بأننا متنا مسبقاً. يمكنني أن أقول لها لدي خطة أخرى. يمكنني أن أقول لها إنني أريد الهرب معها. لكن أياً من ذلك لن يغيِّر شيئاً.

أغمض عينيّ.

تسحبُ مطرقة المسدس ثم تقول: «أرجو أن تكون منتعلاً حذاءك البالي القديم».

أُطبق يدي حول هاتفي... وأضغط على «اتصال».

ليست فرقعة هذه المرة. بل هدير منبعث من الأسفل يهزُّ الأرض التي أقف عليها. أفتح عينيَّ وأرى غلوريا تتمايل، ويترنَّح المسدس في يدها. هل لدي وقت للهرب، لأهجم عليها؟ تنظر إلي مجدداً، ويثبت المسدس. وتشدُّ إصبعها على الزناد...

ليس هناك تأجيل. ليس هناك هرب في اللحظة الأخيرة. ليست هناك فرصة ثانية.

تسقط غلوريا داخل الأرض.

مثل أرنب في حفرة، مثل بِنْس في بئر. تختفي. حتى بدون صرخة. أحدِّق مصدوماً في البقعة التي كانت تقف عليها، في الثقب الذي انفتح للتو في الأرض.

أقترب بخطوات عرجاء وأنظر إلى الأسفل. يمكنني رؤية وميض لون وردي، وخصلة من شعر أشقر. تهتزّ الأرض ثانيةً وتبدأ التربة والعشب بالانهيار تحت مقدمة حذائي الرياضي. أرجع مترنّحاً إلى الخلف، في اللحظة الأخيرة، مع انهيار جوانب الحفرة وسقوط المزيد من التراب والحصى والصخور فوق جسدها.

أحدِّق في الحفرة العميقة، شاعراً بالدوّار والغثيان. يضعف بصري. شيء دافئ يسيل على خدِّي بجانب أذني. رأسي يؤلمني. أرفع يدي لألمسه. المنطقة فوق عيني لزجة وطريّة على نحو غريب. لكنني لا أملك

الوقت للتفكير في ذلك. هدير آخر من الأسفل. إنذار. يجب علي الخروج من هنا قبل أن أنضم إلى غلوريا. في الأسفل. في الظلمة. بين عظام الموتى.

وأشياء أخرى.

يبدو أنني أستغرق وقتاً طويلاً في العودة. أفقد توازني. أتعثر وأتمايل على المنحدرات وأسقط عدة مرات. أحس بطنين في أذني اليسرى وإحدى عينيّ ترفض التركيز بشكل صحيح. هذا لا يدعو للاطمئنان أبداً.

أكاد أصل إلى بوابة المنجم القديم حين أشعر بهدير الهزة الارتدادية الأخيرة من تحتي. أقف وأنظر إلى الوراء فأرى دخاناً أسود يمتزج مع السماء السوداء.

يسقط شيء ما على وجهي. يبدو مثل ندف ثلج. أستغرق وهلة لأدرك أن الندف سوداء، لا بيضاء. ندف من الفحم. أقف لثانية أو ثانيتين وأدعها تسقط حولي.

ثم أجلس. هذا ليس خياراً واعياً، لكن ساقيَّ تنهاران، كأن الأوامر من دماغي توقفت عن العمل. توقفت لفترة الليل. ربما إلى الأبد. أنا منهك. توجد في عيني اليسرى غشاوة حمراء. يخطر لي أنني قد لا أنهض مجدداً. لا أبالي.

أستلقي على ظهري فوق الأرض الحجرية. أحدِّق في السماء، لكنني أشعر كما لو أنني أحدِّق في الأسفل، في حفرة سوداء عميقة. الظلمة تشدني.

يمسك شخص ما بذراعي.

بعد أسبوعين

«لستُ كبيرةً جداً على الوداعات العاطفية».

«وأنا أيضاً».

«هل يجب أن نتعانق؟»

«هل تريدين ذلك؟»

ترمقني بنظرة رافضة ثم تقول: «ليس تماماً».

«وأنا أيضاً».

«هل تعلم ماذا يقول الناس بشأن العناق؟»

«ماذا؟»

«مجرد عذر لإخفاء وجهك».

«في الحقيقة، لعله شيء جيد بالنسبة لبعض الناس».

ترفع بث كأسها نحوي وتقول: «بصحتك».

أطرق كأسي الكولا بكأسها البيرة.

«ولا تظن أنني سأدفع الليلة، فقط لأنك تغيظني وتتركني أواجه العواقب».

«بـ (العواقب) أعتقد أنك تقصدين وظيفتك الجديدة كنائبة مدير؟»

«أجل، في الواقع، كما تعلم -طماطم، بندورة».

«بندورة».

ترفع إصبعها الأوسط في وجهي.

استقال هاري قبل بضعة أيام، إلى جانب سايمون سوندرز. لست متأكداً، لكنني أظن أن للأمر علاقة ببعض الإيميلات التي وجدتها الشرطة

في كمبيوتر هيرست والتي تدلُّ على رشىً وفساد. تأثير مفرط على هاري ودفعات مالية لسايمون سوندرز مقابل التلاعب بأداء ابنه في المدرسة.

تولَّت الآنسة سوزان هاردي (تاريخ) منصب المدير المؤقت وعيَّنتْ بث نائبة لها. أعتقد أنهما سيشكِّلان فريقاً ممتازاً. في الحقيقة، لو كنتُ متفائلاً لذهبت أبعد من ذلك بالقول إنهما قادرتان على قلب آرنهيل أكاديمي رأساً على عقب، وخصوصاً بالنظر إلى أن جيريمي هيرست –أحد أكبر مشاكلها– لن يعود على الأرجح.

في الوقت الحالي، إنه يعيش مع أسرة كفيلة ترعاه، ويُعرَض على أخصائي نفسي بسبب الصدمة التي تعرَّض لها نتيجة الموت العنيف والمفاجئ لوالديه. أود القول إنني أشعر بالأسى على جيريمي، بيد أنني أتذكَّر فوراً بنجامين مورتون.

لن أعرف على نحو مؤكد أبداً، لكنني أعتقد أن جيريمي أخذه إلى الكهف، ربما على سبيل المزاح. على أي حال، حدث شيء ما لبنجامين هناك –شيء سيئ جداً. ولعله لم يكن الطفل الأول. أفكر أيضاً في ابنة

أخت بث، إميلي. طفلة أخرى تغيَّرتْ. حياة أخرى أُنهيتْ على نحو مأساوي قبل الأوان.

ولم يخبر جيريمي أحداً بذلك –باستثناء أمه، ربما.

وُجدتْ جثتا هيرست وماري في موقع المنجم القديم. ما تزال الشرطة تحقق في ظروف موتهما. كان لدى هيرست صلات مشبوهة وحصة كبيرة من الأعداء، بدون ذكر حقيبة تحوي عتلة وربطة عنق ملطختين بالدم في صندوق سيارته، لذا فإن الوصول إلى نتيجة من كل ذلك قد يستغرق بعض الوقت. لدي شعور أن هذه القضية قد لا تُحَلُّ أبداً دون ظهور معلومات إضافية.

ستُردَم الحفرة التي تسبَّبت بها الانفجارات في وقت قريب. ومخطط الحديقة الريفية العامة قيد المراجعة الآن. ولن تُبنَى منازل على تلك الأرض أبداً. لن يوافق على ذلك أي مجلس بعد الآن.

بالطبع، جاءت الشرطة لتتحدث معي. الشرطية تيلور ورقيب آخر –ضخم جداً– يُدعَى غاري بارفورد. تمكَّنا من إيجاد أثر لي في سيارة

هيرست، فاعترفتُ بذلك –أخبرتهما أنه أوصلني إلى منزلي ذات ليلة. وبعد تدوين إجابتي على هذا السؤال، بدت الأسئلة الأخرى روتينية وسريعة.

سألتهما بينما كانا يغادران: «إذن أنا لستُ موضع شك؟»

رفعتْ تيلور حاجبها وقالت: «ليس بالنسبة لهذا الأمر».

قهقه الرقيب الضخم من أعماقه. فكاهة الشرطة.

ثم قال: «يبدو هذا عملاً احترافياً، ولا أعتقد أنك من نوع القتلة المحترفين».

ابتسمتُ وقلت: «القلم أشد قوة».

حدَّق فيَّ ببرود. فكاهة المعلِّمين.

تنظر بث إلى كأس الكوكاكولا أمامي بارتياب ثم تقول: «هل أنت مضطَّر للرحيل اليوم حقاً؟ إنه ليس مشروباً وداعياً تماماً. يمكننا أن نطلب زجاجة شراب ونمضي فترة العصر بها؟»

أحدِّق فيها. سأفتقد التحديق فيها. وأنا مسرور لأننا تصالحنا. أخبرتها بأن السبب الحقيقي لرجوعي إلى آرنهيل هو أنني كنت أحمِّل هيرست مسؤولية انتحار كريس. وكنت بحاجة لإراحة ضميري. هذا صحيح جزئياً، مثل معظم الأكاذيب. وأحيانا يكون ذلك كافياً.

«عرض مغرٍ، لكنني مضطر للذهاب. على أي حال، الصحبة هي التي تهم».

تلوي وجهها ثم تقول: «جميل. سأذهب إلى الحمام».

أراقب جسدها النحيل وهي تمشي برشاقة باتجاه الحمامات. إنها ترتدي جينزاً أسود ضيِّقاً، وحذاء طويل الساق، وسترة مخططة فضفاضة مليئة بالثقوب (أعتقد إنها نوعاً من الموضة وليست عمل عثٍّ مفرط الحماس). أشعر بشيء من الأسف. أنا معجب ببث. معجب كثيراً بها في الواقع. وبوسعي التجرؤ على الاعتقاد بأنها تبادلني الإعجاب. إنها شخص طيب. لكنني لست كذلك. ولهذا السبب سأغادر وأبتعد عنها قدر الإمكان.

«طبق من البطاطا المقلية لتتشاركاه».

أنظر إلى الأعلى فأرى لورين تخبط طبقاً طافحاً بالبطاطا المقلية على الطاولة.

أبتسم وأقول لها: «شكراً».

«على الرحب والسعة».

«ليس من أجل البطاطا فقط».

تحدِّق فيّ باستغراب.

«أنا أتذكَّر. أنتِ التي وجدتني عند موقع المنجم في تلك الليلة».

تطول لحظة صمتها وعندما أظن أنها ستبقى صامتة، تقول: «كنتُ أنزِّه الكلب في نزهته الأخيرة».

كلب كبير السن. كلب أمها. كلب يحمل ندبةً عريضةً جرداء من الشعر حول رقبته. وميْل للعض.

«حسناً. شكراً لكِ ثانيةً لإيصالي إلى المنزل. لعدم قول أي شيء. ولكل شيء آخر. أنا مشوَّش قليلاً بشأن التفاصيل».

«لم أفعل الكثير».

«لا أعتقد أن هذا صحيح».

ترفع كتفيها وتنزلهما، ثم تقول: «كيف حال رأسك؟»

أرفع يدي وألمس جبيني. يوجد أثر أحمر صغير على صدغي، وهي طريّ بعض الشيء. ولكن، هذا كل شيء. «أظن أنني أُصبتُ عندما سقطت».

«أنت لم تسقط».

«صحيح؟»

«ليس تماماً».

تستدير وتعود إلى البار. تلاحقها نظراتي المستغربة.

تعود بث وتجلس على كرسيها قبالتي ثم تقول: «هل كنتَ تقول شيئاً؟»

«لا. لا شيء». أتناول ظرف الصوص. «كتشاب؟»

«شكراً». تأخذه مني. «أوه، قبل أنسى».

تدخل يدها في حقيبتها وتخرج علبة حذاء صغيرة وتضعها على الطاولة.

«حصلتِ عليها؟»

«السيدة كرادوك في قسم البيولوجيا حصلت عليها».

«شكراً». أفتح العلبة وأحدِّق في داخلها.

تقول بث: «قابلْ كرة الوبر».

«أنتِ لم... كما تعلمين؟»

«لاااا. أسباب طبيعية».

«جيد. شكراً».

«لا أعتقد أنك ستنيرني؟»

«لا».

«رجل الغموض».

«لا تنسي (دولي)«.

«سأفتقدك».

أبتسم وأقول: «وأنا أيضاً».

«الآن، هل يمكنك إزالة هذه؟ إنها تمنعني من الأكل».

أضع العلبة في حقيبتي ثم أقول: «أفضل؟»

«قصدتُ ابتسامتك الغبية».

بحلول الساعة الثالثة عصراً، أركب سيارتي استعداداً للعودة إلى الغرب الشمالي. نتبادل أنا وبث رقمينا ونَعِدُ بعضنا بالبقاء على تواصل،

لكنني أعرف أننا قد لا نفعل لأننا لسنا من الأشخاص الذي يراسلون أصدقاءهم، ولكن لا بأس في ذلك.

ليس هناك عناق، ولا دموع، ولا قبلة رومانسية شهوانية في اللحظة الأخيرة. ولا تركض وراء السيارة عندما أنطلق بها على الطريق، بل تحيِّيني فقط بإصبعين من يدها في مرآة الرؤية الخلفية ثم تعود إلى المشرب. وكل هذا جيد.

أسير على الطريق الرئيسي لكنني لا أذهب بعيداً، بل أصل إلى نهايته وأقف بجانب كنيسة سانت جود.

أترجَّل من السيارة وأدفع البوابة. إنها جالسة بهدوء على المقعد الخشبي المخلخل، مرتديةً سترة رمادية بسيطة وثوباً أزرق. تلتفت عند اقترابي منها.

تقول الآنسة غريسون: «مكان غريب بالنسبة للقاء وداعي».

«لكنني أجده مناسباً».

«أظن ذلك».

نحدِّق في المقبرة معاً.

ثم أقول لها: «إنها ليستْ مدفونة هنا، صحيح؟»

«من؟»

لكنها تعرف من.

«أختكِ».

«لم تُستخدَم هذه المقبرة منذ زمن طويل».

«ليست مدفونة في أية مقبرة قريبة. لقد تحقّقتُ».

«والداي أحرقاها».

«لا يوجد سجل لها في المحرقة أيضاً. في الواقع، ليس هناك سجل لموتها على الإطلاق».

بعد فترة صمت طويلة، تقول: «عندما تفقد طفلاً يكون الألم رهيباً. أعتقد أن الحزن نوعٍ من الجنون. إنه يجعلك تفعل أشياء لن تفكر فيها مطلقاً في ظروف طبيعية».

أسألها: «ماذا حدث لها؟»

أخذها والداي ذات ليلة. ولم يعودا بها أبداً. أو على الأقل، لم يعودا بها إلى المنزل أبداً».

لهذا السبب كنتِ مهتمة جداً في تاريخ آرنهيل والمنجم؟ لماذا قلتِ إنك تعرفين ماذا حدث لآني؟»

تهزُّ برأسها مؤيدةً ثم تقول: «هل كان اصطدام السيارة حادثاً حقاً؟»

«أجل. صحيح».

تقول بتفكُّر: «يقول الناس إن الحياة تجد سبيلاً. لعل الموت يفعل ذلك أيضاً في بعض الأحيان».

وفي نهاية المطاف، أعتقد أنها تمسك بجميع الأوراق.

«يجب أن أذهب». أمدُّ يدي إليها. «الوداع آنسة غريسون».

تأخذها بيدها الناعمة الهادئة ثم تقول: «الوداع سيد ثورن».

أقف وأمشي في طريقي وقُبيل وصولي إلى البوابة تناديني: «جو؟»

«نعم؟»

«شكراً لك. من أجل عودتك».

أرفع كتفي وأقول: «أحياناً لا يكون لديك خيار».

أقود سيارتي عبر الطرق الريفية الملتوية المظلمة ببطء وحذر. لكن الرحلة تستغرق وقتاً أقل مما توقعت رغم سرعتي التي تشبه سرعة الحلزون. صحيح أنني أفتقد ازدحام ساعة الذروة، لكن الحقيقة هي أن ذهني مشغول –مشغول جداً.

أوقف السيارة في شارع جانبي قبل بضعة أبواب من الشقة التي تشاركتها مع بريندان ثم أترجَّل وأنظر يمنة ويسرة. أمشي حتى نهاية الطريق قبل أن أجدها؛ سيارة فورد فوكُس مهترئة بشكل طفيف، على مقعدها الخلفي كرسيان للأطفال ولافتة معلّقة على النافذة الخلفية كُتب عليها: يوجد وحوش صغيرة في السيارة.

أحدِّق فيها لبعض الوقت ثم أعبر الشارع ببطء أكبر وأقطع شارعيْن آخريْن باتجاه حانتي القديمة المفضَّلة. مشرب جيدة، يقدِّمون فيها شطيرة لحم ستيك وكبد لذيذة.

أدفع الباب وأراه على الفور جالساً بجانب طاولتنا الاعتيادية في الزاوية البعيدة. أطلب كأساً من البيرة وكيس رقائق بطاطا ثم أتجه نحوه. ينظر إلى الأعلى وتمتدُّ ابتسامة عريضة على وجهه النحيل.

«انظروا من جلبته القطة إلينا».

أضع كأسي على الطاولة وهو يقف ويمدّ ذراعيه فنتعانق –لا يستطيع رؤية وجهي.

أشرب رشفة من كأسي ثم أقول: «شكراً».

«والآن، هل ستخبرني ماذا حصل بحق الجحيم؟»

«لن تشكِّل المرأة الشقراء مشكلة بعد الآن».

«حقاً؟»

«لقد ماتت. حادث».

أراقبه لكن رد فعله عادي.

«وماذا بشأن الديْن؟»

«أعتقد أنه سيُشطَب قريباً جداً».

«في الواقع، هل تعرف ما كانت ستقوله أمه العجوز العزيزة؟»

«ماذا؟»

«الرجل الحكيم لا يحصي دجاجاته أبداً إلى أن يقتل الثعلب الأخير».

«المعنى؟»

«قد تكون تولَّيتَ أمر المرأة، ولكن هل تعتقد حقاً أن هذه هي نهاية المسألة؟»

أفتح كيس رقائق البطاطا وأعرضها على بريندان فيربِّت على بطنه ويقول: «حمية، أتذكُر؟»

«آه، بالتأكيد. كنتَ أضخم بكثير، صحيح؟ عندما كنتً تشرب».

يبتسم ثم يقول: «ليس مثل أدونيس الذي أنا هو الآن».

«إذن يمكنك القول إنك كنتَ بديناً حينئذ؟»

تختفي الابتسامة. «ما هذا يا جو؟»

«شيء قالته غلوريا قبل أن تموت. كانت سريعة، إن كنتَ تتساءل. أعلم أنكما كنتما مقرَّبيْن».

«مقرَّبان؟ ليس لدي أية فكرة لعينة عما تتحدث عنه. أنا صديقك. الشخص الذي ساعدك دائماً في الأزمات. الشخص الذي زارك على مدى أسابيع في المستشفى».

«زرتني مرتين. لكنني أعتقد أنك كنتَ مشغولاً في إدارة أعمالك. القمار، الابتزاز، القتل».

«أعمال؟ هذا بريندان الذي تتحدث معه!»

«لا. هذا البدين الذي أتحدث معه».

نحدِّق في بعضنا بعضاً. أرى أنه يدرك أن لا فائدة من الإنكار. لقد لُعبتْ جميع الأوراق.

يفتح ذراعيه ويقول: «اللعنة، لقد نلتَ مني. لطالما كنتَ ذكياً. لهذا السبب أحبك».

تسقط اللكنة الأيرلندية الثقيلة مثل أفعى تخلع جلدها.

«لهذا السبب طلبتَ من غلوريا أن تجعلني أعرجاً».

«العمل عمل والصداقة صداقة».

«ماذا تعلم بشأن الصداقة؟»

«ما زلتَ تتنفس. أسمِّي هذه صداقة».

«لماذا؟ لماذا تظاهرتَ أنك صديقي أساساً؟ لماذا تركتني أشاركك شقتك؟»

«كنتُ أحاول مساعدتك. أمنحك فرصة لتسديد دينك. لكنك ظللتَ تغرق نفسك أعمق فأعمق. إضافة إلى ذلك، وبكل صراحة، أنا أستمتع بصحبتك. في مثل وضعي، لا يملك المرء الكثير من الأصدقاء المقرّبين».

«تحدث معهم الكثير من الحوادث، أليس كذلك؟»

يقهقه ثم يقول: «في بعض الأحيان، هذا ضروري».

ضروري. بالتأكيد.

يسند ظهره على كرسيه ثم يقول: «إذن، أخبرني. ماذا قالت غلوريا؟»

«أرجو أن تكون منتعلاً حذاءك البالي القديم. لم أدرك ذلك في حينه، ليس مع تصويب مسدسها نحو رأسي. لكنني تذكَّرتُ لاحقاً».

يهزُّ رأسه الأشعث ويقول: «كان يجب علي أن أعرف أن كلماتي الحكيمة سترتدُّ عليّ يوماً ما».

«ليس هذا فقط. كان من الممكن ألا أعير أهمية كبيرة لما قالته غلوريا–»

أردتُ ذلك. أردتُ ذلك بشدة. ولكن، كان هناك شيء آخر.

أضيف قائلاً: «إنها السيارة».

«السيارة؟»

«رأيتُ فورد فوكُس سوداء بداخلها كرسيَّي أطفال مركونة بجانب نزل للمبيت قبل أن تقول إنك جئتَ لتجلب الحقيبة لي. كانت مألوفة بالنسبة لي، لكنني لم أستطع التحديد. ثم تذكَّرت. لقد رأيتُ نفس الفورد فوكُس خارجِ الشقة مرةً من قبل. أخبرتني إنك استعرتَ سيارة أختك».

«آه».

«هل هي كذلك بالفعل؟»

«في الحقيقة، لا. دائماً اختبئْ أمام أنظار الجميع يا صديقي. نصف الناس في هذه المشرب سمعوا بالبدين. لا أحد منهم يعلم إنه

موجود هنا في معظم الليالي. لا أحد ينظر مرتين إلى بريندان. سكّير أقلع عن الشرب، مهرِّج أيرلندي مسالم. والأمر نفسه ينطبق على السيارة. لا أحد يلاحظ عربة أطفال أخرى. في حال حدث شيء سيئ، أنت بحاجة للخروجِ بسرعة. لن توقف الشرطة أباً أشعث الهيئة يقود سيارته الفورد فوكُس من أجل جلب الأولاد. تمويه مثالي».

«أو لعله ليس كذلك».

«في الواقعِ، جميعنا نرتكب أخطاء. خطؤك هو العودة إلى هنا. لأنني الآن أمام معضلة. أنت ما تزال مديناً لي بالمال. حبيبتي ماتت. ماذا يُفترَض بي فعله معك يا جو؟»

«تدعني أخرج من هنا».

«يمكنني فعل هذا. لكنه لن يكون سوى تأجيل للمحتوم».

«أنت لن تقتلني».

«ولماذا؟»

«أخبرني شيئَيْن أولاً. لماذا طلبتَ مني الذهاب إلى الشرطة؟»

«لأنني كنتُ أعلم بأنك لن تفعل. علم نفس عكسي».

«وهل كان كل شيء أكاذيب؟ كل شيء آخر أخبرتني إياه؟»

يفكِّر قليلاً ثم يقول: «حسناً، لنرَ. أمي أيرلندية بالفعل، لكنها ليست عزيزة جداً. كنتُ بالفعل بديناً. وأنا كحولي مقلع عن الشراب. آه، لدي أخت–»

«مع طفلين، ديزي وثيو».

يرتعش عصب بجانب عينه بينما يحدِّق فيّ.

«إنهم يعيشون في آلترينكهام. والدهما يعمل في المطار. والأم موظفة استقبال في عيادة طبيب. يرتاد ثيو وديزي مدرسة هَنتينغدون الابتدائية. تجلبهما أختك ثلاثة أيام في الأسبوع وتجلبهما جليسة أطفال في أيام الثلاثاء والجمعة عندما تعمل لوقت متأخر. أوه، أيضاً، ليس لديهم

جرذاناً، بل فئران هامستر». أتناول كأسي وأشرب رشفة. «كيف أبلي حتى الآن؟»

«كيف بحق الجحيم–»

«لم يكن لدي عمل. كان عندي الكثير من الوقت الفارِغ. والآن، إليك المسألة المهمة. إذا لاحقتني، فسألاحق أختك وعائلتها».

ترتسم ملامح الغضب على وجهه. «ليس لديك المقدرة».

«حقاً؟»

أدسُّ يدي في جيبي وأُخرج شيئاً صغيراً بنياً ومكسوًّا بالوبر. ثم أُسقط الهامستر الميت في كأس شرابه.

«كما قالت أمك العجوز العزيزة –ليس لديك فكرة لعينة عما أملك من مقدرة».

يحدِّق بريندان في الهامستر ثم يحدِّق فيّ مجدداً فأبتسم.

تتبدَّل ملامحه.

«أخرج من هنا. لا أريد أن أرى وجهك القبيح مجدداً».

أدفع كرسيِّي إلى الخلف.

يضيف بريندان: «بعيداً، بعيداً جداً».

«أسمع أن بوتسوانا جميلة».

«أحجز تذكرة بدون عودة. إن أرسلتَ حتى بطاقة بريدية، فأنت ميت. هل تفهم؟»

«أفهم».

أستدير وأتجه صوب الباب دون أن أنظر خلفي.

ولسبب ما، أنا لا أعرج.

طُلب من هنري مراراً ألا يلعب هناك. هذا كل ما تتحدث عنه أمه منذ أن انتقلوا إلى هنا. المكان خطر. يمكن أن يتعرَّض لأذى، أو يضيع، أو يسقط في حفرة في الأرض. وهو لا يريد أن يسقط في حفرة في الأرض، صحيح؟

بالطبع، لا يريد هنري ذلك، لكنه، في الوقت نفسه، لا يصغي دوماً لما تقوله أمه. أحياناً تبدو كلماتها مثل خليط من الكلمات؛ يسمعها، لكنه لا يفهم ما تعنيه حقاً. من الواضح أن هذا يعود إلى كونه مصاباً بالتوحُّد. هذا يعني أنه لا يفهم مشاعر الآخرين (لا يشعر بالأشياء بطريقة غير سليمة).

هذا ليس صحيحاً تماماً. إنه يجد صعوبة في فهم مشاعر الناس. ولكن، ليس إلى هذه الدرجة مع الحيوانات. أما بالنسبة للأمكنة، فإنه قادر على الشعور بها. مثل الحفرة القديمة. لقد أحسَّ بها منذ لحظة

انتقالهم إلى هنا. كانت تناديه. كما لو أنه كان يقف بجانب غرفة يوجد فيها أناس كثر يتحدثون، لكنه لم يكن يستطيع فهم ما كانوا يقولونه.

لم يخبر هنري أمه بشأن الأصوات. هنالك الكثير من الأشياء التي لا يقولها لأمه لأنها «تقلق». هذا ما تردُّده دائماً. إنها قلقة بشأن الحفاظ على سلامته. قلقة بشأن إمضائه الكثير من الوقت وحيداً. لهذا السبب فرحتْ كثيراً عندما أخبرها عن صديقيه الجديدين، فهنري لم يكن لديه أصدقاء أبداً من قبل وهو يعرف أن أمه قلقة بشأن هذا الأمر أيضاً.

تعمل أمه اليوم في الطابق العلوي على طلاء الجدران. إنها تُغيِّر ديكور المنزل. قالت إن لون الماغنوليا على كل جدار يجعلها تشعر كأنها تعيش في علبة من السميد. كانت أمه تقول أشياء مضحكة في بعض الأحيان. وهنري يحب أمه.

لذا، فهو يشعر بشيء من (الشعور بالذنب؟) عندما يخرج من البيت خلسة. ولكن ليس إلى درجة كافية لمنع نفسه. هذه هي المشكلة.

هنري لا يتوقف ليفكر في تأثير أفعاله على الآخرين (هذا ما قاله الطبيب). إنه يعيش اللحظة الحالية فقط.

واللحظة الحالية جيدة. الشمس مشرقة، لكنها ليست مشرقة بنعومة كالزبدة الذائبة، مثل الصيف. بل مشرقة بحدّة. إنه إشراق الشتاء. إشراق حاد عند الحواف، كما لو أنه يستطيع جرح أصابعك إن لمسته. وهنري يحب هذا. إنه يرتدي معطفاً سميكاً يُشعره بالأمان والدفء من الداخل؛ معزولاً عن العالم حوله. وهنري يحب هذا أيضاً.

يمشي على الطريق إلى أن يصل إلى بداية السياج الأمني. إنه يعرف أين توجد ثغرة فهو بارِع في إيجاد طرق للدخول إلى الأماكن. يتسلل عبر الثغرة وينظر حوله.

يتساءل أين صديقيْه. إنهما يلتقيان به هنا في العادة. وفي نفس اللحظة يراهما –كأن مجرد التفكير فيهما يدفعهما للظهور. يلوِّحان له وينزلان المنحدر الصغير نحوه. الفتاه في عمر هنري تقريباً. والصبي أكبر بقليل. نحيل ذو شعر أشقر. في بعض الأحيان، تحمل الفتاة دمية.

يتجوَّلون على مهل في أرجاء الأرض المقفرة المغطاة بالأجمات. وبين الحين والآخر، يتوقف هنري ويلتقط حجراً، أو برغيّاً، أو قطعة معدنية. إنه يحب جمع الأشياء.

وبعد مضي فترة من الوقت –لا يعرف تماماً كم لأن الساعات تربكه– يدرك هنري أن الشمس لم تعد حادة ومشرقة كما كانت. لقد انزلقتْ مسافة طويلة في السماء. يخطر في باله أن أمه قد تكون انتهت من الطلاء، وإذا لم يكن في المنزل فإنها ستقلق.

فيقول لهما: «يجب أن أذهب».

يقول الصبي: «ليس الآن».

تقول الفتاة: «ابقَ قليلاً بعد».

يفكِّر هنري. إنه يودُّ البقاء. يشعر بذلك في داخله. يسمع الحفرة تطنُّ في رأسه. لكنه لا يريد أن تكون أمه حزينة.

لذا يقول: «لا. سأذهب».

يقول الصبي بنبرة أشد إلحاحاً: «انتظرْ».

تقول الفتاة: «لدينا شيء لنريك إياه».

تلمس ذراعه. يدها باردة. إنها ترتدي فقط بيجاما رقيقة. أما الصبي فيرتدي تيشيرت وبنطالاً قصيراً. وكلاهما حافيان.

يخطر في ذهن هنري أن هذا غريب بعض الشيء. ومن ثم تختفي الفكرة؛ تخنقها الأصوات الهامسة.

يقول مرة أخرى: «أنا بحاجة حقاً للذهاب».

يبتسم الصبي. يسقط شيء أسود من شعره ويعدو سريعاً.

ويقول: «سوف تعود. نحن نَعِدُك».



setoN

[1←]

ارة بذيئا

